Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

ثم تشرق الشمس

تأليف

ثروت أباظة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

صعد همام بك الأرميرلى إلى الطابق الأعلى من منزله ، وابتسامة فرحانة تشيع فى وجهه كله ، وكانت زوجته سميرة هانم تجلس فى البهو الذى تعودت أن تنتظره فيه . وما لبثت ابتسامة وجهها أن ترقرقت على وجهها . وأحس الزوجان الكبيران فرحة مشرقة بينهما ، فقد عاشت سميرة هانم مع زوجها السنوات الطوال فلم تلقه يوما حين عودته إلا بهذه الإشراقة ، وعاش هو معها يغيب نفسا بلقائها ويكاد شىء تقوم به ، فلم يكن غريبا إذن أن تظهر السعادة بينهما عند اللقاء . ولكن همام بك كان يحمل لزوجته فى يومه هذا هدية أراد أن يشفعها بهذه الابتسامة التى صحبته فى طريقه إلى الطابق الأعلى من منزله

جلس الزوج إلى كرسيه وأخرج من جيبه ورقة مطوية وأعطاها زوجته ، ولم يرد على قوله .

— مبروك يا ستى .

وأخذت الزوجة الورقة وقد شاع فى وجهها فرح مستطلع ، وفتحت الورقة وهى تقول :

— خيرا .

ثم لم تنتظر الإجابة ، بل راحت تقرأ الورقة التى تبينت فيها أول ما تبينت أنها ورقة رسمية عليها أختام وتوقيعات كثيرة ، ثم ما لبثت أن تجهم وجهها هونا وقالت لزوجها :

— ما هذا ؟

— مادا ؟ ألم تعرف ؟

— ما الدى حملك تفعل هدا ؟

وفهم الزوج مبعث عضبها ، وازداد بهذا الغضب فرحا وازداد به حبا لزوجته وإعجابا ، وقال وفي صوته رعشة :

— عشرون فدانا ، قصدنى صديق أن أشتريها منه بدل أن يشتريها منه غريب لا يعرفه ، ورأيت أن أكتبها باسمك ، ولم أشأ أن أخبرك حتى أسجل الشراء في المحكمة المختلطة .

وقالت سميرة هامس وقد احتلج وجهها ، وصعدت إلى عينيها دموع حسبها أن تسيل خشية من إغضاب زوجها الذى يريد إرضاءها

— ومن قال لك إنى أريد أرضا أو فدادين !

— وماذا يغضبك في هذا ؟

— يغضبني أنني لا أريد منك إلا أنت ... أنت وحدك . ويغضبني تفكيرك في كتابة أرض لى ، تفكير لا أحب أن يجول في ذهنك لأنى لا أحب أن يجول في ذهنى . أنت عالمى كله ، وما كنت أحب أن تظهر رغبتك عني في أرض تكفيني منك ابتسامة رضا ، ويكفيني في حياتي أن أراك مرتاحا في بيتك وبين أولادك .

— الله يبقيك يا سميرة .

وكادت الدموع تطفر إلى عيني الرجل ، ولكن رجولته ما لبثت أن تغلبت ، وما لبث هو أن غير موضوع الحديث .

— أين الأولاد ؟

— خيري ويسري ما زالا في المدرسة .

— تقولين خيري ويسري في المدرسة ! وكأن يسرى أصبح تلميذا كبيرا

مثل حيرى .

وعادت الابتسامة هونا إلى وجه سميرة هانم وهي تقول :

— لو رأيته وهو يغالب النوم مصمما أن يسهر مثلما يسهر أخوه ، عاجزا في الوقت نفسه أن يغالب رأسه المائل وجفونه المثقلة ، وكلما صحت به أن يقوم للنوم اغتصب لحظات معارضا ، ثم ما يلبث رأسه أن يعود إلى الميل وجفونه إلى الانطباق .

— أرجو أن يصبح مثل أخيه في المذاكرة .

— خيرى ... الله يحميه

— الحمد لله .. فيه البركة .. لا أذكر أنني طلبت منه أن يذاكر أبدا .

— الحمد لله ، ناجح دائما ، ولكني يا هانم لست غير مرتاحة لاستذكاره خارج البيت في هذه الأيام .

— لماذا ... إنه يذاكر عند محسن ابن عمه ، والبكالوريا محتاجة لتعاون الطلبة .

— نعم أعرف .. ولكن هل يا ترى يقدمون إليه حاجته من طعام وشاي وقهوة كما نفعل هنا ؟

— بيت عزت مفتوح .

وابتسم هانم ابتسامة تخفي معنى ما ، أو لعلها تبين عن ذلك المعنى وهو يقول :

— ولعل هناك يا ست سميرة من يهتم بشأنه أكثر مما تفعلين .. أين نادية ؟

— في حجرتها

— ناديها نجلس معا .

وقبل أن تقوم سميرة هانم تأتي الخادمة لتنبئ الست أن صديقة فوزا لك في

الطابق الأسفل ويريد أن يلقاه ، ويقوم همام بك إلى صديقه وتعود سميرة إلى الورقة تقرأها ثم ما تلبث دمعات لها أن تسيل ، فقد كانت هذه الورقة تحسم لها الخوف من يوم تحتاج فيه إلى ربع أرض ... ويومذاك ... ما الأرض وما المال ، بل وما الدنيا جميعا إذا فارقها زوجها ؟ هذا العطوف الطيب السمح الذى يحول بينها وبين هموم الحياة ... لا كان ذلك اليوم ... لا كان .

٢

انتهى اليوم الدراسى فى مدرسة الخديوى إسماعيل وخرج التلاميذ ، وكان حيرى مع جماعة من إخوانه يعرفون أن عليه أن يذهب إلى مدرسة المنيرة لينتظر أخاه يسرى ويصحبه إلى البيت ، فرافقوه الطريق ، ولكن محسن عزت لم يشأ أن يصحبهم وقال لحيرى :

— لا بد لى أن أذهب إلى البيت ، فقد تركت أختى الصغيرة مريضة وأريد أن أطمئن عليها .

وقال حيرى فى لهفة شغوف :

— من ؟ فايزة ؟

— نعم .

— مسكينة ! وهل تتحمل المرض ؟.. طيب اذهب أنت وسأتخلى بك .

وانفصل محسن عن الجماعة ، فساروا إلى مدرسة المنيرة ، ولما بلغوا بابها كان ما يزال أمام انصراف تلاميذها بضع دقائق ، وظل حيرى ورفاقه أمام الباب يتحدثون ، ولكن نحيب كامل صديق حيرى المغرب أحس الجزع الذى يعانيه

خيرى فقال له فى صفاء :

— إن شئت فاذهب أنت إلى محسن ، وسأصحب أنا يسرى إلى البيت

— أترى ذلك ؟

— وما البأس ؟

— أخشى أن يخرج يسرى لغيابى سأنتظره حتى يخرج ثم أذهب أنا إلى محسن . ولكن وحياة والدك يا نجيب احرص على يسرى فى الطريق فهو كثير الحركة لا يهدأ .

— ألا أعرف يسرى ؟ . لا تخف يا أخى .

— واحذر أن تدخل به فى مظاهرة

— مظاهرة ؟... آه أظنها الآن ستعت عائدين .

وقال صلاح الفولى .

— بهذه المناسبة ألا تعرف ماهية هذه المظاهرة يا خيرى ؟

— هل يمر يوم من غير مظاهرة ؟.. حزب الوفد وحده كان يقيم المظاهرات كل يوم فى وزارة محمد محمود ، فما بالك والوفد اليوم مع الأحرار الدستوريين ... المظاهرات كل ساعة هل مر علينا يوم فى وزارة صدقى من غير مظاهرات ؟.

— يا أخى وكأن الرجال معجون من حديد صلب كأن المظاهرات تخرج لتحيته

— المهم أن تحافظ على يسرى يا نجيب . احذر منه

— لا تخف

وتدخل صلاح الفولى فى الحديث سائلا خيرى :

— قل لى يا خيرى ، هل محسن من عصبة مباشرة ؟

— تقريبا .

— لا أفهم . ما معنى تقريبا ؟

فقطع نجيب الحديث قائلا :

— هل تمت شجرة عائلة خيري عندك ولم يعد ينقصها إلا صلة خيري بمحسن .

واغتاظ صلاح فقال في حدة :

— يا أخي ما شأنك أنت ، هل سألك أحد ؟

وقبل أن يجيب نجيب دق الجرس ، وما هي إلا بضع دقائق حتى انفرج باب المدرسة عن أفواج التلاميذ وقد تباينت جسومهم وأعمارهم تباينا شديدا ، فهذا طويل فارع الطول ، وهذا نحيل ضئيل لا يكاد يبين في الحشد الذي يجاهد للخروج من الباب ، وآخر سمين مفرط السمن وبينهم من يتعهد شاربه في اعتزاز ، وبينهم من يتعهد طربوشه في تأنق ، ومنهم من لا يعتز بشيء أو يهتم بشيء الا أن يخرج من المدرسة وينتقل إلى بيته ... أو إلى الرفاق الألى ينتظرونه عند بيته . وبين التلاميذ من ينتظره خادمه ، وبينهم من ينتظره ذووه ، ومنهم من لا ينتظره أحد ؛ ولا فارق ثمة عندهم بين هذا وذاك ، فكلهم في هذا الرحاب سواء .

وتنكسر فيهم غرور الثراء وزهو الولادة والمنصب

يموت فريسة كالعتيق وإن لم تستتر ولم تحجب

ويظهر يسرى وعينه إلى المكان الذي تعود أخوه أن ينتظره فيه ، فيقصد إليه في غير ترحيب ولا ضيق غير ملتفت إلى هذه الابتسامة التي أشرقت على وجه خيري حين رآه . فما كان يفهم لها معنى ... إلا أنه كان فرحا على أية حال أن خرج من المدرسة ليستقبل البقية الباقية من يومه في لعب ومرح .

وطلب خيرى إلى أخيه أن يسير مع نجيب حتى البيت ، وطلب إليه أيضاً أن يكلمه في التليفون عند عمه عزت بك ليطمئنه على وصوله ، فوعده يسرى بالطاعة. وانصرف هو ونجيب ونقة الرفاق وعين خيرى تصاحبهم حتى حاد بهم الطريق ، فانصرف هو إلى بيت صديقه وقريبه محسن.

كانت فايزة طفلة في سنتها السادسة ، ضحكة البيت المرحة الطروب ، إليها يلجأ الأب إن ضاق بالسياسة التي يعمل في ميدانها ، وإليها تلجأ الأم كلما وجدت من بيتها فراغا ، وحولها يجلس محسن وخيرى كلما ضاقا بالمذاكرة

كانت فايزة عند محسن أخته الحبيبة الضاحكة ، وكانت عند خيرى كل هذا وشيئاً آخر أكثر من هذا وأعز. كانت وسيلته إلى وفية ، فحولها كانوا يجلسون كلما عن لهم أن يتركوا المذاكرة حينا ، وحولها كانت تصاحبهم وفية تلهو معهم وتفتح لأختها الصغيرة موضوعات الأحاديث التي تطهر لشعبا ، وبين الضحكات الصافية تلتقى عيون صافية ، وقلوب شغفها الحب الطاهر ، ومنعها الحياء أن تبين عن حب بها زاخر موار.

هي وفية أمل الصبا والشباب ، كانت الطفولة تجمعهما في اللعب ، ثم استقبلا الشباب معا فمرن بينهما ستارا رقيقا دقيقا عنيفا لا يلين. فالخلوة بينهما لا تتاح ، واللقاء بينهما بمقدار ، والعيون حولهما رواصد ، والرقيب عليهما عتيد ، يحسانه في دعوة الأم لوفية إن طال بقاؤها في الغرفة ، ويحسانه في نظرة محسن العاتبة إذا علت ضحكة لها ، ويحسانه أول ما يحسانه في نفسيهما التي تحول بينهم وبين الانطلاق الذى كانا يمرحان فيه حين كانت الطفولة تظلهما. وهما مع ذلك يحمدان الشباب ، ذلك الوافد الجديد ، ففى بريقه عرفا معنى هذا الخفق العنيف الذى كان يزحم صدريهما ولا يدريان له سببا ، وفى هذا الخفق عرفا الحياة ، وفى هذا الستار الذى أسدله الشباب عرفا الحب ، وفى هذا الرقيب الذى حل بهما

عرفا لذة ناره . إنهما يحمدان الشباب ويحمدان ما فرضه عليهما من قيود ، فهى قيود لم تستطع على شدتها أن تمنع العين أن تلتقى بالعين ، والابتسامة أن تلاقيها ابتسامة ، والإشراقة أن تستقبلها إشراقة . وحول فايزة كانت تلتقى العيون والابتسامات والإشراقات

هكذا جزع خيرى لمرض فايزة جزعا شديدا ، فذهب إلى منزلها يريد أن يطمئن عليها ، ويرجو من صميم قلبه ألا يطول هذا المرض . واستقبله البيت فى وجوم صاخب ، فالخدم مشغولون بتنفيذ الأوامر التى لا يقطع لها سبل ، والجميع حول سرير فايزة يحيطون بها فى إشفاق وخوف ، ينتظرون الطبيب أن يفرغ من فحصه . وصعد خيرى إلى الطابق العلوى ، وحين عرف بوجود الطبيب مكث خارج الغرفة ينتظر . ولم يطل به الانتظار وإن أحسه هو طويلا ، وخرج الطبيب ومعه وفية ، وسارع خيرى إلى وفية يسألها عما قال فطمأنته فى ابتسامة تكاد تشرق . وهدأت نفسه بعض الشىء ، ودخل الغرفة وراح يضحك فايزة مقلدا طريقة نطقها للحديث ، وهى تضحك فى ابتسامة واهنة ، وعمه عزت بك يحاول أن يضحك ليهون على زوجته إحلال ما كانت تنوء به من خوف شديد من هذه الحرارة المرتفعة التى تعانيها ابنتها

ولم يطل خيرى مقامه ، بل سرعان ما طلب إلى محسن أن يؤجلا المذاكرة إلى الغد ، وما أسرع ما ارتاح محسن لهذا الطلب . وخرج خيرى من الغرفة ، وقبل أن يصل إلى السلم التفى بوفية مرة أخرى فطالعته منها ابتسامة عذبة ، وسؤال هامس ناعم لم يرد على كلمة واحدة حملت معها معانى نعم بها أى نعيم .

— خارج ؟

ولى هناءة غامرة أجاب :

— أجلنا المذاكرة إلى الغد

ــ وماله ، ولماذا لا تبقى معنا قليلا ؟

ــ أنتم مشغولون بفايزة ، وأنا أريد أن أذهب إلى البيت لأطمئن على بسرى ، لأنى لم أوصله اليوم .

ــ لماذا ؟.

ــ كنت مشغولا على فايزة فأرسلته مع أحد أصحابى وطلبت إليه أن يكلمنى هنا بالتليفون ، ولكنه لم يتكلم ، وأخاف أنا أن أتكلم ويكون حضرته فى الشارع يلعب دون أن يرى وجهه لبيبا فتشغل لغيابه .

ــ طيب يا سيدى ... تشكرك .

ــ علام الشكر ؟.

ــ على اهتمامك بفايزة .

ــ أنت لا تعرفين كم هى عزيزة على يا وفية ... فايزة عندى مثل نادية تماما ...

وأوشك أن يستطرد فى حديث عن المكانة التى تشغلها فايزة فى قلبه ، بل أوشك أن يبين لها مكانة هذا البيت جميعا فى نفسه ، ولعل أملا مبهما دافعه أن يحدثها عما لها هى فى نفسه ، واهما أن عينيه ووجهه هذا المشرق وذلك الضياء الذى يشع من خلجاته جميعا لم ترو لها حديث نفسه كاملا ، لم تخف منه خافية ... أوشك حيرى ثم وقف بإشفاقه عندما ارتفع صوت إجلال هاما من حجرة فايزة :

ــ يا وفية !.

ــ نعم يا بنتا .

وقبل أن يرتفع صوت إجلال هاما مرة أخرى ليدعو وفية ، كان حيرى قد استأذن وكانت هى قد همست فى إعزاز :

— مع السلامة .

نزل خيرى يثب السلم وثبا عنيفا ، سريعا متلاحقا ، ولكنه مع ذلك أهون من ذلك الوثب الذى أخذ قلبه يخفق به داخل ضلوعه فرحا بهذا الحديث الصغير الكبير الذى مهدت له الصدفة . لقد كاشفته بحبها فى طلبها إليه أن يبقى ، وكاشفته بحبها فى نظراتها الحالمة الوادعة الرضية ، وكاشفته بحبها فى نغمات صوتها الهامسة الحالمة ، وكاشفها هو بحبه فيما رواه عن مكانة هايدة من قلبه ، وفى إشفاقه عليها وفى مسارعته إلى بيتهم مرسلا أخاه مع صديق . لقد تكاشفا بالعيون والوميض ، والكلام يدور من بعيد كما يدور العابد حول معبوده المقدس ويكره أن يلمسه . لم يقل أحبك وإن قالها ألف ألف مرة ، ولم تقل أحبك وإن كان قد سمعها منها ألف ألف مرة . لكم يحبها . ولكم يطيب له أن يقول فى نفسه . ولكم تحبني .

٣

دلف خيرى البيت وقصد من فوره إلى حجرة يسرى وفتحها ، فوجده يلهو ويلعب على الأرض ، فقال له فى شىء من عتب مشوق :

— لماذا لم تكلمنى يا أخى ؟

— والله نسيت يا آبية

— نسيت ؟ .. ألا تقدر خوفى عليك ؟

— ومم تخاف ؟... هل أنا صغير ؟

— طب يا سيدى ... أنا غلطان !.

وأقفل الباب وذهب إلى أمه يسهما تمرض فايزة ، واستقبلت الأم السأ فى شىء من الإشفاق سائلة عن نوع المرض ، ثم قالت لابنها إنها سرورهم بمجرد عودة أبيه لتستأذنه وتستقل سيارته فى زيارتها ثم دار بينهما الحديث بعد ذلك فى نواح شتى ، ولكن الأم لاحظت أن الابن فرح طروب يجاهد عينيه ووجهه ألا تفصح ما يموج فى قلبه من هناءة ورضا وشاءت الأم أن تظهر لولدها أن ما يبدله من جهد قد نجح ، وأنها لم تلحظ السعادة التى يعيش فيها .

ولكن غريزة المرأة الأم لم تمهد لها المضى فيما تشاء ، فإذا هى تحدث الحديث حذقة عميقة إلى ناحية لم يكن حيرى يتوقع أن ينحرف إليها الحديث قالت الأم فى هدوء :

— حيرى !

— نعم يا ماما

— لماذا لا نخطب لك ؟

— ماذا ؟

— لماذا لا نخطب لك ؟

— أنا تلميذ لا أزال فى البكالوريا .

— وماله ؟

— كيف ؟

— أنت تلميذ مستقيم .. نخطب لك .. وحين تتخرج تتزوج لم لا ؟

— ولكن يا ماما

— ماذا ؟ .

— لا يا ماما . هذا غير معقول

— أترى هذا ؟

— والله أظن لو انتظرنا قليلا ...

— ولماذا ننتظر ؟.

— والله أمرك .

— قد لا تنتظر العروس التى تريدها .

وانتفض خيرى فى حيرة ذاهلة :

— ماذا ... العروس التى أريدها ... أى عروس ؟.

وقالت الأم فى سخرية رحيمة :

— وفية .

— بنا .

— نعم .

— هل قلت لك إنى أريدها ؟.

— إنك يا ابنى تقول هذا كل يوم ... كل دقيقة ... كل مذاكرة مع محسن ، وكل عودة من عند محسن ... المصيبة أن الأولاد دائما يظنون أن آباءهم وأمهاتهم سذج ، وأنهم يستطيعون أن يضحكوا منهم .

ونشرق نفس خيرى وتعلو وجهه حمرة يجاهد أن يخفيها فيخفق جهده ، ولا يجد شيئا يقوله آخر الأمر إلا :

— على كل حال يا نينا لا بد أن ننتظر قليلا

— طبعا ... حتى تنال البكالوريا .

ويتلعثم خيرى وهو يقول :

— نعم وتشفى فايزة .

— ماذا ؟.. تشفى فايزة ... وهل مرضها خطير يا ابنى ؟.

— ... أبدا ... ولكنها مريضة على كل حال .

— مرض بسيط وستشفى منه طبعا قبل دخولك الامتحان بوقت كبير .
— إن شاء الله .. أقوم أنا أذاكر قليلا .
— قم يا بني وما يوقفك ... أليس عندك مدرس اليوم ؟.
— نعم ... سيأتي حامد أفندي ، وكان مفروضا أن يأتي محسن ليأخذ الدرس معي ، ولذلك سأؤجل الحصة اليوم .
— وهل سيعطي يسرى درسه ؟.
وضحك خيري وهو يقول :
— إن حامد أفندي مدرس ممتاز وهو يدرس ليسرى من أجل خاطرنا فقط .
— أليس مدرسا في مدرسته ؟.
— مجرد سوء حظ ، إنما الحقيقة أنه فوق مستوى الابتدائي بكثير . وقد طلب إلى أن أرجو عمي عزت ليرقى إلى الثانوى .
— وهل كلمته ؟.
— نعم ، ووعد بأن يتكلم له .
— ربنا يوفق الجميع يا ابني ...
— على الله ... أقوم أنا .

وقام خيري إلى مذاكرته ... ولكن أي مذاكرة ؟ لقد داعب حديث أمه أملا كان يهفو إليه وما كان ليتوقع أن يأتي إليه هكذا من قريب ... لم يكن ينوي المذاكرة في يومه هذا ، أما وقد أصبحت المذاكرة هي طريقه إلى وفية فهو سيذاكر اليوم ، وكل يوم ، وكل ساعة ... ولكن أي مذاكرة يطيقها اليوم ؟.. عيناه في الكتاب وخاطره مشغول يجمح به إلى هواه الذي كان بعيدا فأصبح وهو لا يمنعه عنه إلا هذا الكتاب ، فيعود إليه هيهات ، ثم يتركه . وهكذا كانت مذاكرته كحسو الطائر يشرب مهما يشرب ، فلا يصيب من الماء إلا رذاذا أو

٤

كان حامد أفندي عبد الكريم يقيم مع أمه نعمت مريم وأخته دولت في شقة متواضعة على ربع أبنهم في الدراسة . أما أبوه فقد تركهم لا يرد جوعهم إلا معاش ضئيل ، استطاع حامد أن يزيده بعض الشيء بوظيفة حصل عليها كان يعمل بها بعد الظهر . واستطاع أن يجمع بين الوظيفة والمدرسة حتى يحصل على دبلوم المعلمين ، وأصبح مدرسا للغة الإنجليزية والجغرافيا والتاريخ بمدرسة المنيرة الابتدائية . وقد كان حامد مثابرا في المذاكرة ، حتى لقد استطاع أن يحصل على مكان كريم بين زملائه المتخرجين في دفعته ، ولكنه كان بلا وساطة ، فلم يستطع أن ينال إلا هذا المكان بمدرسة المنيرة . وهكذا ما كاد يعرف أن لأهل يسرى صلة بذوي السلطان حتى بذل غاية جهده أن تتصل أسبابه بيسرى . وقد نجح جهده وأصبح المدرس الخصوصي ليسرى ولجيري أيضا . ولم يصنع وقتا كثيرا ، فإنه ما لبث أن طلب إلى جيري أن يكون شفيعه إلى عزت بك ، ليشفع له في الوزارة . وقد انفسحت الآمال أمام عينيه منذ ذلك اليوم وأصبح يحلم بالترقية إلى المدارس الثانوية . حتى لقد قصد في يومه هذا إلى الوزارة ليعرف الأمكنة الخالية بمدارس القاهرة الثانوية ، ولكن أحلامه قادته إلى سبيل آخر لم يكن يفكر فيه . فقد أبلغه زميل له بالديوان العام أن الوزارة في سبيلها إلى إرسال بعثة إلى إنجلترا في العلوم الاجتماعية ، وأن المرشحين لهذه البعثة من المتقدمين في دفعته . وقد أبلغه زميله أيضا أنه يستطيع أن يسافر في هذه البعثة إذا هو عثر على وساطة كبيرة ذات نفوذ

فى الوزارة . وهكذا عاد حامد إلى بيته والآمال تزحم نفسه أن يفوز بهذه البعثة ... أربع سنوات قابلة للزيادة فى إنجلترا ، ومن هنا يستطيع أن يدور بالعالم جميع ... إنجلترا ... أى أمل ضخم هذا وأى مستقبل عريض ينتظره عند عودته . وماذا يمنعه وأى ضير فى ذلك ؟ . ليجعل هدف البعثة بديلا عن هدفه القديم من ترقيته إلى المدارس الثانوية . قد تعترض أمه ولكن أى أم لا تعترض على غياب ابنها أربع سنوات عنها ؟ . ولو أطاع الناس جميعا أمهاتهم لما نال أحد دكتوراه ولظلوا قانعين جانب أمهاتهم فلا يصيبون من العلم إلا هذه الدرجة التى نالها . قد يضيق الحال بأمه بعض الشىء . ولكنها تعودت أن تكتفى بالمعاش فلتعتمد عليه هذه السنوات ... ولكن دولت كبرت وكثرت طلباتها ، ولكن ما الضير بأمه وأخته أن تحتملا الضيق هذه السنوات القلائل ثم يعوضهما عنه بالعيش الرغيد ؟ . ماذا عليه لو قبل زواج دولت من فهمى المهلوى ... ولكن كيف ؟!

وكان حامد قد بلغ منزله حينئذ وانتهى إلى السلم ، فقد عوده حرصه على الحياة أن ينتبه إلى السلم كلما أوشك أن يصعد ، فجميع الباقى من درجاته متآكل لا يسمح إلا بأطراف القدم أن تستقر عليه ، كما تعود ألا يعتمد على الدرابزين وكم عود الفقر حامد من عادات ، فقد عودته ملابسه القديمة مثلا أن يتأنى فى مشيته وحركاته حتى لا يشتد الاحتكاك بها فيبلى البقية الباقية منها . وقد ظن كثير من الناس أن هذا البطء فى المشى والحركة وليد كبر يحمل نفسه ، ويعلم الله ، ويعلم حامد ، أنه لولا الفقر لتحرك مثل سائر الناس . وهكذا كان حامد دقيقا فى تفكيره حريصا كل الحرص على ماله ونفسه .

بلغ حامد السلم وصعده فى تأن وفى تفكير يبدله كلما ترك درجة إلى أخرى . وحين بلغ شقته فتح الباب فوجد أمه جالسة فى البهو وجلس إلى جانبها

(يتبع فى الخمس)

فهمي الفهلوي وقد انهمك كل منهما في حديث أخذ بمجامع تفكيرهما كل مأخذ . وكانت الجملة التي بلغت أذن حامد عند فتحه الباب :

ـــ أنا أعجبك جدا يا ست أم حامد .

وأنقذ حامد أمه من الإجابة وهو يقول :

ـــ أهلا وسهلا ... كيف حالك يا أسطى فهمي ؟

ـــ معدن يا حامد أفندي ... معدن والحمد لله ... ماشية . . الدكان يكسب خمسين قرشا يوميا على الأقل

ـــ ربنا يزيد ويبارك .

ـــ أنا والله لا أعرف ما الذي لا يعجبك في .

ـــ لماذا يا أخي ـــ لا قدر الله ـــ أنت تعجب السلطان .

ـــ يا أخي العفو ، كل منای أن أعجبك أنت فقط .

ـــ ربنا يهيئ الخير يا أسطى حامد .

ـــ الخير بيدك أنت يا سي حامد أفندي .

ـــ شربت القهوة ؟

ـــ شربناها والحمد لله ... أستأذن أنا

ـــ ولماذا العجلة ؟

ـــ الدكان وحده ... البركة فيك يا ست أم حامد ، فقد يرضى علينا الأستاذ ... سلام عليكم ...

وشيعته همهمة من حامد وأمه أشبه ما تكون برد لتحيته ... وما كاد فهمي يغلق الباب حتى قالت الست مريم :

ـــ والله إنه ابن حلال .

فقال حامد محاولا أن يغير الحديث :

ـــ وهل قلت انه ابن حرام ؟

ـــ فما عيبه ؟

ـــ يا ستى اتركى هذا الموضوع .

ـــ ولماذا أتركه ؟... رجل يا بنى ويسند على أخنك .

ـــ وهل هى بائرة ؟

ـــ ... لا قدر الله ولكنى لا أرى فيه عيبا

ـــ كيف هذا يا أمه ... أين هو منا ؟

ـــ يا بنى العظمة لله ... أليس هو فهمى بن الحاج سيد الفهلوى الذى كان صديق أبيك العمر كله .

ـــ يا أمه الدنيا تتغير ..

ـــ ولكن النفوس يا بنى لا تتغير .

ـــ كل شىء يتغير .

ـــ إلا النفوس الخلوة يا بنى ... لم تكن هكذا أبدا ... يا ابنى فهمى ابن حلال ونعرفه ، نعرفه وهو طفل صغير ، وسيكون لدولت كأخيها ، لماذا ترفض ؟

ـــ أنا لا أزوج أختى من عامل !

ـــ وإذا كانت هى تقبله ؟.

ـــ أنا لا أقبل .

ـــ وماذا ينتظر لها ؟

ـــ واحد متعلم .

ـــ وماذا يفعل بها المتعلم ؟ هل نراها نالت الشهادات .

ـــ إنها تقرأ وتكتب ، وعلى كل حال لا يهم ... فالمتعلم سيطلبها من أهلى

أنا .

— وهل سيتزوجك أنت هذا المتعلم .. المتعلم يريد المتعلمة مثله أو العمية ، ونحن والحمد لله لا علم ولا مال ... اقبلي فهمي يا حامد يا ابني .. من يعرف ؟ لعله خير من غيره

— لا يا ستي .. أنا لا أقبل أن يعيرني رملائي بأني تزوجت أختي من شخص جاهل .. عامل ....

— يا بني مصلحة أختك أهم من أقوال زملائك .

— أنا أدري بمصلحتها .. وعلى كل حال هي ما زالت صغيرة .. صغيرة جدا .

— يا ابني هذا حرام ... في أيامنا كانت البنت لا تصل الحادية عشرة إلا وهي مزوجة .

— اسمعي فهمي خبر مهم

— خير .. أترقيت ؟؟

— لا ... لا ...

— خطبت ؟!

— أليس في ذهنك إلا الزواج ؟

— وماذا أهم من الترقية إلا الزواج ؟

— بعثة .

وصرخت أم حامد على صدرها في ذعر :

— ماذا ؟

— بعثة .

— لمن ؟

— لمَ ؟

— أحسست ؟

— سؤالك عجيب .. لمَ تكون الغثة إن لم تكن لي ؟

— وتتركني أنا وأختك يا حامد ؟

— كم سنة فقط ، وأعود الدكتور حامد عبد الكريم

— دكتور ؟! ألست مدرسا .

— نعم دكتور في التدريس .

— وتتركنا يا حامد ؟

— أليست مصلحتي هي أهم شيء عندك ؟

— طبعا .

— هذه هي مصلحتي ..

وتطرق الأم وبوادر دمعات تبدو في عينيها وتميص ، وتجاهد لسانها كل جهد لتقول

— ما تراه يا ابني

وما تكاد تقول هذا حتى يقول حامد محاولا أن يبعث إلى نفسها بقية من أمل :

— على كل حال المسألة لم تتأكد بعد

— ربما يعمل ما فيه الخير يا ابني

— أين دولت ؟

— ذهبت عند خالتك وصفية لتساعدها في حياكة بعض الملابس .

— خالتي ؟! منذ متى كانت وصفية خالتي ؟

— ماذا جرى يا حامد ؟. كلامي لم يعد يعجبك .. طول عمرك سادي

وصفية يا خالتي .

— كلام فارغ !.. ولماذا تذهب إليها دولت ؟.. ألم تجد إلا دولت لتساعدها ؟

— وماله يا بني ؟.

— النهاية ... العشاء جاهز ؟

— جاهز يا بني ... دقيقة واحدة حتى أعده لك .

ويدخل حامد إلى حجرته وما تلبث دولت أن تجيء ... فتاة تخطو نحو شبابها الأول سمحة الملاح بريئة الوجه ملفوفة القوام ريانة العود غضة ، ساذجة النظرات ساجية ، ذات عينين سوداوين ، فيهما حلاوة الشباب الباكر المتطلع إلى المستقبل في تعجل لا ريث فيه ولا مهل ، رشيقة الحركة عن طبيعة مواتية في غير كلفة ولا افتعال . وكان وجهها في إشراقه أشبه بالمرآة الصافية لا يخفي نأمة عن نفسها إلا بدت آثارها عليه في وضوح أبين من الكلام . ذات شعر كث عربر ناعم ولكنها كانت تفيد كثرته العارمة في ضفيرة كبيرة تلمها في إحكام ، ثم تعطيه بوشاح تربط عقدته خلف ظهرها ، فيزيد ظهرها وضوحا وجمالا . لم يكن في وجه دولت من عيب إلا هذه الأرنبة النافرة في أنفها ، ولعل بعض الناس يرون فيها جمالا ، أو بلورة لجمال دولت . وقد كانت دولت تحب أخاها حبا عارما فيه إجلال يستره أن يبين ، فقد كان يمثل أمامها العلم والمال والسيطرة ، وهي أمور تفقدها جميعا فقدانا تاما . وقد كان كذلك يمثل أمامها حياتها التي تحياها ، فقد كانت بغيره حليفة أن تضيع في الزحام وهي بلا سلاح إلا هذه الصانة الضئيلة التي تصيبها أمها كل شهر كمعاش لأبيها . وهكذا كانت دولت تحد في أخيها كل شيء تفقده كما كانت تحد فيه نفسه كل شيء تملكه .

دلفت دولت إلى البهو فوجدت أمها تضع الأطباق على المائدة فهمست

وكأنها تخفي جرماً .

— هل جاء حامد ؟

فأجابتها أمها في صوت متردد بين الهمس والجهر

— من زمان .

وعادت دولت تسأل هامسة

— أسأل عني ؟

— نعم .

— وماذا قلت له ؟

— الله ، ألا يعني هذا التحقيق ؟ وماذا يمكن أن أقول ... قلت المكان الذي ذهبت إليه .

— هل غضب ؟.

— وما شأنك أنت ما دمت أنا التي أمرتك أن تذهبي ؟ ادخلي هاتي الأكل بلا مسخرة .

وامتثلت دولت لأمر أمها وأقبلت الأسرة تأكل صامتة أفواهها ، صاخبة عقولها ، يصطخب في داخل كل منهم زحام من الآمال والمخاوف والظنون . فأما رب الأسرة فمفكر في هذا الباب الجديد الذي أومأ إليه صديقه بالديوان العام ، يكبر الأمل في نفسه حتى ليكاد يصبح حقيقة مجسمة يعيشها بكاملها فهو يتخيل نفسه في لندن ذاتها ، ويمتد به الخيال ويمتد حتى ليرى نفسه أستاذاً في الجامعة يرتدى الروب ويعاصر طلبتها في سمته المترفع ويده في جيبه . وبلا وعي يضع يده في جيبه متهيئ إلى العصاء فقد ارتدى الجلباب ولم يكن للجلباب جيب ، فيصحو وقد اضمحل الأمل ودوى حتى ليكاد يضرب عنه صفحاً ، مكتفياً بأن يصبح مدرساً في المدارس الثانوية . ولكن لماذا يضيع الفرصة ...؟ ولا يزال بآماله

يترجح بها حائرا راغبا حينا في الأمل الكبير من الدكتوراه راغبا عنه حينا آخر خشية أن يخذله الديوان . وهو مع تفكيره العميق يطحن الأكل طحنا غير شاعر بما يأكل ، وإنما هو يحرك فكيه حركة وانية واثقة ، وعيناه في شرود ، وذهنه يتحول بين لندن والمدارس الثانوية بالقاهرة .

وأما أمه فمفكرة هي أيضا في هذه المشكلة الجديدة التي أضافها ابنها إلى مشكلة زواج دولت ، فهي تفكر فيما سيؤول إليه حالهما إن سافر ابنها ، وكيف تدبر أمرها بالمعاش الضئيل الذي تركه لها زوجها . وحين تضيق بها السبل يذهب بها التفكير إلى ما قد يستدعيه الحال عندئذ من أن تعمل ، ثم ما يلبث أن يردها عن هذا التفكير علمها بكبر سنها وجهلها بالعمل خارج بيتها جهلا تاما وما تلبث أن تدير بذهنها فكرة أخرى ... لماذا لا تعمل دولت ؟ وتنظر إلى دولت فتجدها ذاهلة هي الأخرى تقلب النظر بين أمها وأخيها وقد ران عليهما هذا الصمت المطبق .

كانت دولت حائرة لا تدرى ماذا تقول ، فهي إن نظرت إلى أخيها طالعتها منه هذه النظرة الذاهلة تنبعث من عينيه العميقتين وقد ازدادت ملامح وجهه الدقيقة صرامة وقوة . ثم ما تلبث أن تجد أساريره قد استرخت هونا ولكن إلى حين ، فما هي إلا لحظة عين حتى تعود إليه الصرامة والإصرار . وهي إن نظرت إلى وجه أمها الذي كسته الأيام ذبولا وطيبة ، ولدى عرفت عنه الرضا المذعن والاستسلام الهادئ وحنته وقد غشيته كآبة وتفكير ، فهي ذاهلة عما حولها لا تكاد تحس بأحد ولا شيء . ويصحب عقل دولت حائرا بين الظنون والتخمين ، فهي تفكر في أمر وتكاد تؤكد أنه سبب هذا الصمت الذاهل الحيران . ثم ما تلبث أن تنفيه في سبب آخر ما يلبث أن يتداعى كسابقه ، وهي حائرة لا تدرى ماذا تقول أو تفعل إلا أن تلوك الطعام كما يفعل أخوها وكما تفعل

أمها عبر دارية من أمرهما أمرا . وما يزال ثلاثتهم فى شرودهم هذا الداهل حتى ينتهوا من طعامهم صامتين . ويقوم حامد إلى حجرته شأنه كل يوم ، وإن كان فى يومه هذا قد عزم على أن يستبدل بالنوم كتابة مذكرة بحالته لتقدم إلى مراقبة البعثات .

وتذهب الأم إلى الشباك تطل منه على الحارة ، بينما تقوم دولت بتنظيف المائدة .

تظل الأم راتية إلى الحارة . الدكاكين مقفلة والطريق خال إلا من متأخر يرود منهوكا عجلا يريد أن يسارع بالعودة إلى داره فيعوقه تعب النهار ، فالهمة بادية فى عينيه وإن قصرت قدماه عن همته ... وتطول الجلسة بمريم ، ويبدأ التجار والصناع فى العودة إلى محالهم . وتكثر الأرجل الضاربة فى الحارة ، ويتجمع أصحاب المحال فى أماكنهم التى تعودوا التجمع فيها ، وترتفع أصوات بالتحايا وأخرى بالنكات وأخرى بالضحك وأخرى بالزجر يلقيه كل رئيس عمل إلى عماله مظهرا سيطرته عليهم . وترتفع أعين إلى الشبابيك ، وتتابع أعين أحسام المارات ، وتعلو بين الحين والحين تكبيرة لله أريد بها وجه الشيطان ، أو مصمصمة شفاه أريد بها إعلان غزل . ولا تعدم الحارة صوت حاج فيها يزع الغاوين بصحهم بالاحتشام ، فيلقونه بالصمت حينا أو بالقول الرضى الخجلان حينا آخر .

ويخيل لمريم أن باب بيتها قد فتح وأقفل ، ولكنها لا تعنى بالالتفات إلى الباب فقد كانت بتفكيرها المضطرب فى شغل شاغل . وما يلبث ابنها حامد أن يبدو فى الطريق فى مشيته البطيئة المليئة بالعظمة ، تلك العظمة التى لا تتفق وجسمه القمىء الضئيل أو وجهه الدقيق القسمات يرين عليه الجد والعمل من طول ما تعود الجد والعمل ، فعينان غائرتان عميقتان ، ووجنتان لاصقتان بأسنانه ، وفم

مطبق لا يفرح ، وطربوش لاصق برأسه فى ميل لا يختلف فى يوم عن يوم حتى ليحسب من يراه أنه لا يخلعه فى ليل أو نهار ؛ فإنه من العسير أن يتأتى لأحد بالغة ما بلغت دقته ، أن يطل طربوشه فى وضع واحد لا ينحرف عنه قيد شعره ، إلا إذا كان لا يخلعه .

ويسير حامد فى طريقه بطيئا كما عهدته الحارة ، عظيما كما عهده أهلها . وتراه أمه يرفع يده بالتحية للقوم الجلوس ، وتسمع تحيته التى عهدتها وتعودت أذنها أن تلتقطها من بين الأصوات الصاخبة ، تلك التحية الواهنة النغمة الأنيقة المخارج . ورأت مريم القوم يجيبون تحية ابنها ، وتفيق على أصواتهم من سرحتها فأصواتهم اليوم غيرها بالأمس ... كانوا يحفون بابنها إذا مر وحيا ولكنهم اليوم يردون تحيته وكأنهم يقومون بواجب فرضه عليهم القرآن الكريم من رد التحية بأحسن منها . بل إنهم حتى لا يردونها بأحسن منها ولا بمثلها ... إنما هى همهمة لا تكاد تبارح شفاههم إلا لتسقط فى الطريق قبل أن تبلغ الأذن ، فما تعى الأذن منها إلا طنينا . وتدرك أم حامد أن فهمى قص على إخوانه من أهل الحارة إباء حامد أن يزوجه دولت ، وتدرك الأم أن أهل الحارة أحسوا كبر حامد من رفضه هذا فهم ساخطون يفرجون عن سخطهم فى هذه النغمة المتخاذلة التى أحابوا بها تحية حامد . ويدرك حامد هذه المعانى ولكنه لا يعنى بها إلا هينة ، ثم يصرف بتفكيره وجسمه أيضا إلى هذا الأمل الذى يسعى طريقه إليه .

٥

ظل خيرى فى مذاكرته تلك التى لا تعى ، يقرأ لحظات بدهن شارد ثم يرفع رأسه عن الكتاب ليفرغ للشرود فراغا كاملا . ثم يعود شاردا إلى الكتاب مرة أخرى ، وهكذا حتى وجد حامد أفندى واقفا على رأسه يلقى عليه التحية فى ود ظاهر وإشراق :

— السلام عليكم .

ويفيق خيرى ، قائما إلى أستاذه ويقف ليحييه ، ويسأله حامد :

— وأين محسن ، ألم يأت بعد ؟

— والله أخته الصغيرة مريضة ، وقد اتفقنا أن نؤجل الدرس إلى الغد .

— أهى مريضة إلى هذا الحد ؟

— لا ولكن رأيته مشغول الخاطر . فاعتقدت أنه لن يكون صالحا للدرس اليوم .

— ما هذا الكلام يا أخى ؟. لقد اقترب الامتحان .

— نعم صحيح ... ولكن أخته عزيزة عليه جدا .

— أعتقد أن المذاكرة ستشغله عن التفكير فى مرضها ...

— أترى ذلك ؟.

— طبعا .

— نطلبه فى التليفون ليأتى .

— ولماذا لا نذهب إليه نحن .. فنطمئن على أخته من جهة و ..

وقاطع خيرى أستاذه فى لهفة :

— فكرة .. هيا بنا

وهكذا وجد اقتراح حامد نفسا متوثبة لتنفيذه ، وقد كان خيرى خليقا أن يكون هو المقترح ولكن من أين له الذهن الذى يناور ويخلق المعاذير وهو فارغ لتوه من هذا الحديث الخطير الذى دار بينه وبين أمه ؟ لقد كان مشغولا عن وعيه بها ... كان مشغولا عن خلق المعاذير للذهاب إليها بالتفكير فى زواجه منها

أما حامد فقد كان شغله الشاغل أن يلقى عزت بك وأن يجعل رجاءه لديه سندا بدلا من المدارس الثانوية ، والتقت من حامد وخيرى الرغبتان وإن اختلفت الدوافع وتباينت الأسباب .

* * *

كان محسن جالسا إلى أخته فايزة لا يرفع طرفه عنها وهى منغمسة العينين بلا حديث ولا مطالب إلا أنفاسا تتردد متسارعة . وقد جلس أفراد الأسرة الآخرون حولها شأنهم شأن محسن لا يتكلمون وإنما أصبحوا جميعا عيونا لا تميل عن طفلتهم الخبيئة . وجاءت الخادم تنبئ محسن أن خيرى وحامد ينتظرانه فى الطابق الأسفل ، وحاول أن يستدعى خيرى ليعتذر إليه ولكن أباه قال له :

— ماذا لا تنزل ؟.. انزل أنت فأختك بخير ، وسألحق بك أنا أيضا بعد قليل .

ويصدع محسن بأمر أبيه وينزل إلى أستاذه وقريبه

ويسأل خيرى فى لهفة عن صحة فايزة ، كما يتظاهر حامد بهذه اللهفة نفسها ، ويخفى خيرى على محسن ذلك النقاش الذى دار بينه وبين حامد والذى أدى إلى مجيئهما . وما يكاد خيرى ينتهى من الحديث حتى يدخل عزت بك مبتسم عينيه ، فيقوم حامد فى احتفاء كبير ويتقبل السلام فى احتفاء أكبر ، ثم يسأل فى

شهاق وحيرة يسمو صادر من أعمق أعماق نفسه :

— سلامة الست الصغيرة .

يقول عزت بك فى أدب رقيق :

— إن شاء الله خير ، أنا على موعد غدا يا أستاذ حامد مع وزير المعارف لأرجوه فى مسألتك

ويقول حامد فى أدب شديد منتهزا الفرصة فى مهارة :

— ألف شكر يا سعادة البك ... الحمد لله أن سعادتك لم تذهب بعد

— لماذا ؟ هل تمت المسألة ؟.

— أبدا ! ولكنى عرفت اليوم أن هناك بعثة من دفعتى ستذهب إلى لندن وأنا من أوائل الدفعة ، فإذا أمكن أن تزكينى سعادتك لأرشح فى هذه البعثة تكون سعادتك قد أديت لى جميل العمر .

— بكل سرور يا أخى ... هل كتبت مذكرة بهذا الشأن ؟.

— نعم ... ها هى ذى .

وكأنه كان على موعد مع هذا اللقاء الذى هيأته له ظروف متضافرة من مرض فايزة وعدم خروج عزت ، ثم من رغبة عزت أن يصحبه على السعى الذى رجاه فيه ويروله إليه ... ظروف متآفرة تجمعت خيوطها من كل صحى فى الحياة تمهد له هذا اللقاء وتنيح له أن يقدم المذكرة إلى عزت شخصيا بلا وسيط من خيرى أو محسن .

ويخرج عزت عائدا إلى ابنته . ويعود الأستاذ مشرقا مرحا إلى تلميذيه بهذا الفرح ، فأما محسن فمشغول بأمر أخته . وأما خيرى فمشغول بأخت محسن جميعا . ويدرك حامد ألا فائدة ترجى من الدرس فى يومهم هذا . و يصبح الدرس الذى كان مهما لديه غير ذى قيمة الآن ، فقد أتى له أعجوبة إلى محسن

بالفوائد التى كان يرجوها منه ، وأصبح الامتحان الذى كان قريبا لا يحتمل تأجيل درس أمرا يسهل التغلب عليه . وهكذا اقترح فى حرأة :

ـــ لنؤجل الدرس اليوم ، فإنى أراكما مشغولين بفايزة .

ويقول محسن :

ـــ والله أنت محق يا أستاذ ... أنا لا أستطيع أن أركز ذهنى فى شىء اليوم .

ويرى حيرى أن أمنية حامد قد تحققت دون أن تتحقق أمنيته هو ، فيسارع قائلا :

ـــ أتنتظرنى دقائق يا أستاذ حتى أرى فايزة وأعود ؟

ولكن حامد تواقا إلى أن يخلو بالطريق ليفكر وحده فى أعقاب هذا اللقاء الذى تم بينه وبين عزت فهو يقول :

ـــ ولماذا العجلة يا أخى ؟.. على مهلك أنت وأستأذن أنا .

ويفرح حيرى بهذا الاقتراح ويقول :

ـــ أترى ذلك ؟.

ـــ نعم ... فنحن ذاهبان من طريقين مختلفين ... أستأذن أنا ... السلام عليكم .

ويخرج حامد ، ويصعد حيرى ومحسن إلى الطابق الأعلى فيجدان الأسرة كما هى فى غرفة فايزة . ويلقى حيرى نظرة على المريضة ، ثم يخرج إلى البهو وينعم محسن فيقول له :

ـــ ادخل أنت عند أختك ، وسأنتظر أنا أمى هنا فهى قادمة لترى فايزة ، وسآخذ أنا السيارة إلى البيت .

ويحاول محسن أن يجلس معه فيهدده إن فعل أن يترك البيت . فلا يجد محسن مناصا من طاعته .

* * *

يبقى خيرى منفردا لحظات ، ثم ما تلبث وفية أن تخرج إليه وتعجب لوجوده مما كانت تعلم أنه ما زال بالبيت . تلقى إليه ابتسامة وتذهب إلى الخدم تأمرهم أن يعدوا مشروبا ساخنا لأختها ، ثم تعود إلى خيرى فتجلس إليه .

يرنو خيرى إليها طويلا حائرا لا يدرى كيف يبدأ الحديث ، وتظل هى تنتظر أن يفرج شفتيه عن أى كلام ، حتى إذا يئست قالت :

ـ لماذا لم تدخل ؟.

وأفاق خيرى دهشا يسأل :

ـ أين ؟

ـ عند فايزة .

ـ آه ... كيف هى الآن ؟

ـ الحرارة مرتفعة .

ـ بسيطة إن شاء الله ... وفية .

ـ هه .

وحل الصمت بينهما مرة أخرى ، ثم عاد خيرى يقطعه قائلا فى نفس النعمة الملهوفة التى ناداها بها :

ـ وفية .

وتطلق وفية « هيه » ممدودة كأنما خيل إليها أنه لن يسمعها إذا هى لم تمدها وإن تكن قد صحبتها بابتسامة عذبة ، ويتحفز هو مرة أخرى وهو يقول :

ـ وفية هل ... هل ...

ـ هيه ... هل ماذا ؟

ويومض فى ذهنه باب آخر يستطيع أن يدخل منه إلى الحديث الذى يريد ، فيقول :

ــ هل تعرفين ماذا قالت لى بيبا اليوم ؟

وازدادت الابتسامة إشراقا فى وجه وفية وهى تقول

ــ وكيف أعرف ؟

ــ هل تستطيعين أن تخررى ؟

وابتسمت وفيه وهى تقول :

ــ اذكر رأس الموضوع على الأقل .

ولم يكن خيرى يتوقع هذا السؤال ، فحار ماذا يقول إلا أن يردد فى محاولة سكون :

ــ رأس الموضوع ... رأس الموضوع .

ــ نعم ... فيم كان حديثكما ؟.

ــ احزرى .

ــ اذكر لى الموضوع ، وسأحزر التفاصيل .

وتومض الكلمة المناسبة فى ذهن خيرى فيقول :

ــ نجاحى ... إذا نجحت ...

ــ تشترى لك سيارة .

ويضحك خيرى قائلا .

ــ لا .. لن تشترى لى شيئا .

ــ إذن ...

ــ إذن ستقدم لى أعظم أمل فى حياتى .

ــ ماذا ... ما هو هذا الأمل ؟.

ــ قولى .

ــ يا أختى أنا أسلم معاك ... قل لى .. ماذا قالت لك ؟

(ثم تشرق شمس)

وتعود اللعثمة إلى حيري عاجزا كل العجز أن يكمل ، راغبا في إبانتها رغبة تأخذ عليه مشاعره ، وبين العجز والخجل والرغبة يرتبك حيري وتكاد تدرك وفية . ويجمع حيري بعض شجاعته ليقول ثالثة في حيرة وارتباك :

— وفيه هل ... وفية ...

وقبل أن يكتمل الكلام ليكون شيئا مفيدا يرتفع صوت الخادم معلنا قدوم سميرة هانم ... وتقوم وفية قائلة :

— عمتي .

وتنزل السلم لتستقبلها ، ويظل حيري في مكانه ينتظر أمه حائرا ما يزال ، لا يدري أيفرح أن طالت بهما الجلسة بعض الشيء فاستطاع أن يومض بما في نفسه ومضا لا يكاد يبدو ظلاما ... أم يلوم نفسه هذه الخجل دائما والمترددة العاجزة التي لا تستطيع أن تترك لسانه وشأنه ليقول مرة — ولو واحدة — ما لا بد أن يقال .

وتصعد أمه وهو في حيرته ما يزال ، وقبل أن تقول أمه شيئا يسارع هو قائلا :

— أتسمحين لي بالسيارة أصل بها إلى البيت وأعيدها ؟

وتقول الأم :

— ولماذا لا ننتظر حتى نذهب معا ؟

— أريد أن أذاكر .

وتبتسم الأم .. فقد أصبح للمذاكرة أسباب قوية تصل إلى أعماق الفؤاد وهي تدري . . ومن خلال ابتسامتها تسمح له بالسيارة .

وفي الطريق يعود حيري إلى تفكيره . . ترى أفهمت وفية أي وعد بذلته أمه إن هو نجح ... لقد فهمت ... وإلا فما هذه الغلالة الوردية الرقيقة التي كست

وجهها ... ويريد أن يعود إلى لوم نفسه ثم ما يلبث أن يثوب ... ماذا تراك كنت قائلا ... أحبك ؟! ألا تدرى ؟... إذن كنت أسألها أتحبينى ؟! ألا أدرى ؟.. وهل يرضى لى حيائى أو حياؤها أن أقول أو تقول ... هو الحب ما بيننا يقوله الصياء الذى يحيط بنا إذا التقينا ، واللهفة التى أحسها وتحسها إلى هذا اللقاء ... كيف أقول ؟.. وكيف تقول ؟.. أتراك أقبل أن تقول لى أحبك ؟.. لا ... أم تراها تقبل أن تسمعها منى ؟.. إنما حبنا أعظم من أن تعبر عنه كلمة مهما تكن خالدة عبدة الأصوال فى الزمان الماضى ، باقية على كل زمن مستقبل . ولكن الهوى لعذرى بنا ، ولكن التقدير الذى أكنه لها ، ولكنه التقاليد التى ربينا أنا وهى فى ظلها .. كل هذا يمنعها ويمنعنى أن تقول أو أقول . ألا ما أجمل أن تجمعنا جملة واحدة ... أنا وهى .. اهدئى إذن يا نفسى فهكذا أنت وما كنت لأكلمك أمرا لم تتعوديه ... إنها تعلم ... ولم يبق إلا أن أذاكر ... لا شىء إلا أن أذاكر ... ألا ما أهون العقبة التى تقف فى دونها ... وأفاق خيرى من تأملاته على صوت السائق وهو يقول :

— خيرى بك .. خيرى بك ... سأتأخر عن الست .

— ماذا .. هل وصلنا ؟.

— منذ نصف ساعة . نحن هنا يا خيرى بك من نصف ساعة .

وينبسم خيرى وينزل من السيارة . الابتسامة تعلو شفتيه ، وأفكار كثيرة كلها باسمة تدور فى ذهنه ... وفى قلبه .

٦

لم يكن همام بك ينتظر زائراً في يومه هذا ، ولا كان مرتبطاً بموعد ولا كان راغباً في الذهاب إلى المقهى . وتذكر أنه منذ زمن بعيد لم يخرج مع زوجته إلى مكانهما المفضل بجانب الأهرام ، فقد كانا يريان في الذهاب إلى ذلك المكان نزهتين لا واحدة ... نزهة الطريق ونزهة الجلسة .

وظلت سميرة هانم تعين زوجها في ارتداء ملابسه حتى أتمها ، وخرج إلى غرفة الجلوس ينتظر زوجته أن ترتدي ملابسها هي الأخرى . ولم ينس قبل أن يتركها أن يطلب إليها أن تعجل حتى لا يفاجئهما زائر غير منتظر . لم يكد همام بك يستقر في كرسيه حتى قدمت إليه الخادم تنبئه أن فواز بك في الطابق الأسفل ينتظره .

وقام همام بك من فوره وذهب إلى زوجته ينبئها بقدوم الزائر ، وكأنه خشي أن تكره زوجته قدوم صديقه أو تكره صديقه ، فطمأنها أنه سيصحبها إلى النزهة الموعودة عند خروج فواز . ولم تكن سميرة هانم في حاجة إلى هذا الوعد لتمحي غضبها عن زوجها فإنها لم تعود أن تظهره على غضبها . وإن كانت لا تحب في حياتها شيئاً قدر حبها للخروج مع زوجها ، وما أندر ما كانت تخرج مع زوجها .

فواز بك نافع صديق همام بك منذ كانا طفلين ، ورثا الصداقة عن أبويهما اللذين كانا صديقين أيضاً . وقد جمعت الأعمال المشتركة بين الصديقين فتوطدت بينهما الصلات ، ثم جمعت بينهما الأزمات موقفاً دونها يداً واحدة وقلباً واحداً يخشى كل منهما على صاحبه ما يخشى على نفسه . وقد ضاربا معاً في البورصة وخسرا فيها كل شيء ، ثم جاهدا حتى استردا ما خسرا . وحينئذ توقف

همام عن المصارية تاطرا إلى أولاده مشفقا أن تلتهم المصارية ما لم يصبح حقا له وأصبح حقا لأولاده . أما فواز فقد صمم على المضي في المصارية فصارت حياته سلسلة من الصعود والهبوط ، فهو إما في قمة الجبل أو في حضيض الهاوية . ولم يستطع يوما وهو في قمة الجبل أن ينظر إلى الحضيض في حشية فيكف ، فقد أصبحت المصارية تسري مع دمه لا يستغني عنها ، أو يستغني عن دمه نفسه

ولم يمنع توقف همام عن المصارية ومضي فواز فيها صداقتهما أن تظل كما هي . وكثيرا ما حاول فواز أن يغري صديقه بصفقة يراها رابحة ، ولكن همام كان قد أقلع وما كان ليعيده إلى البورصة إغراء مهما يكن جانحا . بل لم تكن تغريه تلك الذكريات التي كان يستعيدها صديقه أمامه ، أيام كانا والفقر يطل عليهما بوجهه الكالح الشاحب الكئيب ، ثم ينشب فيهما أظفاره الصارية المرنة فما تند عن واحد منهما أنة أو آهة ، وإنما يلفان الفقر والعمى معا بذلك الوجه الحامد تعود الأحداث سعيدها وشقيها ، فسيان عندهما فقر أو غنى . هكذا كانا يبدوان للناس وإن أحرقت الخسارة كبديهما ، وإن زلزلت قلبيهما ، ولكنهما لا يظهران أحدا على ما تنطوي عليه جوانحهما من حريق أو زلزال ... كبرا منهما وتعاليا على الأحداث . لقد كانا نوعا من الرجال ينشب أظفاره في الزمن فلا يطيق الزمان أن يطيح به .

لم يكن إغراء الذكريات ليحدي في جذب همام إلى المصارية ثانية ، وقد كان يجهد في دفع الإغراء الذي يساوره من ذكريات الفقر جهدا أشد عنفا مما يبذله في دفع إغراء فواز إياه بالربح الوفير . فقد تحد الذكريات مسارب إلى النفوس يعجز عن العثور عليها المال بحلاله وسلطانه .

حتى لقد هم همام يوما أن يعود إلى المصارية فما وقف به إلا ابن عمه عزت لدى يرى في البورصة مقبرة لأموال الكرام ولكرامتهم معا . وقد ألح على همام

حتى ثناه عن هذه المحاولة فلم يعد إليها ثانية .

أما فواز فقد كان يرى فى المضاربة عملا طبيعيا له فهو يقامر فيها بأمواله جميعا ، فإن لم تكف عمد إلى صاحبه وطلب إليه أن يصحبه لدى من يقرضه مالا . وما كان همام يتردد لحظة إذا قصده صديقه . ولم يكن فواز فى هذا حائرا على صديقه فقد كان يرى فيما يفعله أمرا طبيعيا لا يفكر فى غيره . ولم يكن همام يضيق بطلب صديقه وإن ساورته الخشية ، إلا أنها خشية لا تزيد فى خاطره على همسة ، ما تلبث أن تزول فى دوامة الصداقة والأخوة والنجدة التى ترحب بها نفسه .

كان فواز جالسا فى مكتب صديقه ينتظر نزوله ، ولم يطل به الانتظار فسرعان ما بدا على باب الحجرة محييا تحية الأخ المحبة العميقة .

كان التناقض بين الصديقين فى الشكل عجيبا . فأما همام فطويل القامة عريض المنكبين يضع طربوشه معتدلا على رأسه ، ويضع على فمه بسامة مطمئنة لا تبارحه يرى فيه الرائى يشرا وثقة وهدوءا ، وقد كان وجهه مستديرا فى غير امتلاء ، ذا شارب متفق الصنعة ، وكانت سوالفه كثة سوداء أيضا كشاربه ، وكانت عيناه عميقتين فيهما ذكاء وفيهما كوجهه اطمئنان وهدوء . أما فواز فقد كان قصير القامة ملىء الجسم والوجه ، حليق اللحية والشارب والرأس أيضا وإن تكن الأيام هى التى تولت عنه نزع شعر رأسه ، ولم يكن ضاحكا كصديقه وإنما هو متجهم الوجه إلا حين يسمع نكتة فإنه يعمد إلى الضحك لها حمد الذكى الممدح ، وقد كان هو نفسه مرح العبارة سريع اللفتة ضاحك الحديث . شىء واحد اتفق فيه الصديقان . هو ذلك الاطمئنان الذى يشيع فى وجه كل منهما

التقى الصديقان ، ولم يمهل فواز صديقه أن يجلس بل سارع قائلا :

— أما صفقة يا همام !

وازدادت الابتسامة اتساعا على وجه همام وهو يقول :

— ألم تيأس مني بعد ؟

— بل ألم تعقل أنت بعد ؟

— وأى جديد بدعوتى إلى العقل الذى تحسبه أنت عقلا ؟

— أرباحى ، مكسبى ، انظر ... أنا أعمى مثلك اليوم عشرات المرات .

— المهم أن تظل كذلك .

— ولماذا لم تسمع كلامى ؟ كسبت من الصفقة الأخيرة ثروة ، ثروة طائلة ، ودعوتك لتربح معى فرفضت .

— الحمد لله ، كل رجائى أن أترك ما جمعت للأولاد .

— أليس لى أولاد أنا الآخر ... مم تخاف ؟

— ألا تعرف ؟

— الفقر ؟

— أهو قليل ؟

— لم تخفه أبدا .

— كنت أخافه دائما كما تخافه أنت دائما . ولكننا كنا نخفى خوفنا .

— أتذكر ؟

— أذكر ... وهل يمكن أن تنسى ؟

— أتذكر يوم خسرنا كل أموالنا وخرج كل ما مدينا بعشرين ألف جنيه ؟

— وهل ينسى ذلك اليوم ؟ جلسنا فى المقهى نلعب النرد ، وجاء صديقنا محمد باشا يوسف يهمس فى أذنى أنه يريدنى لأمر جليل .

— نعم ، كان محتاجا لألف جنيه سلفة .

— يرحمه الله ، كان رجلا .

— لا أنسى ضيقك وألمك . يومذاك لم تترك الكارثة وهرك أن صديقا لك قصدك وليس معك ما تجيب به طلبه ... والله إنك رجل يا همام ... اقترضت المبلغ بفائدة مشطة وذهبت به إلى صديقك .

— وهل كان يمكن إلا هذا ؟

— رجل والله .

— الله يرحم محمد باشا ... رد المبلغ وتوفى ولم يعلم أنى كنت أشد منه إفلاسا .

— ومع ذلك تخاف ؟

— الأولاد يا هواز ... الأولاد .

— اسمع ... لماذا لا نكتب الأرض باسم زوجتك ؟

فقال همام جازعا :

— أتعنى أهرب أموالى ؟

— وما البأس !

— أخون ثقة الناس ، أسرق يا همام ... أترضى لى ذلك . . أتفعلها أنت ؟

— يا أخى والله ...

— ماذا ؟

— لقد اضطررت أن أفعل هذا .

— ماذا ؟!

— أليس لى الحق أن أخاف أنا أيضا ؟

— هذه سرقة يا هواز !

— وماذا أفعل ؟

— توقف عن المصاربة .

— لا أستطيع ، وأنا لم أتدع شيئا جديدا .

— لا يا هواز ... صداقتي لك في كلمة وبقاء أموالك باسم روحتك في كلمة .

— على مهلك يا همام .

— أبدا ... غدا ... غدا يا هواز ... غدا وليس بعد غد .

— أترى هذا ؟

— ولا صداقة بيننا حتى أرى أموالك باسمك ... إلا هذا يا هواز ... إلا هذا .

— أمرك ... لم يكن ضميري مستريحا أنا أيضا .

— بل كان يجب على ضميرك ألا يقبل هذا من أول الأمر .

— طيب يا سيدي ... أمرك .

— بل أمر الأخلاق يا رجل . غدا يا هواز .

— غدا يا همام ... غدا إن شاء الله .

— وسأنسى لك هذه الحكاية وكأنها لم تكن .

— لهذه الدرجة أنت غاضب ؟!

— أنت تعرف إلى أي مدى أنا غاضب .

— والله لقد جئت إليك من أجل هذا ، فقد بقلت أموالي وأنا أحس شيء يجرني فلا أستطيع النوم أو الاستقرار .

— أتنسى ما فعلناه مع حمدي الأسواني لأنه هرب أمواله ؟ألم أشتمه في وجهه وأيدتني أنت ؟

— انظر إليه الآن ، خسر مائة ألف جنيه ولم تمس أمواله بسوء .

— ولكنه بلا كرامة .

— أى كرامة نقصد ؟ الناس جميعا يحترمونه !

— يحترمونه فى وجهه ، ويحتقرونه إذا ابتعد عنهم .

— يا أخى أنت مبالغ ... انظر إلى سيد باشا الحديدى ، أكل أموال أولاد أخيه وحرحوا إلى المقاهى يسألون الصدقة وقد ترك لهم أبوهم ألف فدان ، ومع ذلك يحترم الناس سيد باشا ويحتقرون أولاد أخيه . الناس لهم الغنى لا يهمهم من أين أو كيف أصبح غنيا ، المهم عندهم أنه غنى .

— والله ... والله .

— أتفكر ؟.. إن كنت تحترمه ، فأنت لست صديقى !

— ماذا ؟ أأصبحت صداقتى هينة عليك إلى هذا الحد ؟

— إنما أنت بحرير على ؟ وهذا الذى تقوله كبير وليس هينا كما تظن .

— طيب يا سيدى وهو كذلك ... أعود إليك غدا إن شاء الله ومعى ما يرضيك .

— وأنا منتظر .

٧

طال مرض فايزة والمسكينة لا تملك إلا طاعة الأطباء دون أن تجدى الطاعة أو يجدى الأطباء . وقد كان خيرى خليقا أن يزورها فى كل يوم ليرى وفية ويطمئن على فايزة ، ولكنه حين أعمل عقله وجد أن الامتحان الحاسم أصبح على الأبواب ، ووجد أن الاطمئنان على فايزة يمكن أن يتم عن طريق محسن ، أما مذاكرته هو لدروسه فلا يمكن أن تتم إلا عن طريق المذاكرة نفسها بلا طريق آخر . واستطاع بالأمل الذى وضعته أمه له عند النجاح أن يكبح هوى قلبه وإلحاحه عليه أن يزور وفية ، فظل فى بيته وقد تولاه سعار من المذاكرة . وطلب إلى محسن أن يأتى ليذاكر معه حتى يتهيأ لهما جو بعيد عن مرض فايزة ، وحتى يستطيع محسن أن يبتعد قليلا عن جوه على أخته ويفرغ إلى هذا الامتحان الذى يتقدم منهما حثيثا لا يوقفه مرض فايزة أو خوف محسن .

كان خيرى حائرا ... أيريد الأيام أن تمضى سراعا فتدنو به إلى الأمل المرتقب ؟ أم يريدها أن تمر رهوا بطيئة وهى تحمل فى فواضلها الامتحان وما فى الامتحان من رعب ؟.. حيرة سرعان ما تدور بها المذاكرة فتنوى فى طوايا النفس لا تعود إلا عند فراغ — وما أقل الفراغ — أو قبيل نوم — وأين منه النوم ؟

أما محسن فقد كان يجد فى الذهاب إلى خيرى مسلاة عن هذا المرض الذى انصب على أخته فكأنما انصب على البيت جميعا ، وقد كان حليقا أن يجد عند أصدقائه فى المقهى هذه المسلاة نفسها ، ولكنه لم يجد فى نفسه خفة إلى مرح أصدقائه هؤلاء ، كما أن خيرى لم يتح له الذهاب إليهم فهو ما يزال به يذكره بقرب

الامتحان وبضرورة المذاكرة حتى لوى به عن طريق المقهى إلى البيت .

كان خيرى ومحسن منهمكين فى المذاكرة حين دلفت نادية إلى الحجرة فلم يحس بها واحد منهما . ووقفت نادية قليلا ثم صافت بهذا الصمت الذى ران على الصديقين . واشتد صيفها أن لم يرحب بمقدمها أحد ، وهى لم تدخل حجرة إلا واستفزها الترحيب المرح الفرحان . لم تطق السكوت فقالت فى غضب :

— يا سلام ... طيب أنا أيضا أذاكر ولن أكلم أحدا .

واختطفت كتابا وأمسكته وأولت الشابين ظهرها فى سرعة خفيفة طفلة ، وانتبه الاثنان إلى نادية جازعين لصوتها فى الوهلة الأولى ، ثم لم يلبثا أن استغرقا فى قهقهة طويلة . وقام إليها خيرى يعتذر وسعى بها إلى محسن ، وتركا المذاكرة حينا وراحا يحادثان نادية ويحاولان استرضاءها . ولم يلبث خيرى أن رأى الدموع تطفر من عينى محسن فتذكر مثل هذه الجلسة حول فايزة ، وما لبثت الدموع أن طفرت من عينيه هو أيضا فسارع إلى عينيه يزجرهما بيده ، ثم تمالك من أمر نفسه ما كاد يفلت وصاح بمحسن :

— مالك حرى يا أخى لا قدر الله ؟.. إنه مجرد مرض وبرول :

— أبرول حقا يا خيرى !

— إن شاء الله يا أخى ... لماذا هذا التشاؤم ؟

— فقط لو نعلم ما هو المرض !

— حرارة ... مجرد حرارة ...

— مسكينة يا خيرى ... صغيرة ولا تحتمل المرض !

— على العكس فإن الصغار يتحملون المرض أكثر مما نحتمله نحن .

وأحدث نادية بهذه الدموع التى تبادلها الصديقان وعجز عقلها عن فهم الحديث . ولكنها رأت أنه لا بد لها أن تشارك فى الأمر ، ولم تكن تستطيع

المشاركة إلا فى الحديث عن البكاء فهو الشيء الوحيد الذى تفهمه فى كل ما حدث .

— أنت زعلت يا آبى محسن منى ، طيب لا تزعل ... لن أداكسر وسأكلمك ...

وضمها محسن يخفى عنها دموعه ... ولكن حورى أحذها من بين أحضانه وحملها ليصعد بها إلى غرفتها ، وأراد محسن أن يبقيها فقال حورى :

— لا ... ليس اليوم ... أعصابك أصبحت تالفة جدا ...

وخرج حورى فلم يغب غير دقائق ، ثم عاد إلى محسن يقول له :

— قم بنا .

— إلى أين ؟

— إلى منزلكم .

— لماذا ؟

— عجيبة !! أأقول لك إنى أريد الذهاب إلى منزلكم فتقول لماذا ... هل لابد من مناسبة ؟

— لا أبدا ... أهلا وسهلا ، ولكن المسألة لا تحتاج .

— بالعكس تحتاج جدا ... أولا نتمشى قليلا ونريح أنفسنا ... وثانيا أرى فايزة فإنى لم أرها من زمان ... هيا .

وقاما .

* * *

كان عرت بك الأزميرلى رجلا من رجال السياسة ، وقد كان يلجأ إلى بيته من صخب الحياة التى يحياها وكان يجد الهناءة كلها فى بيته ، فى الخلوس إلى ولاده كلما أتاحت له أعماله هذه الجلسة .

وكانت فايزة أقرب أبنائه إليه فهو شديد الحب لها ، فقد رزقها وهو كبير السن . وكانت فى هذه السن الحمية التى لا يستطيع أحد إلا أن يدلل أصحابها . وقد هاله مرضها ، وحين طال بها أصبح يهرب من البيت ويلقى بنفسه فى غمار السياسة ، فإذا وجد فراغا كان يقصد إلى ابن عمه همام محاولا ما وسعه الجهد ألا يعود إلى البيت .

وارتاحت إجلال هانم لغياب زوجها وابنها محسن ، فقد أتاح لها هذا أن تفرغ لتمريض ابنتها لا يشغلها عنها شاغل من زوج أو ولد . وأصبحت لا يلازمها إلا ابنتها الكبرى وهية ، فقد كانت هذه عونا لها على هذه الشدة التى طال بها الأمد . وكانت وهية تحب أن تقوم بهذا العون فهى تحب أمها وتحب أختها وتشفق على كلتيهما من الجهد والمرض . وقد أتاح شباب وهية لها أن تبذل الجهد الذى لا تطيقه أمها ، فهى تتولى إعطاء الدواء لفايزة ، وهى تتولى شئون البيت ، وهى تنتظر أباها وأخاها حتى يعودا ، وهى تقوم بهذا جميعه راضية لا تفكر فى شىء إلا شفاء أختها ، وإلا هذا الشىء الذى لا تملك أن تنساه وإن زجرت نفسها وعنفتها أن تذكره فى هذه الأيام التى تمر بهم ... هواها ... إنه لا يستحى أن يذكرها بنفسه فى هذه الأوقات الحالكة من حياتها . بل لقد أصبحت لا تذكره لأنها لا تنساه أبدا . لقد أصبح شعورا ملازما لكل شعور آخر ينتابها ، فهو معها يتردد مع أنفاسها ، ومع مسرى كل تفكير يمر بذهنها ، ومع كل خلجة يختلج بها قلبها .

وأقبل محسن وحيرى إلى البيت ودخلا حجرة فايزة ، ولم تكن بها وهية .

لم يكن حيرى قد رأى فايزة منذ فترة طويلة فجرع لهذا الهزال الذى نزل بها ، ولم يشأ أن يظهر أهلها على ما لاحظه ، وحسنى أن يجوبه تعبير وجهه فتضاحك وحاول أن يداعب فايزة فمثلت دعابته واستدار يخرج من الغرفة مسرعا . وجلس فى ذلك الركن من البهو الذى حاول فيه أن يبوح بحبه فلم يستطع . ولم

يطل به الجلوس فقد جاء محسن ليجلس إليه ، ولكن ما لبثت إجلال هانم أن دعت محسن ليعود إلى أخته لأنها تسأل عنه . وقام محسن وهو يقول فى تأثر شديد :

ـــ إنها لا ترانى كثيرا فى هذه الأيام ، ولهذا تتعلق بى كلما دخلت إلى غرفتها .

فقال خيرى :

ـــ لا شأن لك بى ، سأنتظرك هنا حتى تعود .

وذهب محسن إلى أخته ، وراح خيرى يدور بعينه على أبواب الحجرات الأخرى لعله يرى بصيصا ينبئه أن وفية هناك ، ولكنه لم يجد . كاد يسأل عنها الخدم ولكن الخجل منعه أن يفعل . ومنعه أيضا ظهورها من باب الخدم وبيدها إناء ملىء بعصير الليمون .

وقفت وفية حين رأته وقد شاعت فى وجهها فرحة كبيرة لم تبن عنها إلا فى :

ـــ أهلا .

ولكنها كانت كافية ليجد فيها خيرى كل ما يتمنى محب أن يجده عند هواه .

وقام خيرى إليها يحمل عنها الإناء وهو يقول :

ـــ أهلا بك .

واقترب الحبيبان ، وأنعم خيرى النظر وتقلبت على عينيه طيوف من الفرح والعجب والإشفاق كانت وفية فى شاغل عنها جميعا بفرح لقياه . وحين أفاقا إلى وقفتهما وتنبهت وفية أنه يريد أن يأخذ عنها الإناء قالت :

ـــ لا ، سأدخله إليها وأعود ... فإن أمى لا تأمن أن يصنع أحد العصير إلا أنا ...

وتنحى خيرى عن مكانه ذاهلا ما يزال ...

كانت وفية طويلة القامة هيفاء لا هي بالنحيفة ولا هي بالمليئة ، وإنما كما يشتهي الجمال أن تكون . وكان شعرها أسود فاحما كثا غزيرا ينسكب انسكابا وينهدل على جبينها صقيلا . وكان خيري يحب منها يدها وهي ترفع خصلات شعرها الجامحة لتعيدها إلى رأسها . وكان وجهها أبيض تشوبه سمرة خمرية ، تشع فيه عيناها السوداوان في حور شديد لا يشوب بياضهما إلا زاوية حمراء صغيرة في عينها اليسرى يراها بعضهم عيبا ويراها خيري جمالا أي جمال . وكانت أهدابها العليا ترتفع في إباء حتى لتكاد تلمع أجفانها ، بينا تنسدل أهدابها السفلى طويلة مثل العليا . كانت أهدابها كالزهرة المصغة تفتحت منذ قريب . وكان أنفها دقيقا ينسق وشفتيها الرقيقتين وذقنها الصغير . كان خيري يحب في وفية ... وفية ... بكل ما فيها . وقد باعته العجب حين رأى نفس شحوب يكاد يحيل سمرتها إلى بياض ، ولكنه أزمع في نفسه إلا يفاتحها بما لاحظه .

عادت وفية إلى حيثها ، وجلست إليه في المكان نفسه الذي أحسست فيه أنه يريد أن يقول فلم يقل ... جلست وهي تقول :

ـــ خير ... ماذا أتى بكما ؟

ـــ أعجيبة أن نأتي !

ـــ نعم الامتحان قريب ... وهذه بكالوريا يا خيري .

ـــ صحيح ... ولكن ...

وأراد خيري أن يسكت ولكنه لم يجد بدا من إكمال الحديث فأكمله ، وذكر لها ما كان من دموع محسن ، وما لبث أن تلألأت على أهداب وفية دمعات تأبى أن تسيل أو تغيض . وحاول أن يعتذر ولكنه رأى دموعه هو أيضا تنحدر على وجنتيه . ولم يكفكف دموعها أو دموعه فقد أحس بعد أن رأى فايزة أنه لا بد من البكاء .

ومن بين الدموع روت وفية لخيرى كيف تزداد حالة أختها سوءا فى كل يوم ، وحين سألها حيرى :

ـــ والأطباء ؟

قالت فى أسى :

ـــ يخيل لى أنهم يعرفون المرض ولكنهم يخفونه عنا .

ـــ يخفونه ؟

ـــ يخيل لى هذا .

ـــ لعلهم لم يئسوا منه بعد !

ـــ لا أدرى !

ـــ أتنتظرون أحدا منهم الآن ؟

ـــ نعم ، سيأتى الدكتور عبد الحميد فاضل .

ـــ سأنتظر حتى ألقاه .

٨

كانت دولت تجلس إلى أمها فى سكون وقد أمسكت بيدها قميصا لأخيها ترتق فتوقه ، والأم تنظر إليها بين الحين والحين تريد أن تحادثها فى أمر يأخذ عليها تفكيرها ، ولكنها ما تلبث أن تعيد الكلام إلى داخلها فى تردد حائر .

وكانت دولت تحس عبئى أمها كلما صوبتا إليها وتحس رعبها العارمة فى الحديث ، بل كانت تحس حيرتها وجهادها لنفسها أن تكتم هذا الحديث . الأمر الذى كانت تخشاه ولا تعرفه هو موضوع هذا الحديث وإن كانت تظن ظنا يكاد

يبلغ اليقين أنه حديث يدور حول سفر أخيها حامد الذى أصبح وشيكا . ولكن أى شأن للدولت بهذا السفر ؟ لقد عاشت عمرها فى البيت آلة ... آلة لغسل الملابس ولغسل الأرض وللمعاونة فى المطبخ ولشراء الحاجات ولكل ما يتصل بأعمال البيت ، ولكنها آلة بلا رأى ولا رغبة تبديها ولا معارضة ، آلة ... لها كل ما للآلة من حقوق وعليها كل ما على الآلة من واجبات . فعلى الآلة أن تقوم بعملها وعلى صاحبها أن يحميها من الطبيعة فيكسوها إذا كان الكساء يحفظ عليها انتظام سيرها ، ويؤويها إلى سقف إذا كان لا بد لها من سقف ، وعليه أن يلقى فيها الوقود حتى تعمل ... وكانت دولت تثور فى بعض الأحيان كلما همت نفسها إلى شىء وعجزت عن إبداء رغبتها ، ولكنها ثورة تندوب من فورها فى عمار أعمالها وفى غمار الأحلام التى ترسمها لنفسها عن مستقبل لها فى ظل رجل ... أى رجل فقد كان حديث الرجال يطربها فكانت تتلقفه من أفواه النسوان اللواتى يكبرنها فى السن ، واللواتى لا حديث لهن يدور إلا عن الرجال ... وكانت دولت تقول لنفسها إذا مال حديث أولئك النسوة إلى الأطفال ... ومن أين يأتى الأطفال ؟! وهكذا كانت تلتذ هذا الحديث عن الرجال ، فإن انحرف حورته فى ذهنها إلى الوجهة التى ترضيها . فإن حلت إلى نفسها خلت وفى نفسها ذخيرة وافرة من الأحلام والآمال ... فى ظل رجل ... أى رجل .

وهكذا وجدت دولت نفسها حائرة فى أمر هذا الحديث الذى تريد أمها أن تلقيه ثم تكتمه فهى تعلم أن لا شأن لها بأى شأن مهما يكن متصلا بحياتها فهى لم تعود أن تتدبر حياتها ... آلة ... ومهما تكن هذه الآلة من أحلام وأفكار وآمال وهواجس إلا أنها تعلم أنها أمام أمها وأخيها بلا أحلام ولا أفكار ولا آمال ولا هواجس وقد تبدى رأيا أو تطلب شيئا ، ولكن هذا لا يعنى أن يأخذ أحد منهما برأيها ؛ بل إنها تعلم أنهما فى الغالب سيهملان هذا الرأى ، ولعلهما يهملانه عن

عمد لأنه صدر عنها . وتعلم أيضا أن الطلب الذى قد جهو إليه قلما يتحقق ... بل إنه لن يتحقق إلا إذا أيدتها أمها فيه .

فماذا إذن يدور فى ذهن أمها ولا تستطيع أن تصارحها به ؟! لم تطق دولت السكوت طويلا فألقت سؤالا تعرف جوابه ولكن كان لا بد منه .

— ألم يقل أخى متى يسافر ؟

— لم يحدد الميعاد بعد ، ولكن يبدأ لى أنه سيسافر قريبا ... قولى لى يا دولت .

— نعم يا أم .

ثم سكتت الأم ولم تقل شيئا ، ولكن دولت لم تسكت بل عادت تقول :

— نعم ؟

— يا بنتى ...

— ماذا يا أم ؟

وأجمعت الأم أمرها أخيرا وقالت :

— ماذا تفعل حين يسافر أخوك ؟

— ماذا تفعل يا أم ؟

— أتبقى هكذا بلا رجل ... وأنت يا بنتى كبرت وأخاف عليك أولاد الحرام ؟

— مم تخافين ؟

— هيه ... ماذا أقول ؟ النهاية ... ألا تعرفين مم أخاف ؟

— يا أم لا تخافى . بنتك ناصحة ولا تعوتها العايقة .

وخالطت صوت الأم مرة من السخرية وهى تقول :

— صحيح ... لم أكن أعرف .

— صحيح والنبي يا أم ... لا تخاف أبدا .

وقالت الأم في صوت يائس ساخر :

— طيب .

ثم سكتت قليلا ولكنها لم تطق . فقصدت إلى ما تريد دون لف أو دوران .

— وماله مهمي الهلولي !.. أليس رجلا يستر عليك ؟ واسمه على كل حال رجل في البيت بدل أن نبقى امرأتين وحيدتين !!

— وما شأني أنا يا أم ؟

وفي سخرية مريرة قالت الأم :

— أخوك يريد لك رجلا متعلما .

— وماله يا أم ؟

— وماذا يفعل بك المتعلم ؟

— وما عيبي ؟

— طيب يا أختي ... يا فرحتي بك وبأخيك وبالمتعلمين الذين يرتمون تحت أقدامك وأقدام بسلامته حامد ...

— الله يا أم ... وأنا ما ذنبي حتى تسخري مني ... لم تقدري على الحمار فنرت على البردعة ... الأمر أمر أخي وهل خرجت عن طوعه ؟.

— يا ستي نريد الستر ... الستر يا بنتي ... ربنا يستر .

— أنا طوع أمركما ... افعلا ما تريانه ... ولو أني أريد أن أعمل في غياب أخي .

— وماذا تعملين ؟ هل معك الشهادة ؟

— أي شيء . أليس لي بدان وأعرف القراءة والكتابة ... سأعمل حتى أساعدك في المصاريف .

— وهذه أيضا لا أدرى كيف أدبرها ... ليس لنا إلا المعاش ... هيه ... النهاية .

— ألا يسوى أن يرسل لك شيئا من أوروبا ؟.

— وكيف ؟ إن ما سيأله يكفيه بالكاد ... أمر الله ... هو العالم .

وقبل أن تجيب دولت يدخل حامد ، وقد أعد نفسه للتحهم الذى تلقاه به أمه فى هذه الأيام حتى عوده . ويجلس حامد بعد أن يطلب إلى أخته أن تعد له فنجان قهوة . وتقوم أخته وهى تسمع أمها تقول له :

— بسلامتها تريد أن تعمل .

وتسمع أخاها يقول :

— وماذا تعمل ؟

وتقول دولت وهى تعادر البهو :

— أى عمل ؟

وتمض الأم شمتيها وهى تقول :

— حكم !

— لو كان معها شهادة !

ويسكت الاثنان فقد استمدا فى هذه الأيام كل نقاش يمكن أن يدور حول سفره ، أو رواج أخته من فهمى ، أو إرسال نقود من الخارج ... لم يبق لهما موضوع يمكن أن يتناقشا فيه ... لم يعد أمامهما إلا الصمت .

وعادت دولت بالقهوة وهى تقول :

— وأى عيب فى أن أعمل يا أخى ؟

— لا عيب ، ولكن ماذا تعملين وأنت بلا شهادة ؟

— ممرضة ... مربية ... أى عمل ... وعلى كل حال أنا أقرأ وأكتب .

— نعم أعرف ...

— اسمع — والنبى — يا حامد ، لماذا لا تكلم تلميذك حيرى ... لعله يجد لى عملا ؟

— سأفكر فى الموضوع يا دولت ... أشوف .

٩

كان همام بك فى حجرة مكتبه ينتظر ابن عمه عرت الذى أخبره بالتليفون أنه قادم إليه لأمر هام ، وقد انتهز همام هذه الفرصة ليراجع حساب البنك الذى جاءه فى هذا الصباح ، وليراجع أيضا حسابات مزارعه . وما كاد يجلس إلى مكتبه حتى فتح باب الحجرة وبدا منه صديقه فواز حامد الوجه كعادته ، وألقى تحيته فى هدوء وجلس إلى الكرسى الذى تعود الجلوس إليه ، وقام همام من مكانه وجلس إلى المقابل له وهو يقول فى نبرة عادية يحاول أن يفتح أبواب الحديث :

— هيه كيف الحال ؟

وقال فواز فى نبرة طبيعية :

— الحمد لله .

— ماذا فعلت فى الصفقة الأخيرة ؟

— خسرت .

— كم ؟

— كل شىء

— ماذا ؟!

— كل شيء ... لم يبق لى شيء على الإطلاق .
— كل شيء ؟
وأخرج فواز تصعيدة من أعماق قلبه وهو يقول :
— كل شيء .
— الأرض والعقارات والأسهم و...
— والمال السائل وكل شيء ...
— وماذا تنوى أن تفعل ؟
— سأضارب .
— يا فواز ...
— ماذا ؟... أتريد أن تنصحنى الآن بعدم المضاربة ... هل أمامى شيء آخر ؟..
— والله لا أدرى ... أنا لا أعرف حتى ماذا أقول ... أصبحنا يا فواز فى سن لا تحتمل هذه الهزات ... السنوات تمر ... والعمر له حكم .
— أعرف ولكن ماذا أفعل ؟
— هل أستطيع أن أفعل شيئا ؟
— طبعا ..
— تحت أمرك .
— ضمانة .
— متى ؟
— غدا .
— أين ؟
— عند الخواجة يتشتو فى الساعة العاشرة .

— سأكون هناك .

— أتشترك معى فى هذه العملية ؟

— ... شكرا .

— هيه ... أمرك ... أتعرف من رأيت اليوم ؟..

ثم جرى الحديث بين الصديقين وكأنما لم يحدث شىء ... كأنما هو فواز العمى الذى لم يخسر أمواله جميعا ولم يصبح فقيرا يكاد لا يملك الملابس التى يرتديها ... هو هو لم يتغير فيه شىء ... يضحك إذا مر الكلام بما يضحك ، ويهمل النكتة إن عرض لها الحديث ، حتى إذا أقبل عزت ورآهما فى حديثهما هذا ظن أن الأنباء التى بلغته عن إفلاس فواز غير صحيحة ، وإن كان عرفها من مصادرها التى لا تخطئ ... جلس عزت إلى الصديقين وشاركهما فى الحديث ، ودار بهم الكلام فى كل متجه . وحاذر عزت أن يذكر البورصة وما كان فيها ، وكان الأخران بعيدين عن حديثها أيضا فقد استنفدا عنها ما تستحق من حديث . وطالت الجلسة وهم فواز بالانصراف ، ولكن همام ألح عليه أن يتغدى مصمما فى دخيلة نفسه أن يجعل عزت ينصرف قبل فواز . فقد أدرك الأمر الهام الذى كان يريده فيه ... إنه أراد أن يخبره بإفلاس فواز وأراد أن يحذره من ضمانته ، وكان همام يعلم ألا جدوى من هذا التحذير فأراد أن يتجنب المناقشة .

وأدرك عزت السياسى المداور ما بيته همام فى نفسه فعزم على البقاء حتى يخرج فواز ، وأدرك همام ألا محيد له عن هذه المناقشة بينه وبين عزت .

خلت الحجرة بهما فبادر همام يسأل وعلى فمه ابتسامة :

— يا أخى أليس لك بيت ؟

— بلى لى بيت وسيظل لى بيت .

واتسعت الابتسامة على وجهه وهو يقول :

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أنه سيظل فى بيت ما دمت لا أضمن الناس ، وخاصة الذين يضاربون بأموالهم جميعا ، ولا يكتفون بهذا بل يطلبون ضمانة أصدقائهم أيضا .

— ماذا تنتظر منى أن أفعل ؟

— يا أخى ربما خلق كلمة فى اللغة العربية ... اسمها لا ... وأحرى اسمها متأسف ... ولا أستطيع .. وعندى أولاد .

— عندى أيضا أصدقاء ... وعلى واجبات لهم .

— واجباتك نحو أولادك أولا .

— أتعرف يا عزت أنه كتب كل أمواله باسم زوجته .

— عظيم ... تضمنه زوجته .

— جعلته أنا يعيدها باسم نفسه ... ألا تراني مسئولا عن إفلاسه الآن ... إلى جانب مسئوليتى كصديق العمر .

وأرتج على عزت هونا ثم قال :

— أتعرف المبلغ الذى ستضمنه فيه ؟

— لا ... لم أسأله .

— أراهن أنه سلغ يزيد على أملاكك .

— لا أستطيع الرفض .

— يا همام ... أرجوك ...

— ماذا فعلت مع طيب فايزة ؟

وغامت عينا عزت بالدموع فجأة ، ولكنها ما لبثت أن غاضت وقد تماسك قائلا :

— لا فائدة .

— مطلقا ؟

— لن تسمع شيئا بقية عمرها ؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

— المصيبة أنها صغيرة ولا أدرى كيف يكون مصيرها ... كيف تتعلم .. كيف ..

ثم تماسك وصمت .

— ألا تذهب بها إلى أوربا ؟

— سأذهب ولكن ليس للعلاج .

— لماذا ؟

— أنت تعرف كما أعرف أنا أنه لا فائدة ... حمى شوكية فضت على السمع ... لا علاج لها فى أى مكان .

— فلماذا تذهب ؟

— أولا لا أريد أن أفجع أمها فى أمل قد يلازمها بضعة أشهر أخرى ، وثانيا أريد أن أبحث عن مدرسة لتعليم ...

وعادت الدموع إلى عينيه مرة أخرى ، وأطرق هنيهة . ولكن عزت أكمل جملته فى صوت يختلط بالبكاء :

— الصم .

١٠

رحمتك اللهم ورضاك ... كان أهون على لو أرحتها من العالم وأخذتها إلى جوارك ، ولكن الأمر أمرك لا حيلة لنا فيه . ما ذنبها يا رب ؟ ماذا جنت ؟ ولكن سبحانك ... نصيبنا لتحتر الصبر فينا . وهل تملك إلا الصبر ؟.. بماذا تلاقى الدنيا هذه الفتاة المسكينة ؟... منى ... حبيبتى ... لقد سدت مسامعك الصوت إلى عقلها ... وقف وعيها عند هذه السنوات القلائل التى بلغتها من العمر ... ما مصيرها ؟... أتظل ترنو إلينا بهذه العيون الحائرة القلقة المذعورة ؟... إنها لا تدرى ما بها وهى تحسه أوق ما يكون الحس ... لم تعد تسمع شيئا ... لا تستطيع الضحك ... ولا تعرف إلا البكاء ... كلما رأتنا تتكلم ... فهى لا تسمع كلامنا وإنما تراه ... تبكى ... لقد فقدت شيئا ... شيئا كبيرا ... ثم هى لا تدرى ماذا فقدت فتبكى ... تسأل ... تسألى ... وتسأل أخاها ... وتسأل أختها ... لماذا لا أسمع ؟... وكيف نجيب وكيف تسمعنا إن نحن أجبنا ؟.. يا حبيبتى يا منى . . أهكذا انقطع ما بينها وبين الحياة ، لا تتصل بالدنيا إلا بعيون جاهلة . طفلة صغيرة حائرة ... ترى أتجدى هذه المعلومات القلائل التى تعلمتها ؟.. وإلا فكيف تتعلم ؟.. أو كيف تعيش ؟ يا رب هذا عو الفضاء فأين اللطف فيه ؟ وتلك هى الكارثة فبدك الكريمة يا رب ترفع بعضها أو تخفف وقعها ... يا كريم يا رب .

صافت بالسرير وصفت بالأمل ، فتركت هى السرير . أترانى أستطيع أن أترك الأمل ؟ وماذا فى غيره ... يأس ... يأس قاتل أسود مرير ... كحياتها ...

بل كحياتى ... أنقاك الله يا عزت ... تريد أن تخفف عنى المصيبة ولعلها عليك أشد . وتريد أن تفسح لى أملا من السفر إلى الخارج ... وهل أجهل المرض ... أليس فى أوربا صم ؟.. فما لهم لم يعالجوا هناك إذا كان هناك من يعالج ؟... ولكنها صغيرة ... فالفاجعة فواجع ، والمصيبة مصائب ... لن تكون بنتى ... فانرة صماء فحسب ، بل قد تغدو شيه بلهاء . أو كيف تفهم ما يدفع عنها البله وهى لا صلة لها بدنيا الناس إلا عقل استقر عند السادسة لا ينمو . وكيف له أن ينمو ؟ وعلم توقف لا يزيد . وكيف يزيد ؟.. أأرحو لها الموت ؟.. يا لى من أم قاسية ... أأتمنى لها الموت لترتاح هى أم لأرتاح أنا ؟.. مادا فعلت يا رب حتى يصبح موت ابنتى أمنية عندى ؟ هل أستحق هذا ؟... لعلك فى مطوى علمك قد ادخرت لى عندك ثواب هذا العذاب . ولكن سبحانك أى ثواب يعدل ما ألاقيه ... ولكن سبحانك فإنك تعلم ما لا نعلم وحسبنا أنت . أنت ... أنت حسبنا ونعم الوكيل .

وقامت إحلال هائم من جلستها الصامتة الصاخبة تملأ الدموع وجهها ، دموع حارقة لا تطفئ نارا ولا تريح فؤادا ... قامت فاستقبلت القبلة وأقامت الصلاة تتمتم ألفاظها غائبة عن معانيها وتؤدى مناسكها ذاهلة ، وإنما هى قيام وركوع وسجود تقوم بها جميعا كشىء يسير فى طريق فرض عليه لا يدرى مبتدأه أو منتهاه .

وحين بلغت إحلال قراءة التحيات الأخيرة دلف إلى الغرفة زوجها عزت واتخذ كرسيا وظل يرنو إليها يجاهد نفسه ما وسعه الجهد ألا تنذر من عينيه دمعة ، والله وحده يعلم أى كفاح مرير بذله حتى يذود الدموع عن عينيه ، تاركا قلبه يبكى فى نشيج مرير مكتوم . كان لا بد له أن يصبر حتى يصبر البيت جميعه ، وكان لا بد له أن يتماسك حتى لا يفقد أسرته كلها .. فصبر وتماسك ...

إذا أصاب الموت بيتا فأيام أو شهور ثم يعود البيت إلى سابق حياته ، فالموت يطوف طواف الزائر العجلان يختار من يختاره ثم يمضى به لا يترك إلا الذكرى . وللأيام على الذكرى سطوة ... فهى تنسيها ، وإن عادت بها ملحظات أو ساعات ثم يعود القوم المصابون إلى مألوف حياتهم . أما هذه الكارثة التى أصابت بيت عزت فهى قائمة تسعى فى البيت تطالع القلوب التى تحف بها بالهول الذى أصابهم فيها ... وإنهم ليدركون ما أصابهم ويقدرون عواقبه ، وينظرون إلى المستقبل الذى ينتظرها فلا يرون إلا سوادا حالكا . أما هى فقطعة من إحساس تسعى فى البيت ... إحساس يعلم أنه مصاب بفادح من الأمر ، ثم يقف بها العلم عند الشعور بلا إدراك ولا تفكير فى العواقب ولا نظر إلى المستقبل .

فرغت إجلال من الصلاة ولم تفرغ دموعها فإنها لا تزال تنهمر على وجنتيها سكبا بلا توقف ، وأنعم عزت فيها النظر بعض الحين حتى ملك أمر لسانه وقال :

ـــ وبعد لك يا إجلال ؟

ـــ لا عليك يا عزت ... تحملنى ... المصيبة كبيرة .

ـــ لعل الله يكرمنا فنجد علاجا فى أوروبا .

ـــ أتراها صغيرة يا عزت ؟.. لا فائدة ... وأنا أعلم ألا فائدة .

وارتفع على عزت هنيهة ثم قال :

ـــ كيف ... كيف ... من قال هذا ؟

ـــ أنا أقوله ... اسمع ... المهم أن نبحث الآن عن طريقة نتعلم بها القراءة والكتابة .

ـــ لعلنا فى أوروبا نجد الطريقة .

ـــ ماذا تتعلم هناك ؟.. لغة أخرى غير لغتنا ... لا ... دع عنك سفر أوروبا

هذا ... لا فائدة منه على الإطلاق .

— يا سنى من يعرف ؟

— عزت ... أرجوك ... أنا لست صغيرة .

— طيب ! لعلنا نجد لها مدرسة هناك ؟

— ولا هذا ... وهل يمكن أن أتركها فى هذه المدرسة ؟ ثم مادا نتعلم فيها ؟..

أنتعلم أن نجهلنا نحن أيضا ونحن كل ما بقى لها ؟.. أم نتعلم قراءة لغة أخرى وكتابتها فلا نستطيع التفاهم معها ؟.

— إذن فماذا تريدين ؟

— أريد شيئين ... أريد بنتا كبيرة بعض الشىء نرافقها ونحاول أن نلهيها ونؤدى لها ما تحتاج إليه ، وأريد أن تبحث عن وسيلة لنستأنف تعليمها ، فهى تعرف الحروف وكانت قد ابتدأت تتعلم الهجاء . فلنحاول أن ننتفع بهذا القليل الذى تعلمته لعلها تستطيع القراءة فنفهم ما لا نستطيع إفهامه لها بالكلام .

— أمرك ...

— تعليم فايزة أهم من تعليم محسن نفسه . فايزة ستظل وحيدة العمر كله .

وأطرق عزت فى حزن مرير وهو يقول :

— نعم ... أعرف هذا .

— لا بد أن نواجه الحقيقة ... نحن نعرف أنها لن تتزوج ولن يكون لها بيت إلا هذا البيت ، فلا بد أن نفهم حتى تستطيع أن تعيش .

— نعم يا إجلال ... أنا أدرك هذا تماما ، ربنا يوفقنا إن شاء الله .

— سبحانه ليس لنا إلا هو .

* * *

كان بيت عزت واجما جامدا لا يحظىء من يدخله أمره . . هو بيت يصمم على كارثة . نجح محسن فى الامتحان ونجح معه حيرى ؛ ولكن خبر النجاح مر بالبيت عابرا عجلا لم تستقبله إلا ابتسامة باهتة . بل إن بيت حيرى نفسه لم يستطع أن يفرح بنجاح ابنه البكر الذى صاحب هذه المصيبة التى ألمت بعائلة عزت .

بل إن حيرى نفسه لم يفرح بنجاحه كما كان يقدر لنفسه أن يفرح . فما كان هناك من سبيل أن يتحقق أمله الكبير فى هذه الأيام الأولى من الفاجعة . وما استطاعت نفسه أن تفرح وهو يرى إلف هواه جريحة أسيفة . نجح الشابان ولكنهما استقبلا نجاحهما استقبالا فاترا هادئا لا نبض فيه ولا حياة ...

وقد استقر حيرى فى بيت عزت بلك لا يبرحه ، يرافق محسن أينما ذهب لا يتركه إلا عند الليل ، وكانا يقضيان أغلب وقتهما فى البيت . وكانت وفية تجلس إليهما فى كثير من الأحيان ، وكثيرا ما حلا حيرى إلى وفية ، ولكن لا حديث إلا عن فايزة ما تقول وما تعمل وما سيفعلان بها ، وكيف يقضى عزت بك وقته . وكيف نجيا إحلال هائم حياتها ... خيمت التعاسة على البيت جميعه ، وإن كان نبض الحب لا يزال قويا فى القلبين الصغيرين إلا أنه نبض لا يجاوز القلب إلا فى نظرة وامضة ، أو دمعة مشفقة يتبادلها الحبيبان .

كان حيرى ومحسن يجلسان فى حجرة المكتب حين قدم إليهما الأستاذ حامد . حياهما وجلس صامتا وهما صامتان . ثم لم يلبث أن قال :

ــ لا أعرف ماذا أقول يا محسن ... هل أقول مبروك أو أقول الله معكم ؟

وقال محسن فى ألم :

ــ والله يا أستاذ نحن فى أشد الحاجة إلى عون الله .

ــ لم أعرف إلا الآن ، فقد مررت ببيت حيرى فوجدت يسرى وهو الذى أخبرنى .

وأراد خيرى أن يغير الموضوع فقال :

— متى تسافر يا أستاذ حامد ؟

— الأسبوع القادم إن شاء الله .

— بالسلامة .

— سلمك الله ... سأكتب لكم دائما .

— هل ستغيب هناك ؟

— والله حسب الظروف ، سأبقى ما استطعت البقاء .

وقال خيرى :

— والست والدتك وأختك هل ستقيمان فى نفس البيت ؟

— طبعا ... البيت إيجاره رخيص .

— لا نشغل بهما فسأزورهما دائما ، وأرى إن كانتا تحتاجان إلى شىء .. اعتبرنى أخاك .

— أنا أعرف يا خيرى مقدار وفائك ، وأنا معتمد عليك كأخ وكصديق .

وقال محسن :

— هذا أقل ما يجب يا أستاذ حامد . ونحن لا ننسى معروفك .

— بل أنا الذى لا ينسى معروفكم أبدا ... أنتم لاتعرفون أثركم فى حياتى لأنكم تعودتم أن تجيبوا طلبات الناس ... هى عندكم رجاءات تبذلون جهدكم فى تحقيقها . أما عند كل فرد تحققون رجاءه فهى مستغلة وحياته ، وربما إلى يصبح أحركم أبدا يا محسن .

— هيه يا أستاذ .

— لا .. لا تيأس لكل ضيق فرج .

— ألف شكر يا أستاذ ... طبعا أنت تعرف أننا على إستعداد لأى طلب تريده قبل السفر . السفر طلباته كثيرة وقد تكون فوجئت به ، فإن كنت تريد

(ثم تشرق الشمس)

سلفة فنحن طبعا أحوالك ونحن ...

وقاطعه حامد شاكرا :

— أبدا ... أبدا يا محسن ... لقد أعددت نفسي تماما ولكن ...

— ماذا ؟

— كنت نويت ألا أذكر هذا الطلب ..

— ولماذا يا أخي ؟

— والله الحكاية الأخيرة هذه ... أظن لا يجوز لي أن أرجو في شيء وأنتم مشغولون بأمر فاجرة .

— إننا نحيا على كل حال يا أستاذ حامد . فل ماذا تريد ؟

— أخي ...

— ما لها ؟

— تعرف القراءة والكتابة وتريد أن تجد عملا ... فإذا استطاع البك الوالد أن يجد لها عملا في مستشفى مثلا أو شيئا كهذا أكون شاكرا ...

— بالطبع سأبلغه ... سافر وأنت مطمئن .

وقال خيري :

— اطمئن يا أستاذ حامد ... سأصم رحائي إلى رجاء محسن وألح على عمي عرت بك .

— شكرا ... أستأذن أنا .

وقال خيري :

— كنت أنوي والله أن أسافر معك إلى الإسكندرية لأودعك ، ولكن لا أستطيع ترك محسن وحده في هذه الأيام .

— أنا أعرف شعورك تماما يا خيري ... وأعتبرك أخي الأصغر ... وأنت

بتفكيرك هذا كأنك ودعتنى فى الإسكندرية . السلام عليكم .

ومد حامد يده وشد على قبضة حيرى فى حب ووود ، وصافح محسن وخرج . وخلت الغرفة بالصديقين مرة أخرى ، وانفرد بهما الصمت فترة طويلة ثم قال حيرى :

— ربنا يوفقه .

ولكن محسن قال وكأنما تذكر شيئا كان غائبا عنه :

— الله ... حيرى ... ألم يقل إن أخته تريد أن تعمل ؟

— نعم .

— فلماذا لا ترافق فايزة ؟.. فنحن نريد لها مرافقة .

— أتظنه يرضى ؟

— ولم لا ؟...

— فعلا ... ولم لا ؟... سأذهب إليه .

— أتعرف بيته ؟

— نعم ... كثيرا ما أوصلته إليه بالسيارة .

١١

أجابت دولت الطرق فانفرج الباب عن شاب ... رجل ... رجل فى مواكير الشباب الأولى مشرق الوجه وامض العينين طويل القامة باسم الثغر ، شديد العناية بهندامه ومظهره يميله إلى الناحية اليمنى من رأسه إمالة هينة ما تكاد تلحظ ..ورأت فى عينيه السوداوين خجلا وفى وجهه المشرق سادئ إحمرار وفى فمه كلاما يتردد بين الانطلاق والاختفاء . ثم رأت فى عينيه إعجابا يكتمه ولكنها أدركته ... طارق جديد على البيت لم يعهده البيت ... نظرت إليه مليا ، وسمحت للإعجاب الذى حالط نفسها أن يبدو فى عينيها دون أن تحميه ، ثم قالت فى غنة حلوة تعودت أن تنغم بها حديثها كلما خلت إلى أحلامها مع الرجال :

— نعم ؟

وقال خيرى وهو يرنو إليها ثم يخفض بصره كلما طالعته نظرتها الجريئة :

— منزل الأستاذ حامد عبد الكريم ؟

— نعم هو ... تفضل .

— ... أشكرك ... الأستاذ موجود ؟

— سيأتى حالا ... تفضل .

— أين أجده ؟

— لن يغيب ... تفضل بالدخول .

ولم يستطع خيرى إلا أن يتفضل بالدخول ... وكيف يستطيع أن يصدف عن هذه الدعوة المتغومة الحلوة ... إنها الأنثى فى جلالها .. فى ذروة عنفوانها

وفوتها ، شباب ريان كالنبت الأخضر الغض تبقط فى بواكير الفجر والندى يتلألأ على أوراقه ، وعينان جريئتان كالأمر … كالقوة … كالسلطان … وعود مزدهر مرسوم يدق حيث ينبغى له أن يدق ، ويمتلئ حيث يجمل به أن يمتلئ ، عارم ميّاد هفهاف كالفرحة النشوانة … كالأمل … كالشباب … ونديان جديدان كالرجاء المجاب … كالرعشة المحققة .

لم يكن بد من أن يتفضل فتفضل … وحل .

لم تكن أم حامد بالبيت فقد خرجت تشترى لابنها بعض الملابس التى رأت أنه سيحتاج إليها فى سفره . وخلا البيت بخيرى ودولت ، فقادته إلى حجرة الجلوس فاستقر بها مقامه ولم تستقر عيناه المترددتان بين الإنعام والإطراق ، ولم يستقر قلبه من الخفق … وحيبا شديدا … وجيب الشباب الجديد ، وجيب الدم يدور فى الجسم فوارا عنيفا حائحا . تذكر وفية ولكنه قال فى نفسه : وهل خنتها ؟ .. الأمر مختلف … واطمأن إلى أن الأمر مختلف وراح يلتذ هذا الوجيب وهذا التحديق وهذا الشباب . وأجرجته دولت من حيرته .

— قهوة ؟

— لا شكرا .

وظلت واقفة تريد أن تعرض شيئا آخر مما يقدمه المضيف لضيفه … ولكنها انشغلت عن هذا بإنعام النظر فيه … نظرة جائحة قوية … رحل … وأى رحل ؟ .

قال خيرى :

— حضرتك الآنسة دولت ؟

— وحضرتك الأستاذ خيرى ؟

وضحك ضحكة ساذجة وازداد وجهه احمرارا أن عرفته ثم قال :

ـ.. كيف عرفتني ؟

وقالت في دلال وأنوثة :

— عرفتك .

وضحك مرة أخرى في بهجة استخففت له :

— كيف ؟

— عرفت والسلام .

— هل أنا مشهور إلى هذا الحد !؟

وتأودت دولت في غنج وهي تقول :

— جايز .

ورنا خيرى إليها نشوان الفؤاد ذاهل النظرة . جف ريقه وشرد ذهنه إلى عوالم يا طالما طاف بها وكانت رفقته فيها امرأة وجهها أخلاط وجسمها أمشاج من الأجسام غير محددة المعالم أو واضحة المعارف ، امرأة متقلبة الوجوه لا تثبت محاسنها على حال ، فقد تكون في يوم جميلة غاية الجمال وتكون في آخر قبيحة غاية القبح ، ولكنها قط لم تكن معروفة عنده . لم تكن وفية مطلقا كما أنها لم تكن بهذا الجمال الذى يتمايل أمامه مشرفا عليه من عل ، باسما دائما ، فرحا دائما ، دافعا بهذه الدماء الموارة في عروقه ، وبهذا اللسان الجاف ـ يلعق جفافه ، ويلفظ كل إحساس آخر يخالجه ... رنا إليها وأطال ... وهى رانية إليه لا تميل عبابها عنه ... فقد طالما رافق أحلامها ، ويا طالما شاركها في وحدتها عند المساء ... منذ رأته من الشباك في أول يوم جاء فيه بأخيها إلى البيت ... رأته ولم يرها . . ثم ظلت تراه كل ليلة وتستحلب صورته إلى عينيها قبل أن تغمضهما ، ثم تترك للأحلام أن تكمل آمالها العربيدة ...

طال بينهما الصمت فلا يجد قولا إلا :

— اقعدى ... لماذا أنت واقفة ؟

وفى نظرة إليه ناعمة عميقة حالمة معربدة ، قالت وفى صوتها تلك الغنة التى تصطنعها :

— مسبوطة هكذا ؟

وظل رانيا إليها ... وكالحلم الجميل يخشى صاحبه أن يستيقظ فلا يراه ، خشى خيرى أن يصرفها من وقتها هذه شىء ، خشى ألا يراها ، خشى أن تذكر شيئا وتتركه ، خشية داخلت نفسه فألحت وملأت جوانح تفكيره طنينا عاليا ... خشى أن تنصرف فراح يفكر فى شىء يبقيها إلى جانبه ... ماذا يمكن أن يبقيها إلى جانبه ؟. . حديث ... أى حديث يستطيع أن يحرك به لسانه ؟ وأى لسان يحرك ؟... ولكن لا بد مما ليس منه بد ... فليفكر فى موضوع الحديث أولا وعند الحديث يعيبه الذى لا تعفل له عين ... أى حديث يمكن أن يحادثها فيه ؟... وعاده الصوت المنغوم :

— أتريده حضرتك فى شىء ؟!

وانتبه خيرى قائلا :

— من ؟

وقالت دولت فى فرح أن استطاعت أن تخلب لبه وتلهيه عن طلبته الأولى :

— حامد ... حامد أخى ... ألم تقل إنك تريده ؟

وصحا خيرى وتذكر أنه كان يريد حامد ، وفى تذكره وجد موضوع الحديث الذى يهفو إليه :

— آه ... نعم ... أريده طبعا ... أريده فى موضوع خاص بك .

— بى أنا ؟

— نعم بك أنت .

واقتربت منه وقد تكلفت الاهتمام تكلفا يتيح لها أن تومو وتمعم بعينيها فى عينيه ، وتوسع من جفونها وتعيد فوها :

— ماذا ... ماذا ...؟

وانتهز خيرى فرصة هذا الاقتراب وأحلس دولت إلى كرسى بجاوره وهو يقول :

— اقعدى أولا .

— هأنذى قعدت ... ماذا ؟

وراح خيرى يقص عليها قصة فايزة ، ودون أن يحس وجد دمعات تفيض من عينيه ... إن المصيبة قديمة على البكاء ولكنها كانت المرة الأولى التى يرويها فيها فبكى . لقد استقبل المصيبة ولم يكن مصدرا لروايتها إلا اليوم ، فأحس لذعة الكارثة وكأنها شيء جديد . وعجب خيرى حين رأى دمعات أخرى تنحدر على خدى دولت ولكنه سرعان ما تمالك أمر نفسه وهو يقول :

— آسف لم أقصد .

— لا عليك .

— هذه هى المسألة .

— وما شأن أختى أو أنا بهذا ؟

— كان أخوك عند ... عندنا وعرفنا منه أنك تريدين أن تعملى .

— نعم .

— هل عندك مانع أن تكونى شبه مرافقة لهذه البنت المسكينة ؟

ونظرت إليه مليا وقالت :

— تقصد مربية ؟

— عندها مربية ... أقصد الكلمة التى قلتها تماما ... مرافقة .

وظلت دولت تنظر إليه ثم قالت :

— وهل سأراك هناك ؟

— طبعا .

وأطرقت دولت هنيهة ثم قالت :

— على كل حال الأمر لأخي .

— أعلم ... ولكن هل توافقين أنت ؟

— نعم .

— إذن سيوافق .

١٢

دق جرس التليفون فى بيت عزت بك وكان جالسا إلى جانبه مع زوجته إجلال هانم ، فرفع عزت السماعة ، ثم فوجئت زوجته به وقد ملكه ذعر عارم عنيف وهو يقول :

— هل أنت متأكد ؟

ثم يعود فيقول :

— وهل عرف ؟

ثم جاهد نفسه ليقول قبل أن يضع السماعة :

— لا ... لا تخبره أنت سأخبره أنا .

وراح يردد فى ذهول :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ... لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قام من فوره

والذهول ما يزال آخذا به عبر ميال زوجته التى راحت تلح عليه فى جزع :

— ماذا يا عزت ؟.. ماذا حصل ؟.. عزت ..

واتجه عزت إلى السلم يريد أن ينزله لولا أن صاحت به زوجته صيحة يائسة :

— عزت ... أخبرنى يا أخى ماذا حصل ؟

وأفاق عزت هونا لبرى زوجته وهى فى جزعها ويقول :

— لا شىء ... لا شىء ... لا أستطيع أن أخبرك الآن . والتفت إلى السلم يمرّ فى تمهل يائس حزين .

* * *

كان همام فى حجرة مكتبه الفاخرة يراقب ابنه خيرى والكاتب الذى يعمل عنده وهما يرصفان الكتب فى المكتبة الجديدة التى ركبت اليوم بحجرة المكتب . وكان همام فرحا بمكتبته هذه فقد صنعت بأمره فى باريس ، فهى قطعة من الفن ترصيع تغطى جدران حجرته جميعا ، كل جزء ظاهر منها محفور مغطى بالبرونز تبدى لعبت به أيد صناع ماهرة ، فهو رسوم وتشكيلات وزخارف . وكانت قاعدتها مثلها تقفل على أدراج أو رفوف . وكانت الضلف معطاة بقطع من البرونز المشغول ... ملائكة أو آدميين أو طيور تكاد حيويتها تسعى وتحيا لو أصابت من قدرة الله نفخا ...

— هيه يا عم خيرى ؟.. ظللت تشكو ضيق المكتبة وكثرة الكتب . أين هى هذه الكتب التى كانت لا تجد مكانا ؟ أرى المكتبة حاوية لا تزال .

ويقول خيرى فى جذل فرحان :

— وهل كنت أدرى أنك ستأتى بهذه المكتبة كلها ؟.. إنها بيت وليست مكتبة .

— أتعجبك ؟

— تعجبني ؟! إنها رائعة يا بابا .. هائلة .

— عظيم ... عليك إذن أن تختار الكتب التي تحتل هذه الأرفف .

— بسيطة ... سأملؤها لك قبل أن أدخل الكلية .

— اشتر ما تشاء وأحضر لي الفاتورة ولاحظ أنني أمتحن اختيارك .

— وماذا تعطيني إن نجحت في هذا الامتحان ؟

— المكتبة .

— كيف ؟

— ستصبح الكتب لك .

— إنها لي بغير مكافأة ...

— لا ... أنا أقصد أن أعطيك هذه الحجرة فتصبح حجرة مكتبك أنت .

— وأنا لا أقبل .

— كيف ؟

— لو كانت هذه الحجرة لي لما قبلت أن تكون لي ولا تكون لك ... فإنك مهما تصنع لي تستطيع أن تحمل حجرتك مثل هذه المكتبة ، ولا يمكن أن تكون لي أنا حجرة خير من حجرتك .. لأول مرة يا بابا أراني مضطرا لرفض هديتك ... إن جمالها لا يكمل إلا بك ... وبجلوسك فيها .. أريد مكافأة أخرى .

وابتسم الأب فرحا بحديث ابنه وهو يقول :

— أطال الله عمرك يا حبيبي ... لك ما تشاء .

— إذن سأفكر وأخبرك .

— فكر ما تشاء ... إن كل ما أملكه لك .

— بل لك أنت يا بابا ... أطال الله عمرك .

— هيه يا خيرى ... لم يعد لنا أمل إلا أن تسعدوا أنتم ...

وقبل أن تخونه عباءه سارع يقول فى لهجة آمرة صاحكة :

— أسرع يا ولد ، لا تكثر الحديث ... افرغ من عملك ... إنك ثرثار كبير .

— حالا ... حالا ... أين تريد كتب المنفلوطى ؟

— هنا ... قريبا من متناول اليد .

— وكتب طه حسين ؟

— هنا أيضا ... فإنى أحب أن أعود إليها دائما ... أقرأتها ؟

— نعم .

— كم مرة ؟

— مرة واحدة .

— أنت مجنون ... كيف تستطيع أن تقرأها مرة واحدة ؟..

— أقرؤها ثانية ... وهذه كتب هيكل والمازنى والعقاد .

— ضعها جميعها فى الأرفف القريبة من اليد وضع معها دواوين الشعر فهذه لا تقرأ مرة واحدة . والأغانى ، والعمدة ، ونفح الطيب ، وأمثال هذه الكتب اجعلها جميعها قريبا من يدى ، دع الكتب الأخرى للأرفف الباقية ... تلك التى لا يرجع إليها إلا فى القليل النادر ... أما هذه الكتب الرخيصة فلا تضعها فى المكتبة ... هذه تقرأ ثم ترمى ... آه .. هذا الكتاب .

وقبل أن يكمل همام جملته يدخل عزت إلى الحجرة فيستقبله همام فى مرحة صاخبة :

— أهلا ... كنت أفكر فيك ... فأنت من هواة الأثاث الجميل ... ما رأيك ؟

ولا يجيب عزت على السؤال وإنما يقول فى حزن واضح ودهول لا يخفى :

ـــ أريد أن أراك وحدك .

وأحس همام أن عزت يحمل شيئا فادحا فالتفت إلى كاتبه يقول :

ـــ اتركنا قليلا يا زكى أفندى .

ـــ وحيرى أيضا .

وأخذ همام بعض الشىء وقال :

ـــ وحيرى أيضا ؟

ـــ نعم .

ودون أن يسمع حيرى مناقشة أخرى حول خروجه أو بقائه قال للكاتب :

ـــ تعال يا زكى أفندى .

وخرجا وأقفلا الباب وخلت الحجرة بولدى العم ، ونلعثم عزت قليلا ثم قال :

ـــ همام ... طول عمرك رجل فأرجو أن تتحمل ما سأقول لى ...

وقاطعه همام :

ـــ يا عزت إنى كونت ثروتى وأعصابى فى البورصة ... وبقدر عظم ثروتى قويت أعصابى ... قل .

ـــ فوار خسر كل شىء .

وأرتج على همام هنيهة وهو يقول :

ـــ الدين الذى ...

ـــ نعم الذى ضمنته فيه ... هو طبعا لا يملك شيئا ... وأنت ...

ـــ الضامن ... نعم ... إذن فقد خسرت كل شىء ... بل أصبحت مدينا أيضا .

— أعرف .

— إذن ...

— أنا تحت أمرك ... ... ثروتى كلها طوع مشيئتك ... أى شىء تريده ... سأنفى على البيت ، سأشتريه أنا وأؤجره لك حتى تجمع ثمنه ، وأضمنك فى أى مبلغ حتى تستعيد ما خسرته . كل ما أرجوه أن تظل أنت كمهدنا بك ثابتا كالجبل .. لقد كنت حياتك كلها هكذا فأرجوك أن تظل هكذا .

وابتسم همام ابتسامة فيها شكر وفيها تقدير للرجل الكبير الذى يعرض عليه حياته ومستقبله ومستقبل أولاده ... لم يقل شكرا فقد رآها ضئيلة لا تقوم بما فى نفسه ، ولم يقل أنه لا يقبل فقد كان واثقا أن عزت يعلم أنه لن يقبل ... إنه لا يقبل أن يعرض ابن عمه وهو كأخيه لمثل ما تعرض له ... فبيت عزت بيته ولن يتهدم بيته ... خير من أن يتهدم بيناه ... ولم يقل ماذا سيفعل ...

لم يقل شيئا إلا نظرة الشكر هذه التى أطلت من عينيه وظلت معلقة فى ثنايا ، وإلا هذه الابتسامة التى ارتسمت على شفتيه وتحمدت ، ابتسامة يعجز صاحبها أن يستردها ونأبى هى أن تزول . وفى بطء تحرك لسانه فى فمه يقول :

— الأولاد يا عزت .

وسمع عزت الجملة وكأنها تصل إليه من أعوار واد سحيق .. فهو يسمعها بذكائه لا بأذنه ، وخيل إليه أن همام أصيب فأراد أن يستعيد ما سمع أو فهم .. أراد أن يقول شيئا أى شىء فهو يسأله :

— ماذا ... ماذا قلت يا همام ؟.

ويريد همام أن يقول ثانية ... يريد أن يعصى إلى ابن عمه .. أخيه .. بهذه العكرة التى تلح على ذهنه فى إصرار .. الأولاد .. والأولاد هم روحته وأولاده ... يريدهم أن يكونوا أمانة فى عنق هذا الأخ ... يريد أن يقول ...

فيقول ... ولكن الكلمة تدور فى رأسه وتدور أيضا فى فمه ولكنها عاصية عن الانطلاق أو هى عاجزة عن الانطلاق . ويرى عزت لسان همام يدور فى فمه كالعجوز المقعد يدور فى الدرب المظلم فلا يبصر الطريق ولا يبلغ المقصد ... ويدرك عزت ما وقع لابن عمه ، ويمضى إدراكه عن ذهنه بأمل واهن أن تكون إلمامة إلى زوال ، ولكنه يعلم أنها ليست كذلك ... يعلم .. ولكن لا بد للمصيبة من أمل — مهما يكن ضائعا — يخفف وقعها أو يمسها على الأقل أن تنزل دفعة واحدة .. هو يعلم ولكن ماذا بيده إلا أن يتعلق بأمل أوهن من خيط العنكبوت وأوهى ... يعلم ولكن ماذا بيده إلا أن يقول فى حرج :

— همام ... همام ... ماذا بك يا همام ؟

ولا يجيب همام إلا بهذا اللسان التائه العاجز المقعد يتعثر فى فمه ولا يبين .

واندفع عزت إلى باب الغرفة فى حنون يصيح :

— خيرى ... خيرى .

ولا ينتظر حتى يقترب منه خيرى الملهوف الحارع بل يقول له :

— استدع الدكتور حالا ... الدكتور عبد العزيز ... عبد العزيز إسماعيل ... حالا ... حالا يا خيرى .

ويقول خيرى :

— ماذا ... أبى ... هل به شىء ؟ ... أبى ما به يا عمى ؟... أبى ..

ويندفع إلى حجرة المكتب ويحاول عزت أن يمنعه ولكنه ينفذ إليها داه الصلمة المقفلة من الباب محطما زجاجها صائحا :

— أبى ... أبى ...

ويستدير عزت إلى خيرى ليقول له :

— أسرع باستدعاء الدكتور ...

وينظر همام إلى خيرى ... ويجد أخيرا وسيلة أخرى لعهم بها عزت ما يريد ، فهو يشير إلى خيرى ثم يشير إلى عزت ويكرر الإشارة مرات ومرات لا يقف عنها حتى يقول عزت :

— من عينى يا همام ... من عينى يا أخى ... لا تخش شيئا ... أنت خير .

وتتراخ أنفاس همام اللاهثة ويطمئن أنه أبلغ أخاه الصديق ما يريد ، ويستسلم لمرضه فى إذعان مطمئن ويهدأ لسانه إلى مستقر ... لقد أدى الأمانة فليحملها من أودعها يديه ... وإنها لأيد أمينة ، إنها أيدى عزت ... إنه ابن عمه ... أخوه ... صديقه .

١٣

انفجار شريان فى المخ ... انفجار الحياة ... شريان ... صغير أو كبير لا يهم ... لقد انفجر وكانت الحياة معلقة بهذه الخيوط الرفيعة التى تجرى فيها الدماء ، ولم تحتمل الخيوط الحياة فانفجرت فمات ... مات همام ... كأى إنسان يموت ، لم يرحم الموت أنه أراد أن يفقد صديقه ، ولم ترحم الحياة أنه اندفع إلى غمار المخاطرة من أجل الصداقة . لا ... لم يراع الموت ولم تعطف الحياة ... شأنهما دائما يعيان المروءة ولا يحفلان بالرجولة ، سيان عندهما شقى مات وهو ينسلق بيتا ليسرقه ، أو رجل رمى بنفسه إلى البحر ليفقد واحدا من أبناء الحياة . الموت يستقبل كلا الاثنين وتصدف الحياة عن كليهما .

حلت الكارثة بالبيت الكبير وكان أكبر الرحال فيه هو ذلك الشاب الذى يريد أن يستقبل الحياة فأبت الحياة أن تستقبله . ونزلت النازلة بأمه سميرة هانم فهى

من الخطب فى هلع آخذ حربن مر ، وهى من النازلة فى بغطة كاملة تريد أن تواجه هذه الجديدات التى تطالعها بها حياة جديدة من الفقر وهى لم تعود الفقر ، ومن العسر وقد كانت للآخرين يسرا .

وتقدم عرت يجاهد أقصى جهاده أن يبقى عليهم البيت ، ولكن حبرى أبى ذلك فى عزم واثق .

— ماذا نفعل بالبيت يا عمى ؟.. سيكون ثمنه دينا علينا وأولى بنا أن نواجه الموقف بعير حرص على المظاهر .

وقالت الأم :

— ومن يخدم هذا البيت الكبير ؟ وأين لنا بما يكفى خدمه والعيش فيه . بل أين لنا بالقلوب التى تستطيع العيش تحت سقف كان يظل كبيرنا وكنا ننعم فى بره ؟

وقال حبرى :

— لا تخش علينا من كلام الناس يا عمى . فقد عاش والدنا غنيا ومات فقيرا ولكنا نشرف بفقره ونعتز به أكثر من اعتزازنا بغناه . لقد أراد أن ينفذ صاحبه فأصابهما الفاجعة .

وقال عرت :

— يرحمهما الله .. ماتا كلاهما من الصدمة ... على كل حال يا حبرى أنا معجب بهذا الكلام الذى أسمعه منك وكل رجائى أن تعوض أنت ما فاتكم من عمى وتلتفت إلى المذاكرة .

— سأعمل يا عمى .

— تعمل ؟! فيم ؟

— سأتوظف ...

— بالبكالوريا ؟

— نعم .

— وتترك التعليم العالى ؟

— سأحاول أن أذاكر من الخارج .

— يا امى الحالة لا تستدعى هذا .

— كيف ؟

— أملك عددها العشرون فدانا التى كتبها لها أبوك .

— ماذا تفعل العشرون فدانا فى هذه الأزمة يا عمى ؟.. أنت أدرى ... قطار القطن بثلاثة جنيهات .

— إنها تكفى ولا شك ... سأشرف عليها أنا .

— بل لا يا عمى ... أعفنى .

— مادا ؟

— لا نستطيع .

— مادا ؟

— أكثر الله خيرك وأنفاك ... أما هذا فلا نقبله

— ما هو هذا الذى لا نقبله ؟

— لا نقبل الصدقة يا عمى عرت .

— صدقة ؟!

— نعم صدقة ... صدقة كريمة تحاول كل جهدك أن تغلفها بخلقك السامى ، ولكن لا نستطيع .

— يا بنى لا صدقة هناك .

— نحن نعلم حبك لأبى ، ونعلم أنه أودعنا أمانة فى عنقك ، وكل أملنا أن

ترعانا بإشرافك أما مالك فحرام علينا .

— يا خيرى لا تقل هذا .

— إنك لا ترضى أن تقبل الصدقة يا عمى عزت ... لم يصل بنا الحال إلى هذا .

— وأين الصدقة فى إشراق على أرضكم ؟

— الصدقة فى أن تقدم لنا من أموالك ما نحتاج وتدعى أن ما تقدمه إلينا إنما هو من نتاج الأرض ، وأنا لا أقبل هذا وأمى أيضا لا تقبله .

وجرت دمعات على خد الأم الوالهة وهى تقول :

— يرحمك الله يا همام ... تركت والله رحلا وإن كان صغيرا .

وأطرق عزت فى حزن وإكبار :

— إى والله ... ترك رحلا . أنا تحت أمرك يا بنى ...

افعل ما تراه .

— تجد لى وظيفة .

— غدا تتسلم عملك .

— شكرا يا عمى .

* * *

لم يحس يسرى ولم تحس بادية من الفاجعة إلا ظلالا ضئيلة ، فقد علما أنهما لن يريا أباهما من بعد ، ورأيا الحزن القاتل يخيم على البيت الكبير . ثم رأيا البيت الكبير ينكمش إلى شقة صغيرة . ثم رأيا الخدم يتضاءلون ويختفون الواحد منهم بعد الآخر ، فاختفى سائق السيارة مع السيارة نفسها ، وتناقص الخدم والخادمات فلم يبق إلا الحاجة زينب التى تقوم على تربيتهما والتى كانت خاصة لأمهما وعى طفلة ، وبشير أغا الذى كان عبدا ثم نال حريته وأبى تبلها وظل مع جدهما ثم مع

أبيهما ، ثم ها هو ذا يظل معهم بعد أبيهم فهو لا يعرف بيتا غير بيتهم . وقد كان فى أخريات أيام همام لا يعمل أىَّ شىء ولكنهما برياته فى هذه الأيام وفى هذه الشقة الصغيرة يقوم بكل عمل يمكن أن يقوم به . وشيئا آخر أحساه ... أصبح حيرى فجأة ذا أهمية لم تكن له فى البيت الكبير ، ورأياه يصدر أمرا عجبا له أول الأمر ، ثم ما لبث أن أصبح طبيعيا على الأيام ، فقد أصبحت الحاجة زينب فى الشقة الصغيرة طياحة وتركت أمر رعايتهما وأصبح كل منهما يقوم بشأن نفسه ما وسعه الجهد .

رأيا هذا وأحساه ولكنه لم يصل إلى أعماق نفسيهما ، فالوفاء صغير عند الأطفال والنسيان كبير . عجبا ولعلهما ضاقا بالبيت بعض الشىء ، ولكن ما أسرع ما وجد يسرى أصحابا بدل الصحاب وما أسرع ما شغلته المدرسة التى لم يصبها فى هذا الانقلاب الكبير تغيير ، فهى هى مدرسة المنورة لا تزال .

وأما نادية فقد بدأت تذهب للمدرسة وكان هذا تغييرا جديدا على حياتها لم ندر إن كان له صلة باختفاء أبيها أو بالنقلة من بيت إلى بيت ، أم لا صلة هناك .

واستطاع عزت أن يستقدم للشقة الجديدة أثاثا من البيت الكبير وقد وجد من الدائن ترحيبا ، فقد أكبر هذا الدائن حيرى الذى قدم كل ما يملك سدادا للدين ولم يبرح شبرا . وأراد عزت أن يأخذ المكتبة إلى الشقة ولكن حيرى أبى ، فقد أصبح يكره هذه المكتبة التى لم نشهد فى بيتهم إلا مصرع أبيه ، ولكنه أخذ الكتب جميعا وجعل منها هوايته .

واستقر الأثاث المحجم فى الشقة الصغيرة يشهد ما يشهده أصحابه من فقر بعد غنى وعسر بعد يسر وضيق بعد سعة . لم يفكر حيرى ولم تفكر أمه أن يبيعا الأثاث ليستبدلا به رخيصا غيره ، فقد كان الأثاث يحمل ماضيا للأسرة ، ومهما تكن فى هذا الماضى من مرارة إلا أنه قطعة منهم تحن لها النفس وإن أمض النفس أن

تذكره .

استفرت الحياة بالأسرة ، ومهما يكن الحال التى استقرت عليه إلا أنه استقرار خير من الضياع . وجاهدت الأم نفسها وأعانها كرمها فاستطاعت أن تظل دائما الست الكبيرة الهادئة المطمئنة إن حزنت فلزوجها ، وإن بكت فعلى فقيدها . ولم تذكر عزا مضى ولا غنى زال ولا رفاهية دوت ، وإنما تذكر زوجا كريما ورجلا وحلا وركنا ظل إلى أن مات ركنا . وفى هذه المعانى عاش خيرى ، واستطاب أن يرى نفسه عماد بيت ، والتذ شعوره بأنه يجاهد من أجل أمه أن نعيش كريمة وأخيه أن يتم تعليمه وأخته أن تتثقف حتى يرصبهم ويهم بمن يضمها إلى بيته فقيرة دامت أصيل وثقافة وجمال .

وكانت أسرة عزت تكثر من زيارتها الشقة الصغيرة . وكانت سميرة هانم ترد هذه الزيارات فى ثقة بالنفس وهدوء فقد أكرمها الله بولد أبى على كرامتها أن تهان وعلى يدها أن تمد . فهى إن شكرت عزت فإنما تشكر الوفاء لم يشبه عطاء والرعاية لم تخالطها الصدقة ، فهى بعد مثلها مثل أحلال لا نفل عنها شيئا ، فأمر غناها وفقرها لا شأن له بصلاتها بقريباتها وصديقاتها ما دامت لا تحتاج إليهن فى فقرها كما كانت لا تحتاج إليهن فى غناها ...

لا شأن لواحدة منهن أنها كانت تأتى إليهم بالسيارة وأصبحت تأتى بعربة أجرة يجرها حصان أو اثنان ، ولا شأن لواحدة منهن أنها كانت ترجع إلى البيت الكبير فأصبحت ترجع إلى الشقة الصغيرة ، ومن تشأ منهن أن تزورها فبينها بيتها كبيرا كان أو صغيرا .

وبهذا التفكير الواثق المطمئن كانت تزور من يزورها من قريباتها وصديقاتها . شىء واحد حد على علاقتها بالناس ؛ أغلقت عن زيارتها للفقيرات من قريباتها فقد أحجلها أن تذهب إليهن دون أن تحمل ما تعودت أن تحمله لهن مما يعين على

الحياة . ورفضت أيضا أن تبدأ صديقة أو قريبة من مثيلاتها لم تبدأها بالزيارة ، فقد رأت فى إحجامهن ترفعا منهن لا يقابله عندها إلا ترفع مثله .

* * *

لم يستطع حيرى فى عمرة عمله والأحزان والتغيير الذى أصاب حياته جميعا أن ينسى هواه ، وكيف له أن ينساه ؟ فقد تستطيع الحياة أن تفقده أباه وتستطيع أن تفقده المال ورفاهية العيش ، وتستطيع أن تفقده آماله من شهادة عالية ومكان بين الناس كبير ، وقد يستطيع أن يقنع عن اليتم يساعد إن يكن صعبا إلا أنه لا بد له على الأيام أن ينشد ، وقد يستطيع أن يرضى من المال بالستر ومن الرفاهية بالعيش الرضى ، وقد يستطيع أن يخدع آماله فى مكان كبير بين الناس بأن يرى نفسه فى داخل نفسه كبيرا يسعى من أجل أمه وأخويه ، ولكن عماذا يقنع هواه وهو هوى فى القلب بلا منطق أو عقل ؟.. إنه هوى ... بماذا يستطيع أن يخدع حبه أو يرضيه ؟ وكيف السبيل إليها اليوم ؟ لقد صحبت أمها إلى البيت فى كل زيارة ... ولقيها ... وحادثها ، يا له من حديث كالخصان الجاهم العريد تمسك به يد طاغية عاتية لا يملك منها فكاكا . حادثها عن عمله هيهات ، وانتظر أن تدعوها أمها كما كانت تفعل . ولكنها لم تدعها ... لقد أرادت الأم أن تشعره أن شيئا بينهما لم يتغير وشعر هو وفهم ، ولكن هيهات ... لقد تغير كل شىء ... رفض هو سكوت أمها فلم يلبث أن دعا هو وفية أن يذهبا معا ليجلسا إلى أمها ... رفض الخلوة التى كان يحلم بها ويدعوها ويرجوها ويسعى إليها : وأحست هى ولكن كيف تبين له عما تحس ؟ أرادت أن تقول له إن شيئا لم يتغير ، وفاتها بما صنعت من جلوسها إليه ، ولكنها لم تستطع أن تذكر هذا فى حديث . حيل إليها أنها لو قالت إن شيئا لم يتغير فكأنما تقول إن كل شىء قد تغير ... أرادت الأمور أن تجرى فى نفس المجرى الذى كانت تسير فيه ولكن

الأمور أبت وأبى هو وأبت الحياة .

هيهات ... إنه هوى لا سبيل إليه ... قالها وأحس فى نفسه الطعنة ، وأحس راحة الموت بعد الشقاء ، وهدوء المنكوب بعد الفاجعة ... لا أمل له فى هواه ... فليبحث له عما يصرفه عن هذا الهوى فها هو ذا أصبح حرا من الحب وإن كان الجرح فى نفسه عميقا .

وأحست وفية أنه حزم أمره على اليأس ، وحاولت فى زياراتها العديدة أن ترمل إلى هذا اليأس وامض أمل ولكنه أغلق نفسه من دونها .

أتراها تيأس مثل يأسه وتتركه ؟! لكم تمنى ألا تفعل ... ولكم تمنى أن تفعل ... حيران بين يأس استقر عليه وبين حب شب معه وانتهى إلى رماد من ذكريات ودماء من جراح ... أينزوحها فيصبح عالة عليها وعلى أبيها ؟.. هو يعلم أن أباها يقبل ولكن أيقبل هو ؟... ولكن أيقبل أيضا أن تضيع أيامه الماضية جميعا من طفولة وشباب ذكريات لا تحمل إلا الألم والحسرة ؟.. وماله لا يقبل ؟ ألم تتعثر حياته جميعا ؟ فليكن هذا جرحا مع الجراح ولتتكسر النصال على النصال . ولكن هذا الجرح أشد عمقا وأبعد فى الزمن والنفس غورا ... لعلها ... رحماك يا رب العالمين .

لعلها ماذا ؟... إننى لن أقبل ... أم ترانى أقبل ؟..

١٤

دأب حبري منذ انتقل إلى الشقة وحصل على كتب أبيه ، على أن يشترى هو الخشب ويصنعه ليكون مكتبة تعطى جدران حجرته . ولم تكن المكتبة التى يهوا إليها إلا أرففا بعضها فوق بعض ، بسوءة الصنع رخيصة التكاليف ، تعبه على قطع الوقت وعلى تحميل الحجرة وعلى حفظ الكتب . وقد جعلت أمه من هوايته الجديدة هذه مادة ضحكها ، مكان يشاركها فى الضحك ويدعو إليه أخته وأخاه ... فقد تستطيع الفوس الحزينة أن تجد فى بلواها ما يضحك ، وقد تراخ الفوس إلى هذا الضحك ... كم هى رحيمة يد الله ! الدمع يعسل والزمان يلهى والحياة تقسو فلا يجد الناس لدفع قسوتها سلاحا إلا الضحك فيضحكون .

واستطاع يسرى أن يجد فى المكتبة إلى جانب الضحك مادة للعب أيضا ، حتى جرح يوما أصبعه فأمره أخوه ألا يلهو بأدوات النجارة مرة أخرى ، ولم يطع فرحره فلم ينته . فلم يجد حبري مفرا من أن يقفل الحجرة كلما ترك البيت ، وأصبح يقوم بعمله هذا وأحدا فى ذلك العمل اليدوى راحة لذهنه وقلبه معا .

كان حبري مشغولا بإقامة مكتبته حين جاءه بشير أغا يخبره أن صديقا له اسمه عجيب جاء لزيارته . ويقول حبري فى فرح :

— عجيب كامل ؟

ويقول بشير أغا فى عربية غير عربية :

— لا أعرف ... قال عجيب ... كامل غير كامل لا أعرف ؟!

ويسارع حيرى إلى غرفة الجلوس فيجد صديقه نجيب كامل وعلى فمه ابتسامة حلوة وهو يقول :

— يا أخي اذكرنا ... تركت البيت ، أرسل لنا العنوان الجديد ... أم تراه حتما علينا بدوح حتى نعرفه .

في هذه العذوبة والصفاء يجمل نجيب كل هذا الذي حدث . لم نضع نرونهم ولم يفقدوا عائلهم ولم يصبهم الدهر في حاضرهم وماضيهم ومجدهم وآمالهم ... لم يحدث شيء من هذا وإنما انتقلوا من بيت إلى بيت . . هذا كل ما حدث .

وفي عناق حار احتفت الدموع التي ترقرقت في عيني حيرى ، وفي أهلا وسهلا تهدج بها صوته بدا مه لصديقه الشكر والحب والإعزاز . وجلس الصديقان .

— والله زمان يا نجيب .

— أي والله ... زمان .

— هيه ما أخبارك ؟

— كلية الحقوق طبعا ... كما نعرف .

— طبعا ...

وأوشك صوته أن يتهدج ثانية ولكنه جمع نفسه وهو يقول :

— كنا ننوي الالتحاق بها معا .

— وما المانع الآن ؟

— إني موظف ... أظنك عرفت .

— نعم أعرف ... ولكن ما يمنعك أن تثابر معي ؟

— أخاف أعطلك .

— بالعكس ، فأنت من بعد الساعة الثانية لا عمل لك ... وستكون أحرص

على المذاكرة منى ، فأنا قد أعتمد على المحاضرات بينما لن تعتمد أنت إلا على المذاكرة .

— نبحث الموضوع .

— لا نبحث ولا يحزنون ... وعلى فكرة أصبحت أعيش وحدى فى شقة خاصة بى .

— ماذا ؟

— ما سمعت .

— ولماذا ، كفى الله الشر ؟

— رفع أبى إلى باشكاتب محكمة فنا ، وطبعا لم يكن بد أن أظل وحدى .

— ومن يخدمك ؟

— استأجرت خادما كسولا لا يعرف من شئون البيت شيئا ... يخبط الزر فلا يناسك إلا ريثما يدخل فى العروة ، ثم يسقط على الأرض شاكيا جهل من ركبه ، ويطبخ الأرز فيصبح لبخة أو يطبخه فيصبح حصى .

— اطرده .

ويفكر نجيب قليلا وهو يقول :

— والله أظن مسألة الطرد هذه مستحيلة .

— لماذا ؟

— فريبى .

— فريبك ؟!

— حدا ... ثم لا يتقاضى أجرا .

— طبعا لا يتقاضى أجرا ... إنه حليق أن يدفع لك أجر إنقاذك له ... من هو هذا الغريب ؟

— نجيب كامل .

— من ؟

ويطرق الصديقان فى الضحك ، ويقول نجيب :

— أصدقت أن لى خادما ؟... أجننت ؟ مرتب أبى يسع الكتب بطلوع الروح ، فمن أين أجيء بالخادم ؟.

إذن فأنت وحيد ؟!

— وحيد !

ومد نجيب شفته مخرجا نغمة تترجح بين السرور والخبث وقال :

— ليس دائما .

وأشرق وجه خيرى بالفهم ، ولكنه فضل أن يبدو كأنه غبى لا يفهم ما يقصد إليه صديقه

— لا أفهم .

— بطبيعة الحال ، الملابس تحتاج إلى غسل .

— وما شأن هذا بوحدتك ؟

— الغسالة آية فى الجمال .

— ومن أين لك بأجرها ؟

— فى الثلاثين من عمرها ، وأنا فى العشرين .

— عظيم ... غيره .

— زوجة صاحب البيت ... صاحب البيت فى الستين من عمره ، وهى فى الخامسة والعشرين ... وأنا ...

ويقاطعه خيرى :

— فى العشرين ... مفهوم ... غيره .

— هذا هو الثابت ... وكله مع التساهيل .

— وكله مجانا .

— المسألة لا تخلو من رجاجة عطر للغسالة ، وهدية صغيرة للست ، إنها حاجات بسيطة ، والقادمات من الخارج يكتفين بالعشاء ، والطماعة تذكرة سيما .

— ما ألذ وحدتك ومذاكرتك .. عوامك ... أسرع .

١٥

كانت سميرة هانم تجلس إلى ولديها وابنتها نادية فى حجرتها التى اتخذوها مكانا يقضون به يومهم إن لم يكن لديهم زائر ، وتنقلت سميرة هانم بعينيها على وجوه أبنائها ثم قالت فى نفسها : « نحمدك يا رب ونشكر فضلك ، أخذت المال والعائل وتركت البنين ... أكمل كرمك يارب وبارك فيهم » . ومست فؤادها نفحة من راحة لا تلبث تهفو إلى القلوب الحزينة فتمسحها إشراقا وأملا . وفى غمرة من هذا الإشراق قالت الأم لخيرى :

— هيه يا معلم ... ألم تنته بعد من مكتبتك ؟

وضحك يسرى ونادية ، وأرتج على خيرى لحظات فقد كان غارقا فى تلك الآونة يفكر فى شأنه وشأن وفية ، وقد أخذت تحاصره نفسه أفكار تتراوح بين اليأس القاتل والأمل الواهن لا يكاد يبين . وأدركت الأم بحاستها ما يفكر فيه أدركته بهذه الضحكة المضطربة التى أطلقها تعليقا على سؤالها . وأرادت أن تتأكد مما أدركت فالتفتت إلى يسرى تسأله :

— هيه يا يسرى : ألم تذهب اليوم إلى بيت عمك عزت ؟

وكانت عيناها ترقبان خيرى فرأته يعبق تماما إلى اسم البيت الذى ذكر أمامه .

وقالت نادية وكأنها تذكرت شيئا :

— قل لى يا يسرى ... لماذا تذهب وحدك إلى بيت عمى عزت ؟ لم لا تأخذنى معك لألعب مع مايزة ؟.

وقال يسرى :

— يا عبيطة ... هل ألعب معها ؟.. إنى ألاعبها ... أرسم لها وأصنع لها البيوت . أتعرفين أنت كيف تلاعبينها ؟.. إنك ستكلمين وتتكلمين وتجعلينها تبكى لأنها لا تسمعك .

وقال خيرى :

— والله فيك الخير يا يسرى . وماذا تصنع لها أيضا ؟

— ألاعبها ، أظل أنا ودولت نلاعبها ، وأحيانا تطلب دولت إلى أن أبقى معها وتتركنا هى لتستريح .

وقال خيرى فى حبث :

— هيه ...؟

— هيه ماذا ؟!

— أهى دولت ؟!

وقال يسرى فى لعثمة وسرعة :

— مالها دولت ؟

— لا ... لا شيء ، ولكنك قلت لى إنها حلوة ولطيفة .

واحمر وجهه حجلا وهو يقول :

— وماله ؟

وأعرفت سميرة هانم فى الضحك وهى تقول .

— وكيف عرفت أنها حلوة ولطيفة يا سى يسرى ؟!

وقال يسرى فى عصب :

— وهل أنا عيل ...؟!

— لا ... العفو .

— والله لأتركنكم ... لن أقعد معكم .

وقال حيرى :

— وأين تذهب ؟... إلى دولت ... أقصد إلى فايزة .

وأسرعت نادية تقول فى برامة :

— خذنى معك .

— ولحقت بأختيها الذى كان قد غادر الحجرة تاركا خلفه ضحكا يملأ أرجاءها . ملأ الضحك العرفة هنيهات ثم أعقبه ذلك الجو الذى نعود أن يواكب الضحك أنى يكون . والتفتت الأم إلى ولدها تقول له :

— حيرى ...

— نعم يا بينا ...

— ألا تعرف أن عندى جوهرات كثيرة ؟

— أعرف يا نينا .

— لماذا لم تسألنى عنها ؟

— ولماذا أسألك ؟

— كان من الطبيعى أن تسأل ، لعلها تنفعك الآن !

— بل سننفعنا غدا حين تزوجين نادية ، وحين ينخرج يسرى ويريد الزواج وتكون الأحوال قد تعدلت . وتنفعنا إذا — لا قدر الله — صادفتنا عقبات فى

حياتنا هذه الجديدة .

ـــ أنفاك الله يا خيرى ... أتدرى لماذا أكلمك عنها الآن ؟.

ـــ لا والله لا أدرى !

ـــ أريد أن أختار منها شبكة لك ، وأبيع واحدا من العقود وأجعل ثمنه مهرا لوعية .

ونظر خيرى إلى أمه طويلا ثم قال :

ـــ أترضين لى ذلك يا نينا ؟

ـــ ما هو الذى أرضاه ...؟

ـــ أترضين أن أتزوجها فتصبح هى الزوج وأنا الزوجة ... لماذا تتزوج فقيرا لا يحمل شهادة ؟ وأين أسكنها وماذا تفعلون أنتم ؟

ـــ وهل ستظل بلا شهادة ... ألا تذاكر مع نجيب ؟

ـــ آمال يا نينا ... أتظنين أن هذه المذاكرة تفيد ؟... وعلى كل حال افرضى إنى نلت الليسانس ، وبعد ؟

ـــ كل شىء يمكن تدبيره .

ـــ لا يا نينا ... أنت تعرفين أن هذا لا يمكن تدبيره أبدا ... وأظنك لا تقبلين أن أتزوج منها وأعيش على نفقة أبيها ... وأضطر لإجهاد نفسى حتى لا أضيع كرامتى كلها فلا أستطيع أن أقوم بواجبى نحوكم .

ـــ يا بنى نخطبها وتتزوج حين تتخرج .

ـــ وأتركك ؟!

ـــ يكون يسرى كبر .

ـــ أتريدين أن يترك يسرى المدارس أيضا ليقنع بوظيفة بالبكالوريا مثلى . . لا يمكن . إن كانت الظروف حكمت ألا أنال أنا الشهادة العالية فلا بد أن ينالها

يسرى ...

— ماذا أقول لك يا بنى ؟... أنا أعرف مكانها فى نفسك وأشفق عليك ، ولكنى أرى رأيك كاملا ... عوض الله صبرك خيرا يا بنى و...

ودق جرس الباب الخارجى ومرت الخاجة زينب بهما لتفتحه ، وما لبثت دولت أن دخلت عليهما الحجرة :

— إجلال هانم ترجوك أن تتفضلى بزيارتها لأنها متعبة ، ولم تستطع المجىء معى .

— طيب يا ستى انتظرينى حتى أتوضأ وأصلى المغرب .

— حاضر .

وقعدت دولت وقامت سميرة هانم وتركت الحجرة تخلو بالاثنين ... وما لبثت دولت أن قالت :

— ماذا ... لماذا لا نراك ؟.. إن جئت لا تصعد وإنما تكتفى بلقاء البك ثم تمضى ... ماذا جرى ؟.. أليس لك أحد تسأل عنه ؟.

— والله ...

— إن كنت لا تريد أن تسأل عن وفية فاسأل عن فايزة ... أو عن التى أحضرتها لفايزة .

— أنا مطمئن على أخبارك من يسرى .

وضحكت دولت ضحكة فيها دعابة وقالت :

— آه ... أيكفى هذا ؟.. المهم ... معى رسالة لك .

— ماذا ؟

— فكرت ألا أعطيها لك ، ولكن حشيت أن تعرف وفية أننى ... المهم . لم أستطع حجرها ... هذه هى الرسالة ... اقرأها وقل الجواب .

وفتح خيرى الرسالة ... كانت سطرا واحدا ... « أرجو أن أراك غدا فى الساعة السابعة بالسلاملك » .

أرتج على خيرى لا يدرى بماذا يجيب ... لكم يهفو إلى الذهاب ولكن كم من العراقيل يقف دونه . يريد أن يقول نعم فتمسك بلسانه آلاف الحجج التى أفامها فى نفسه . ظل ينظر إلى الرسالة ثم ينظر إلى دولت فيرى على فمها ابتسامة فيها سرور ويرى فى عينيها إشفاق أن يوافق ، ثم يسمعها تقول « هيه ماذا أقول لها ؟ » وقبل أن يجيب ندخل أمه فتنقذه من هذه الحيرة التى ألقته إليها الرسالة . ونفيم الأم الصلاة ثم ما تلبث أن تخرج من الحجرة تتبعها دولت التى لم نشأ أن ننظر إليه منذ دخلت أمه حتى لا تضطر أن ترى موافقته على الذهاب فى إيماءة خافية .

١٦

ماذا كان يمكن أن أفعل ؟ كيف كان يمكننى أن أصل إليه ؟ إنه لا يرانى إلا إذا علم أننى لست وحدى . أصبح كل جهده ألا ينفرد بى بعد أن كان كل جهده أن ينفرد بى . أعلم أن فقره وغناى حائل بينى وبينه ، ولكنه حائل يقيمه هو . أنى يريد هذا الزواج وتريده أمى فهما يعلمان ما بيننا ، ويعلمان أن كل من يعرفنى ويعرفه كان يتوقع حطبتنا من يوم إلى آخر ، وكانا سعيدين بذلك . واليوم لا يزال أبى يريد هذا الزواج ويرى فيه الوسيلة الوحيدة التى تمكنه من عود أسرته دون أن يجرح كبرياءها أو كبرياءه ، وأمى — كعادتها — لا ترأى عندها إلا رأى أبى ، فلماذا لا يتقدم هو ؟.. أعلم أنه متكبر ... ولكن ألا يكفى حبها الفديم الذى لا يزال جديدا ؟.. ألا يكفى هذا اعتذارا لكبريائه ...؟!

لقد أرسلت إليه الخطاب ولم يجب ... ولكن لا بد أن يأتى ... ألا يقدر أننى أنا أيضا قد تنازلت عن كبريائى وقبلت أن أكتب إليه ؟ ألا يكفيه هذا ؟.. لشد ما أخشى أن يرى فى خطابى شعفة لا حبا ... بل لا ... إنه يدرى كم أحبه ... كيف يدرى ؟!... أكنت كاشفته ؟.. نعم ... كاشفته ... أكان لا بد أن أقول ؟.. ألم ير إلى عينى ؟.. إلى وجهى ؟.. ألم يسر ؟.. أكان محتاجا للحديث حتى يدرى حبى ؟.. إن لم يكن قد أدرك كم أحبه فهو لا يحبنى ... وأنا لا أريده ... بل لا .. إنى أريده ... إنه كل شىء لى ... كل شىء ... أحلامى وآمالى وزوجى وبنى ... بربك يا خيرى ... بحبنا ... بأياما الطفلة اللاهية ، وبكل ما كان بيننا من لقاء نشوان ، وهوى عاصف مسنور ، بكل ابتسامة منى استقبلتها ابتسامة منك ، وبكل فرحة بلقائك التفت بفرحتك ... لا تخذلنى ... لا تدعنى لأيام أجهل شريكى فيها ... لا تدعنى لوحدة لن تزول عنى ... ألا تفكر إلا فى كبريائك ؟... ألا تذكر مصيرى أنا ؟... ألا تضحى بالكبرياء لتنقذنى أنا من أيام أجهل فيها المصير ... فأنا ضائعة ملفاة فى دوامة من عصف الحياة بى لا أرى فيها مستقرا أو ملاذا .. خيرى أكبرياؤك أحب إليك من حياتى ؟ أهيئ أنا عليك ؟ إنها أنا بكل ما مضى من أيامى فى ظلال حبك ، وبكل ما بقى لى من حياة ... أتاركى وحدى لنرضى هواجس نفسك من مثل وكبرياء وإباء ؟.

ما بالك ألا تفكر فى نفسك فقط ... ألا تفكر فى أنا ؟ أتنظر إلى حقك ولا تنظر إلى حقى ؟.. إن توهمت أن واجبك نحو نفسك هو أن تأبى الزواج بى فواجبك نحوى أنا أن تقبل هذا الزواج . فليكن رواحك بى تضحية بكبريائك فى سبيل حبانى أنا ... أهيئ حياتى ؟.. ألا تعدل هذا الثمن الذى تبذله مهما يكن باهظا ؟.. لو كنت مكانك ما ترددت ... لو كنت إياك فى موقفك وكنت أنت فى موقفى لتقدمت ... إنها أنانية منك تلك التى تملى عليك موقفك هذا ...

فاترك أنانيتك هذه من أجلى أنا ... ومن أنا ألست أنا أنت ؟؟.. حيرى ألا تجيء ؟.. من يعقل إليك هذا الكلام إن لم أفله أنا ؟.. من يذكرك بحقى عليك إن لم أذكرك أنا به ؟ لا بد أن نأتى ... لا بد أن نأتى حتى أجعل عقلك يفكر بعقلى فإنى أدرى أنك الآن لا تفكر إلا بكبريائك أنت ... ولا تذكر غير كرامتك أنت فاذكر حياتى ... أتذكر حياتى ؟!

كانت وفية تحترق فى هذا اللهيب من الذكريات والآمال وهى ماكثة تجانب شباك السلاملك ترقب الطريق تأمل أن تراه ، وكانت لاتنى تنظر إلى ساعتها وقد جاوزت السابعة تحطم كل دقيقة تمر بعضا من آمالها ... وبعضا من كبريائها ... أهى التى تنتظر ؟ وهى التى تسعى إلى اللقاء ؟ وهى التى ترسل الخطاب ؟ فالكارثة التى أصابتهم إذن أصابتها هى أول ما أصابت ... فى كبريائها ، فى آمالها ، فى حياتها جميعا .

وفى نظرة إلى الطريق رأته قادما ... إذن عقد حاه ... فأعطنى يا رب القوة أن أقول ما أريد أن أقول ... يا رب .

واقترب خيرى من الباب الرئيسى للبيت ، وقصدت وفية إلى باب السلاملك ففتحت لعينها ضلفة ترى إلى الطريق ولا يراها من بالطريق . واجتاز خيرى الباب الكبير ولكن ماذا حدث ؟.. إنه لم يمل إلى سلم السلاملك وإنما حاوره قاصدا إلى البيت نفسه ... لم يستطع أن يمنع عينيه أن تلقيا نظرة إلى السلاملك ، فهو إذن يعلم أنها هنا ... ولكنه مع ذلك لا يلقى إلا هذه النظرة القلقة ولا يزيد ، ثم يعدوها إلى البيت ... لم يأت لى إذن . أقفلت وفية الباب وعادت إلى مكانها وأسلمت نفسها إلى بكاء يتفجر من أعماق نفسها .

* * *

دلف خيرى إلى حجرة المكتب فى بيت عمه عزت فوجده جالسا بها ينتظر

مقدمه . وما إن رآه حتى قام إليه يحييه فى ترحيب ، وما لبث أن قال :
— أكنت مشغولا اليوم ؟
— والله كنت على موعد مع أحد أصدقائى .
— أرجو ألا أكون عطلتك عن شيء هام .
— أنا تحت أمرك دائما يا عمى .
— والله يا بنى أنا أريدك اليوم فى موضوع هام ، وإنى آسف أن الظروف اقتضت أن أكلمك أنا فيه .
— تحت أمرك يا عمى .
— لعلك لا تعرف أن المرحوم والدك كان قد خطب منى وفية لك ووافقت ، واتفقنا ألا نخبر أحدا بذلك حتى تتم تعليمك .
— ماذا ؟
— إنه لم يخبر حتى والدتك وأنا لم أخبر إحلال إلا اليوم .
— حتى والدتى ؟
— نعم ، قدرنا أن الأمهات لا يسكتن وتوقعنا أن أمك قد تخبرك على سبيل التشجيع لك على المذاكرة أو تعجز عن كبت عواطفها ... المهم أن أحدا لم يعرف بهذه الخطبة إلا أنا وهو .
— والله يا عمى ...
— لم أكن أنوى أن أفاتحك الآن ... كنت أريد أن أنتظر حتى تتم تعليمك ، فقد علمت أنك تذاكر مع أحد أصدقائك .
— نعم .
— ولكنى مضطر أن أطلب إليك أعلان الخطبة .
وأرتج على حيرى فلم يجب ، وواصل عزت ملك الحديث :

— تقدم لخطبة وهبة جميل نظمي ابن نظمي باشا السيد . ووالده من أقرب أصدقائي ولا أستطيع رفض خطبته إلا بإعلان خطبتك أنت ... أما الزواج فليتم على مهل .

وأطرق حيري طويلا وران الصمت على الحجرة ، ورأى عزت دمعات تسيل من عيني خيري فظل رانيا إليه ينتظر جوابه . وأخرج خيري منديله يذود عبراته ، ثم رفع إلى عزت وجها شاحبا تصلبت قسماته في عزم كعزم المقدم على الانتحار ، وبلسان واثق ينطلق عن نفس تحترق من الألم قال خيري :

— أشكرك يا عمي .

— علام تشكرني ؟

— أنت طبعا تعرف من هي وفية بالنسبة لي . ولا شك أن أبي كان يعرف هذا يوم خطبها ... كان يعرف أنه يحقق بخطبته أملي الأكبر في الحياة ... ولكني اليوم لا أستطيع . لا أستطيع مطلقا . ولن أنسى لك هذا الموقف مني .

وأطرق عزت طويلا ثم قال :

— يا بني لا أستطيع أن ألح عليك في هذا . ولكني أستطيع أن أقول ، وأقسم برحمة أبيك أن رغبتي في زواجك من ابنتي لا يشوبها شفقة عليك ، وإنما هو أمر أعمو إليه كما كنت أعمو إليه يوم خطبها والدك . وأنا أعرف كل ما يدور بنفسك وأستطيع أن أنتظر بعض الوقت حتى تفكر وتختبر ملعنى اليوم أدهشتك .

— أفكر ؟ ... أنا لا أفكر إلا في هذا يا عمي منذ وقت طويل ... كم كنت أتمنى أن أجد في نفسي الشجاعة على التقدم إليها ... والله وحده يعلم كم أشقى بعجزي ... ضميري لم يقبل ... فكرت كثيرا يا عمي ... أنقذك الله لنا دائما فأنت أعظم إنسان عرفته ... السلام عليكم .

. وقبل أن يسمع شيئا اندفع إلى باب الحجرة والدموع تتواكب على عينيه ،

يكتم نشيجه ويمسح ويسارع الخطى حتى ليكاد يجرى ، والتقى به محسن وحاول أن يستوقفه ، ولكنه مال عنه إلى الباب فى اندفاعة يائسة محمومة مريرة ، وعبر السلاملك ملقيا إليه نظره دون أن يحس ، ثم تعذ كالسهم من الباب وراح يدفع خطاه كأنه العاصفة التى تدور فى نفسه . حتى إذا ابتعد عن البيت أطلق الدموع والنشيج وراح يسير فى الطرقات بلا هدف ولا غاية ، إلا ظلاما يستر عليه دموعه الواهنة الخارقة .

١٧

إنه ابن أبيه ، كان لا بد لى أن أتوقع منه هذا . كنت أريد أن أجعل منه أخا لمحسن ، وكنت آمل أن أعينه على العيش فلا يحتاج إلى الوظيفة ويتفرغ للدرس ، وكنت أؤدى واجبى نحو صديقى وابن عمى وأخى ، وكنت أيضا أضحى بأمنى وألقى بها إلى بيت يقوم على ماطا وحده ، آملا — والأمل ضعيف — أن يكبر زوجها على الأيام ، بل على السنين ، والكثير الكثير من السنين . إنها نريده ، وأعلم ذلك ، ولكن منذ متى استطاعت فتاة فى هذه السن الباكرة أن تتبين الطريق الأقوم لتسير فيه . إنى أحب حيرى وأفديه ومازال تقديرى له يزداد منذ مات أبوه ، ولكن حبى وتقديرى لا يمعان أن أرى الحقيقة واضحة جلية ... إنه فقير بلا شهادة ، وعليه لأسرته واجبات يصر على القيام بها ، وهو محق فى إصراره . فإن كان حير وفية وحده هو ما أستهدفه لزواجها من جميل أحدى ، ومستقبلها فى ظله أثبت ، وقد أديت واجبى وأدى حيرى واجبه . وأنا بعد سأظل راعيا لهم لا أتركهم ، ولعل إكبارى لحيرى يجعل مكانه منى مكان

الصهر الغريب . لقد جعلني موقفه أكثر اطمئنانا على مستقبل ابنتي وهو لهذا جدير مني بالشكر ، وسيكون شكري أن أجعل من نفسي أبا له

مسكينة وفية ، لا شك أنها ستتألم ، ولكن ألم الشاب سريع الزوال ... مسكينة ! لقد شتت وهمس صويحباتها والسيدات من حولها لا بني يذكرها أنها عروس خيري . لقد كان فتى آمالها عاشت ترى فيه روح المستقبل ... أعرف هذا وهي تدري أنني أعرفه . وقد حاولت ... بل لقد بذلت في محاولتي ما لم يبذله أب آخر ... لقد خطبت أنا لابنتي ورفضت خطبتي . لا أستطيع أن ألوم نفسي في يوم إذا رأيتها حزينة أن لم يتم زواجها من خيري .

وبعد فما دامت لم تتزوج خيري فالكل عندها سواء ، وجميل خير من يصلح لها ، وهو في السلك السياسي ، فهي لن تقيم في مصر وتستطيع البلاد التي تزورها أن تنسيها ما كان في مصر من آمال محترقة ... لعلهما يسافران إلى أوروبا فأجد بيتا حين أسافر هناك وأستغني عن الفنادق وما ألاقيه فيها من متاعب . نعم إن بيت ابنتي سيكلفني أجرا أعلى ، ولكنه خير من الفنادق على أي حال ؟ وعون ابنتي أمر لا بد منه سواء أنزلت بفندق أم نزلت ببيتها . ونظمي باشا السيد من كبراء رجال الحزب ، وأستطيع بهذا الزواج أن أضمه إلى جانبي كلما اقتضى الأمر عونا إلى جانبي . وهأنذا مرشح للوزارة في التعديل القادم الغريب . لو كنت رفضت هذا الزواج ، لعارض هو ترشيحي للوزارة . أما الآن فلا بد أنه يؤيدني : عجيبة ؟! لقد كنت ناسيا مسألة الوزارة هذه ، أما كنت أقدر أن رفض جميل كان سيطيح بكرسي الوزارة ؟ لا لم أكن ناسيا . لقد خطرت هذه الخاطرة بدهي ولكن وفائي لهمام كان يحتم علي أن أفعل ما فعلت ... أحمد الله أني لم أصغر أمام نفسي ، وشاء الله الكريم وشاء خيري — حفظه الله — أن يرد إلى وفائي بالخير العميم .

لم يعد أمامى الآن مشكلة إلا إقناع وفية . ولكن ليست هذه مشكلتى ، إنها مشكلة إجلال . مسكينة إجلال ... مصيبتها فى فايزة تكبر مع الأيام ، فأنا أخرج وأعمل ولا أقيم فى البيت إلا قليل وقت أما هى فلا تبارحه ولا تبارح فايزة أو هى لا تكاد . لعل دولت ترفع عنها بعض العبء فهى تلاعب فايزة وتصاعيها أغلب الوقت ، ولكن من للعبء الذى تحمله إجلال فى نفسها ! من لهذا العبء ! ودولت إلى متى تقيم هنا ؟.. أرى محسن كثير النظر إليها .. ترى هل بينهما شىء ؟. لكم أخشى . ولكن إجلال بقطعة ولعل محسن يقدر الظروف التى جاءت بدولت فلا يعدو عليها ويكتفى بالنقود الكثيرة التى يصبها منى والتى يدعى أنه يأخذها للكتب .. يا له من أبله ؟ أيظننى لا أعرف أين ينفقها ؟.. لو شئت لكشفت حيله ولذكرت له الأمكنة التى يرودها ... ولكن ما شأنى أنا ؟.. إنه شاب فليعش كشاب ما دام يحج آخر العام وما دام يحسب أننى أجهل أمره ويبذل كل جهده أن يظل أمره خافيا عنى ... فلأظل أمامه جاهلا لعل فى جهلى ما يجعله رزينا فى تصرفاته .. لقد كنت مثله ... وإن كانت النسوة اليوم أكثر تحررا وأقرب منالا ... ولكن أيستطيع أن يتسنع مثلما تمتعت ... لا أظن ... ولماذا لا أظن ؟ المتعة مسألة نسبية ولعله يحس بها أكثر مما كنت أحس ... أحاول أن أطمئن نفسى أن متعتى أكبر من متعته ... ماذا يهم أن تكون أكبر أو أصغر ما دمت أنا تمتعت وملأت المتعة نفسى فى أيام الشباب ؟. ما لى تركت هذه الأجواء جميعا منذ تزوجت ؟.. أما كان هذا طبيعيا ؟.. فى الأمر نظر . بعضهم يراه طبيعيا وبعضهم لا يراه .. نعم الناس يعرفوننى ، والشهرة تقيد العربدة . ولكن أكان لا بد لى من العربدة العلنية ؟ إننى لم أكلف بها فى يوم من الأيام ... فيم أفكر ؟.. أريد أن أعيد الشباب . هيهات ... لتكن متعتى اليوم فى أولادى ... ولكن ... سبحانك يا رب ... أمرك ترضى بحكمك ... فايزة

صماء ، ووفية أمامها أيام طويلة من مصارعة اليأس ، وعمس ... اللهم احفظه من كل سوء يا رب . من يدرى لعل وفية تسعد بزوجها . ومن يدرى لعل أحدا يحب فايزة ويتزوجها ... هيهات ولكن ما اليأس بالأمل ؟. مصرعه مر ... ولكنه على كل حال أمل لن يصرع فى يوم وليلة وإنما سيصرعه مر السنين الطوال ، فلنأمل الخير فى وجه الله ، ولتمر الأيام والسنون ، ولننتظر ، وهل نملك فى هذه الدنيا إلا أن ننتظر ونسعى حتى لا نشعر بثقل الانتظار ؟...

وقام عزت ملك إلى زوجته إجلال يضع فى عنقها هذه المهمة الجديدة من أحمار وفية ، وسؤالها عن رأيها فى حميل ، وما زال ظنين هذا التفكير يدور بذهنه أقرب إلى الارتياح لهذا الزواج ، وإن كانت غصة ما تزال تراوحه وتغاديه من ذلك الحزن الذى يعلم أمه سيلم بابنته .

* * *

جلست إجلال هانم إلى ابنتها تحس الحرج فيما هى مقدمه عليه ولا تجد عن الإقدام مناصا ، فتجمع أمرها آخر الأمر وتقول :

— يا بنتى أنا وأبوك كنا نريد أن تتزوجى من حيرى ، وقد استقدمه أبوك وعرض عليه الزواج ملك .

وندت عن وفية صرخة عجب أطلقتها كالملسوع :

— ماذا ؟!

— ورفض .

وندت عنها صرخة أخرى :

— ماذا ؟

— لماذا تعجبين ؟ أنت تعرفين موقفه . فقد كان نبيلا .

وقالت وفية فى نفسها :

— أيبلغ كبره هذا المدى ؟

ولم تجد جوابا على تساؤلها وإنما غرقت في دوامة حزن كبير ، بينما راحت الأم تقص لها بقية الخبر من خطبة جميل لها وموافقة أبيها وانتظاره لموافقتها ، ووفية صامتة تسمع بعض ما تقول أمها ولا تسمع أكثره ، حتى انتهت الأم من حديثها قائلة :

— وعلى كل حال يا بنتي جميل في السلك السياسي وسنسافران ، ولعلك في الخارج تنسين ... تنسين كل شيء .

وسمعت وفية هذا الكلام الأخير فانتبهت إلى أمها تقول :

— سنسافر إلى الخارج ؟!

— نعم .

— إذن ..

وأطرقت لم تكمل الجملة تدور في نفسها عاصفة من الأفكار ، ولم تتركها أمها لأفكارها وإنما قالت :

— هيه ... ماذا قلت يا وفية ؟

وفي حزم واهن حزين قالت :

— ما يراه بابا .

— يعني موافقة ؟

— أمركم .

* * *

لم يكن جميل جميلا وإنما كان شديد العناية بملبسه ومظهره ، يكسو قوامه النحيل الطويل بأفخر الثياب وأعلاها ، وكان أبيض الوجه ناصعا في لون الملابس البيضاء بعد غسلها ، وكان وجهه باهتا لا تعبير فيه . وكان معجبا بهذه الصمة في

بعسه فهى نهىء له المظهر السياسى الذى يصبو إليه . وكان أنفه معقوفا كبير الأذنين يحتفظ على فمه بابتسامة لا تحمل معنى ، ابتسامة وحدت نفسها على فمه دون أن تدرى لوجودها سببا ، وكأن صاحبها وضعها ونسيها فى مكانها وكانت عيناه جامدتين ولكنهما إن أنعمت فيهما النظر أدركت أنهما لا تخلوان من ذكاء . وكان جميل يكبر وفية بسنوات كثيرة ولكنه فارق لا يعيب الزواج ، فقد كان فى الثلاثين من عمره ولم تكن هى قد أكملت العشرين . وهو طيب النفس سمح عذب فى اختيار ألفاظه عسير على من يعاشره أن يسىء إليه .

تمت الخطبة وجاء جميل ليرى عروسه ولتراه . أما هو فقد حمد الرؤية وفرح بها وإن كان قد ضاق بعض الشيء بتلك الحمرة التى تشوب بياض عينها اليسرى ، وفكر أن يباحث أطباء أوروبا فى شأنها ؛ ولكنه سرعان ما أدرك ألا فائدة ترجى من هذه المباحثة . وحتى ما قد يعلق به زملاؤه على هذا الاحمرار ، فروجة الموظف فى السلك السياسى لا يكفى أن تصحبه هو بل لا بد لها أن تصحب الآخرين ، فهى تقابل فى الاحتفالات الرسمية ، وهى عنصر مهم فى حياة زوجها العامة بل لعلها أكثر أهمية فى هذه الحياة منها فى حياة زوجها الخاصة .

فكر جميل كثيرا ، ثم وجد المخرج أخيرا فى كلمة فرنسية طالما أراحت نفوسا ، وطالما أرضت كبرا ، وطالما أشاعت فى قلوب الكثيرين الثقة والاطمئنان . إنها شيك ... إنها طابع مستقل بذاته لا يماثل الأخريات ، من من الأخريات لها زاوية حمراء فى ركن عينها اليسرى ؟... من غير خطيبته ... روحته وفية ؟.. شيك ... شيك لا شك . وارتاح إلى هذا الرأى بل فرح به وانقلبت حشيته سعادة لا يشوبها إلا تفكيره فى إبلاغ هذه الكلمة ... شيك .. إلى أذهان زملائه ممن سيعملون معه فى سفارة فرنسا . لو قيلت مرة واحدة فسيلقفها زميل عن زميل ولا يصبح فى حاجة أن يعيدها مرة أخرى ... مرة واحدة تقال ثم

كمى ... فأول حديث بين زملائه هو التعليق على روحات بعضهم البعض ... تعليق حاد وقور ، ولكنه أيضا ناقد متبصر لا يترك عيبا إلا ذكره ولا حسنة إلا ناقشها . . ولكنهم — كجميع الناس — يحبون اصطياد العيوب أكثر من حبهم لكشف المحاسن .. تبت هي الكلمة ... وإنه بعروسه راض فرح مسرور . هذا عن المظهر أما عن المخبر فقد أدرك أنها تجيد الفرنسية ، وهذا أيضا شيء يسره كل السرور . وأدرك أنها قليلة الكلام وإن يكن بعض الشك قد شاب إدراكه هذا ، فليس من المعقول أن يتوقع منها كثرة الحديث أمام خطيبها الذى تراه لأول مرة . ولم يكن فى حاجة إلى البحث عن مقومات أخلاقها الأخرى فهى ابنة عزت بك الأرميرلى وحسبه هذا اطمئنانا إلى أخلاقها ، ذاكرا أيضا ما قاله أبوه إن عزت سيصبح وزيرا عن قريب ، وبالتالى سيصبح باشا .. إنه بعروسه راض فرح مسرور :

أما هى فلم يستطع خطيبها أن يرسل فى نفسها شعورا من الرضا أو السخط لاحظت عنايته بملبسه ولم تعجب ، فهى صفة تكاد تكون مشتركة بين رجال السلك السياسى . ولاحظت أنه غير جميل ولكنها لم تره أيضا قبيحا ، وقد كانت من ذلك النوع من النساء اللواتى لا يحفلن كثيرا بجمال الرجل . ولاحظت طول قامته ونحافتها ولم تعلق فى نفسها على هذا . ولاحظت أدبه فى الحديث ولم يدهشها ذلك ، فهو أمر متوقع من ابن نظمى باشا ومتوقع أيضا من موظف بهذا السلك . ولاحظت أنه يتكلف بعض التكلف فى إخراج ألفاظه وفى بعض حركاته وبعض جمله التى يقحم فيها أحيانا ألفاظا فرنسية . لاحظت هذا ولم تحفل به فقد توقعته أيضا من شاب جاء يعرض نفسه على خطيبته ويقوم عمله على التمثيل ، وإن يكن تمثيلا سياسيا . وعزمت فى نفسها على تنبيهه إلى هذا التكلف فى مستقبل أيامها . ولم يخف عليها فارق السن ولكنها غفرته أيضا ، فقد يجعله

هذا يحتمل ما تعلم أنه سيلازمها من ألم ... ألم كانت تقدر أنه لن يزايلها أبد الدهر .

كانت وفية حليفة أن تستقصى عيوب حطيبها جميعا ، وكانت خليقة أن تريد بأسها مرارة . ولكنها عرمت فى نفسها أن تقبله فقد كانت تعلم أنه لن يكى هو معيره على الأبواب ، ولن يكون غيره هذا حيرى بحال من الأحوال . وكانت تعلم أيضا أن أباها راض عن جميل ، وكان موقف أبيها من خيرى يملأ نفسها إكبارا له . وقد أرادت أن ترضى أباها تعبيرا عن شكرها وإكبارها ، فأسلمت نفسها ، وحاولت ما وسعها الجهد أن تعمى عن عيوب جميل عبثا كانت حرية بمعرفة هذه العيوب ، وأن ترضى بما كانت حرية أن تثور وترفض ... ولكنها قلت ... فما دام خيرى ليس الزوج فالجميع سواء ، فليكن جميل زوجها ما دام فى هذا إرضاء لأبيها وما دام فى هذا إبعاد لها عن مصر ...

وأعلن نظمى باشا أن ابنه سيسافر بعد شهرين ، ورجا عزت بك أن يمكن ابنه من السفر بعروسه .

* * *

انتهز عزت الفرصة ودفع بروحه إحلال إلى دوامة العرس يرجو أن تسمى فى عمارها ما تكابده من حزن على فايزة .

واندفعت إحلال وكادت تنسى ، لولا ما يطالعها من ابنتها وبه من صيق لا يبارحها وعدم مبالاة بما نشترى لها . ولكن ذلك لم يمنعها أن تتصرف بكليتها إلى الجهاز ... لا تكف عن القول فى نفسها إنه أول فرح يدخل قلبى ، ولا تكف نفسها عن الإجابة وآخر فرح ، ولا تتركها نفسها هذه المتشائمة قبل أن تهمس ثانية ، أهو فرح حقا ؟.. أترين هذا الفرح فى عينى ابنتك ؟، ولكنها مع ذلك تزجر نفسها زجرا ولا تنى تلح عليها أنه فرح

وينتهى الشهران وتروح وهبة من جميل ، ويتركان مصر .
وتفكر وهبة ومشارف الإسكندرية تغيب عن ناظريها ... أأستطيع أن أترك مع هذا الشاطىء ما فى نفسى من حسرة وحزن وألم و... وحب ... هيهات

١٨

كانت أنباء الزواج تبلغ بيت حورى من كل سبيل .. فيسرى ونادية لا يمسكان لسانهما عن ذكر ما اشترته أبلتهم وهبة ، ودولت رائحة كل يوم غادية تبلغ حورى فى حلوة قصيرة مختلسة أو تبلغه على مرأى من الجميع ما يتم فى البيت الكبير من خطوات ، وكأنما تريد بذلك أن تنسيه وهبة نسيانا تاما ، مدركة أن هذا التذكير فى أغلب أمره — محلة للنسيان أو اليأس ، وأى يأس بعد الخطبة وشراء الجهاز وتحديد موعد الزواج وما يعقب الزواج من سفر لشهر العسل .
ولم تكن كلمة تلسع حورى قدر ما تلسعه كلمة العسل فى هذا الموضع .
وقد كانت سميرة هانم سيدة كريمة كشأنها ، فما أن علمت بالخطبة حتى قصدت إلى إحلال هانم مهنأتها فى هدوء ووقار وإخلاص ، وأدركت إحلال ما يدور فى نفس صديقتها فتقبلت التهنئة فى صمت . ثم حاولت سميرة هانم أن تقطع زياراتها بعد ذلك ولكن إحلال أبت عليها هذا وراحت هى تزورها وترسل لها دولت بالسيارة أغلب أيام الأسبوع ، فإذا التقتا فلا حديث عن الخطبة ولا حديث عن الجهاز .
كانتا كلتاهما تدركان الموقف كل الإدراك ، فلم تحاول واحدة منهما أن تريد الأمر حرجا .

ولما رأى حيرى أن بيته أصبح ولا حديث به إلا الزواج ، ولما رأى أمه تحاول جهدها ألا تدع فيه شيئاً من أنباء هذا الزواج على مرأى منه أو مسمع ، رأى أن خير سبيل له هو أن يترك البيت أطول فترة ممكنة من اليوم . وحبب إليه عيب هذا الرأى فقد انقى هناك بالغسالة والتقى بزوجة صاحب البيت ، وحمد الفقاعين وأصبح لا يكاد يترك بيت صديقه . وإن سألته أمه عن المذاكرة هجم بعض الأنماط لا يدرك لها معنى وانتقل بها إلى موضوع آخر أو انتقل هو بنفسه إلى مكان آخر .

وقد كان حيرى حريصاً ألا يدور الحديث عن مذاكرته أمام يسرى ، فقد خشى ألا يصيب النجاح فيجعل من نفسه قدوة غير طيبة أمام أخيه . وقد كان في يومه هذا على موعد أن يذهب إلى حبيب في السادسة من بعد الظهر ، فلقد أنبأه حبيب أنه لن يعود إلى البيت قبل هذا الميعاد ، ولم يجد ما يفعله من الظهيرة حتى حلول الموعد إلا أن يستلقى على فراشه ويقرأ ، وكانت صحبة إخوته تملأ البيت ولكنه كان قد تعود ألا يضيق بها .

لم يطل انفراد حيرى بنفسه فقد فتحت أمه الباب تسأله :

— أتريد شيئاً يا حيرى ؟

— لا يا نينا شكرا .. ما المناسبة ؟

— أنا خارجة أنا ويسرى ونادية .

— إلى أين ؟

— إلى بيت عمك عزت .. مسكينة إجلال من يوم سفر وفية وهى حزينة حرمان ... حزن على المقيمة معها التى لا تسمع ، وحزن على العائلة التى لا تعرف كيف تسير حياتها مع زوجها العريب الذى لم يرها ولم تره إلا عند الزواج .

ولم يشأ حبري أن يعلق على هذا الحديث وإن ملأ نفسه حزنا .. فقال في أم كير حازم :

— طيب يا نبيا مع السلامة ... أتأحدين معك بشير أخا ؟

— نعم ... وأنت لماذا لا تذهب إلى عملك عرت يا حبري ؟

— والله يا نبيا لا أدرى ... تقصير ... مجرد تقصير .

— لا ... لا حق لك ... إنه يا بني يستحق منك كل خير .

— أنا لا أنسى فضله .

— إنه دائم السؤال عنك .

— سأذهب إليه .

— لماذا لا تأتي معي ؟

— لا ليس اليوم ... أنا على موعد ... قد أذهب غدا إن شاء الله .

— طيب يا بني كما تحب ... فلك معافية .

— الله يعافيك يا نبيا .

وخرجت الأم وأقفلت الباب ، ولم يعد حبري إلى القراءة وإنما نحى الكتاب جانبا وراح يفكر ... والتذ التفكير ... والتذ الألم ... والتذ التضحية التي قام بها ... الجراح تملأ نفسه ولكنه كان حين يتحسسها يجد في قلبه راحة وهدوءا ، ليس يدري أهو هدوء البركان الثائر من الحب أتت عليه الخطوب فاستقر ثائره وهدأ مضطربه وأصبح لا شيء إلا ذكرى ؟ كان حبري إذا التقى بجراحه في خلوة نفسه أحس في داخله أنه كبير ، واطمأن خاطره أنه رجل أدى ما يجب أن يؤديه الرجل من أمانة نحو نفسه ونحو كبريائه ونحو أهله ونحو من يحب .

طال التفكير بحبري ولم يفق عنه إلا حين سمع صوت ينبعث من الباب ، وبدولت تبدو منه هيئة اطمأنت فيها أنه وحده . ثم أقفلت الباب وسعت إليه وهو نائم

لا يزال دهشا لدخولها على غير توقع .

وقالت دولت :

ـــ أين الحاجة زينب ؟

ـــ لا أدرى ... ألم تفتح لك باب الشقة ؟

ـــ أبدا ... دققت الجرس مرات فلم يرد أحد ، وكدت أعود ولكنى دفعت الباب فوجدته مفتوحا .

ونلعثم خيرى وهو يقول :

ـــ لعلها ذهبت تشترى شيئا وتعود .

ونظرت إليه دولت وأطالت النظر ثم قالت :

ـــ لم نعد نراك .

وسكت خيرى ... وراح ينظر إليها ... كم من الأحداث مرت به منذ التقيا فى حلوة كاملة كهذه ... وكم تعلم من أشياء منذ ذلك الحين ... كم فقد وكم كسب ... فقد أباه وفقد حما وفقد مالا ، وكسب خبرة وكسب جرأة ... وجلست دولت ... ثم تجلس إلى الكرسى الكبير بجانب الشباك ، ولم تجلس إلى الأريكة الضخمة التى تصر على البقاء تحت المكتبة وكأنها تعبرها بالفارق بينهما أو هى فى الواقع تعبرها بعدم التناسب بينهما وأين مكتبة أقامتها يد نصبة لم تمسك بغير القلم من أريكة صيغت ساريس بناء على تصميم خير المهندسين وأجملهم ذوقا .. لم تجلس دولت إلى شىء من هذا وإنما اختارت السرير ذاته الذى يمام عليه خيرى .. وحين حاول أن يجلس دفعته بيدها فنام ثانية ... كأنما أحست دولت أن الفارق الذى كان بينهما قد زال ... كان المال يفصل بينهما وها هى ذى تراه قد أصبح قريب الفقر منها ... وكانت وقبة تفصل بينهما ووقبة اليوم فى أوروبا فى أحضان روحها ... أى شىء يمنعها عنه ؟.. لماذا لا يتزوجها ذلك الشاب الغنى

الجميل ؟ .. ولم تكن دولت ترى وسيلة أفعل فى التعجيل بالزواج من هذه الحماسة ومما توقعت أن يتلوها

واستقبل حيرى الدعابة فى رضى ونشوة . ولم يفكر فى قوارق كانت بينهما ورالت ، ولم يفكر فى الزواج وإنما فكر فى أشياء أخرى لا يستطيع أن يفكر فى غيرها .

وقالت دولت :

— لماذا تريد أن تقوم ؟ .. أنا لم أقصد إزعاجك .

كانت دولت تعلم الحديث الذى تريد أن تلقيه ، وكانت قد أعدته فأحسنت إعداده ، وكانت تجد فيه خير وسيلة تصل بها إلى ما تريد .

— عندى لك خبر يفرحك .

— خير ؟

— يسرى .

— ماله ؟!

— أصبح يغار على منك ، ويظل يقول لى لماذا تكلمين آبى حيرى وأنا لا ؟!

ثم أطلقت ضحكة عربيدة ولكن حيرى قال :

— هبه وماذا فعلت أنت ؟

— وماذا يمكن أن أفعل ؟ .. سكت طبعا فهو لم يقل شيئا أستطيع أن ألومه عليه .

— وهل يسرى فقط من يغار ؟

— من تقصد ؟

— محسن !

— آه !

وقلد حيرى صوتها قائلا :

— آه !

— لا ، محسن طيب وابن حلال .

وقال حيرى :

— أعلم أعلم ولكن هل هذا يمع ؟

فقالت دولت محاولة أن تغير مجرى الحديث :

— أنا والله لا أكاد أراه ... دائما فى الخارج ... ياه ... ما للحجرة حارة هكذا ؟

وكان فستانها ذا أزرار تمتد من أعلاه إلى أسفله ، فما لبثت أن أعفت زرين من قيدهما فبان نحتهما قميص حريرى وردى اللون تدور حول حافته قطعة من ندانتلا صنعتها يد لا بد أن تكون رقيقة حلوة ... وأدرك حيرى قيمة القميص فقال وعيبه لا تبارح ما انفرج من الفستان :

— حنو قميصك .

— إنه من ...

ثم قطعت الجملة لم تكملها ، وأدرك حيرى أنه من وهبة ، وأدرك أنها لم ترد أن تذكر اسمها فى لحظتهما تلك . وخافت هى أن يكون قد أدرك فأكملت بعد قليل وقالت :

— إنه من شبكوريل ... أيعجبك ؟

ثم أمسكت بحافة القميص ومالت عليه ، ولم ينظر إلى القميص وإنما نظر إلى ما بداخله ...

ولم يدر حيرى من أمر نفسه إلا ذراعين تحيطان بها ، وشفتين تستقران على شفتيها ، وعادت دولت فى نشوة القبلة هيهات ، ولكنها ما لبثت أن اعتدلت

وهي تقول .

— أخاف أن تأتي الحاجة ربيب .

وانتبه حيري إلى هذه الخاطرة فحشي معنتها هو أيضا ، ثم ما لبث أن قال وقد أطلق يده :

— نعم أنت محقة ... لقاؤنا هنا لا يجدي .

— أين إذن ؟

— اسمعي ... متى تستطيعين الخروج ؟

— وفيا أشاء ... أنت تدري أنهم يطلقون لي الحرية ... وأستطيع في أي وقت أن أطلب رؤية بيتنا وأخرج .

فقال حيري في نشوة :

— ونتقابل في الخارج ؟!

— وأبيت في الخارج !

— إذن سأعطيك عنوانا ونلتقي هناك غدا في الساعة الثامنة .

١٩

— اسمع يا بطل .. أنت تبحث لك عدا عن مكان نبيت فيه .
— ماذا ؟.. ماذا ؟.. نعم يا سي حيرى .
— نعم يا سي نجيب ... أكثر هذا عليك ؟
— لا يا حبيبي ، شرط المرافقة الموافقة .
— وما الذي يوافقك ؟
— بالنصف يا حبيبي .
— بعمرك .
— لماذا ؟.. هل وقعت من قمر الففة ؟.. ألم أعرفك بالعسالة وبالست ؟ وكنت عدا سأصحبك إلى حلسة لم تحلم بها في حياتك !
— ولو .
— أأنت جاد ؟
— كل الجد .
— ما المناسة ؟
— هذه شيء آخر .
— وما الآخر فيها يا حبيب الروح ؟
— أعرفها وأعرف أسرتها .

وكأنما تذكر حيرى شيئا كان غائبا عنه ، ولكنه ما لبث أن تناساه ثانية واستأنف حديثه :

— إنها لا تفشل ... وإن أردت الحق ... أنا أيضاً لا أفشل .

— طيب يا سي حبري سأنام في مكان آخر ، ولكن ستظل هذه الحكاية نقطة سوداء في تاريخ حياتك ... لن أنساها لك العمر كله

— لا عليك ... أعوضها لك .

— تعوضها ؟... ومن أين ؟... إنك نطلق هادئاً كالباشا حتى يتقدم إليك خادمك الذى هو أنا برعاتك ... وحين استضعت مرة فى العمر أن نصل إلى شيء وحدك نطردنى من البيت ... طيب يا سي حبري ... نترك البيت ... أمرك يا سلطان الزمان ... سلطان طماع أناني

— اعقل يا عجيب ، قلت لك هذه شيء آخر .

— وطبعاً ستصبح المسألة عادة وأضطر أنا فى كل ليلة أن أبحث عن صديق يبيتنى عنده ، وأصير مشرداً وأنا صاحب البيت .

— لا ... لا تخف . غداً فقط ... وبعد ذلك سأطردك مدة ساعات فقط ونعود .

— عظيم .. عظيم يا حبري لك .

— أين ستبيت غداً ؟

— وهل أعلم ؟

— قل لى وحياة والدك أين ستبيت ؟.. أنا مستعد يا سيدى أن أدفع لك أجر اللوكاندة .

— سميراميس .

— نبيل .

— أين تريدها إذن ؟.. فى سيدنا الحسين ؟؟

— ألا نستبدل بسميراميس إلا سيدنا الحسين ؟.. اسمع ... هى عشرون

قرشا ونصرف أنت .

— لا يا سيدى رد العشرين عمرينا على نفسك . ستسمعنا بعد غد فى السهرة التى أحدثك عنها .

— إذن فأين تبيت ؟

— ما شأنك أنت ؟

— عند حالتك .

— وكيف عرفت ؟

— وهل لك صدر حنون إلا هى ؟.. تذهب إليها وتدعى الزيارة ، وتطمع المطور ...

— يا سيدى هذه الإجراءات تتخذ عند الفقر فقط ... أما الآن فأنا فى أول الشهر والأشيا معدن والحمد لله .

— وماذا تخسر ؟.. اعملها مرة وأنت عنى ، لعلك بهذا تخدع حالتك وتجعلها تظن أنك تزورها من أجل الزيارة لا من أجل الفقر .

— أمرك يا سيدى ... نعملها .

* * *

إنها نعيبنى عن العسالة والست والجميع ، وأين هذه الأجسام القديمة التى تقلبت فأكثرت التقلب من هذا القوام الرائع ... ثديها ... شعرها ... كل شيء فيها جميل جديد طازج يصرح منه الشباب ويثور ... وهى لى وحدى بلا شريك .. وهى تحبنى وإلى .. ماذا هل أحبها ؟.. ألا بد من الحب ؟.. لقد حدث من الحب حظى فكان حظا عاثرا ؟.. أكان عاثرا ؟.. ألم أطلق على أمانى هذا الوحش الذى يكمن فى ذاتى وأسميه ضميرا أو أسميه مثلا أو أسميه كبرياء ؟.. وهو وحش يلتهم الآمال ويحطم الحياة ويدمر الأحلام ... مالى أذكر هذا

الآن ؟ . أسمع في نفسي من ذلك الوحش همسا ... أله في شأن الآن ؟.. أم يتسلط على بهذا الطيف حتى حرمت نفسي من حبي وساهرت وفية وبقيت ؟ ماذا يريد مني الآن ؟ ما هذه الخرافة التي يديرها في نفسي منذ الأمس ؟ نعم أعلم أنها أخت حامد أفندي ، وأعلم أن حامد أفندي قال إنه يعتبرني أخا له ، ولكن ما هذا وما نحن فيه الآن ؟ . دولت فتاة فاترة إن لم أكن أنا مقصرها إلى غيري ... وهل يعتبرني حامد أخا له حقا ؟ أم هو تعبير ألف الناس أن يقولوه في سهولة ويسر ، وإذا صدقت كل من قال إنه أخي أو قال إنه أبي أو أمي لأصبح كل من أعرف يتصل بي بهذه الآصرة القوية .

وعرفت ماشا ألم يقل إنه كأبي ، فكيف كنت سأتزوج ابنته ؟.. ما أصدق الشاعر :

دعتني أخاها أم عمرو ولم أكن أخاها ولم أرضع لها بلبان
دعتني أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يفعل الأخوان

هل أنا أخو دولت ؟ نعم قال أخوها إنه يعتمد على في رعاية أمرهم . ولكن أكان يقصد ما يقول أم هي عبارة يلقيها بعض الناس إلى بعض ليظهروا مقدار ثقتهم وحبهم لبعضهم البعض ؟.. نعم أعترف أنه يحبني وما البأس في ذلك ؟.. وأخته أيضا تحبني وأنا ... أعجب بها ... ألا بد من الحب في هذا الذي أقدم عليه ؟.. ألا بد من تفكير كهذا الآن ؟. إنها قادمة .. بقوامها الحلو وقميصها الوردي .. قميص وفية ... أتلبسه اليوم ؟ لا أدري ... إن كانت عرفت أني أدركت أنه قميص وفيه أتراها تلبسه ؟.. سترى مقدار ذكائي . لا شك أن عيني أظهرت لها أنني أدركت .. ترى أتلبسه اليوم ؟.. وماذا تلبس غيره ؟.. وأين ها غيره ؟.. من مرتبها الضئيل أم من أخيها حامد ؟.. رجعنا إلى حامد .. أي شيطان يرسل به إلى ذهني كلما نسيته ؟.. هل نسيته ؟.. لا بد أن أنساه ... ألا

يستطيع جمال دولت الصارخ أن يطغى عليه ؟ ألا يستطيع فمها العذب ؟... دولت ... دولت .

وطرق الباب فى همس ، وقام حيرى إليه مسرعا ، ودخلت دولت ... وأسرعت تقفل الباب وترد رتاجه وتسأل لاهثة :

— متأكد أننا وحدنا ؟

ولف ذراعه حول خصرها قائلا .

— طبعا ... تعالى وانظرى بعينك .

— لمن هذه الشقة ؟

— لصديق لى طلبت إليه أن يتركها الليلة

وكانت دولت قد بلغت حجرة النوم وهى تقول :

— صحيح ؟

— ما هذا الفستان الأنيق ؟

كان فستان دولت من الحرير الأخضر ... ولو حكم حيرى ذوقه لما رآه أنيقا حال من الأحوال فهو رخيص الصنع من هذا النوع الذى تلبسه متوسطات الحال فى أيام العيد . وقد كانت دولت تستطيع أن تختار خيرا منه ولكنها ما كانت لتفعل ، فكل ما يفضله عندها من ملابس وقية ، ولم تكن تحب أن تلبس شيئا لوقية فى يومها هذا ... وقدرت أنها غاليا ستستعيض عن الفستان ، وقدرت أيضا أن جمالها يعمر كل عيب فيما تلبس ... أدركت دولت أنه يريد أن يبدأ حديثا ليس إلا ، فهى تعلم أن الفستان ليس خليقا برضائه ... قالت :

— أيعجبك ؟

— طبعا ...

وقالت فى دلال وهى تجلس إلى الأريكة ذات المساند والوسائد -

— هو أم القميص ؟

— كلاهما ... أما ما يعجبني أكثر منهما فهو ..

ونظر إلى نهديها فقالت :

— هبه ؟

— ما تخنهما .

— لا أفهم ؟

— أقصد هذا .

ولم تجعل يده سبيلا لها ألا تفهم ، فقالت :

— على مهلك ... انتظر .

ولم يتمهل أو ينتظر ، وإنما راح يفك أزرار الفستان وهي تقول في دلال :

— ستقطع الزر ... انتظر ... اسمع ... لا شأن لك بملابسي ...

وفهم خيري ما تقصد ، وما هي إلا لحظات حتى كان كلاهما عاريا !

وطالع خيري جسمها لأول مرة متألقا كالصباح الوليد ، رائعا صافيا مترقرقا كماء الشباب ، وعلى فمها ابتسامة حائرة بين النشوة والخجل . انسدل شعرها على كتفيها كاد يعدو على صدرها ، فمد إليه خيري يدا مرتعشة فأزاحه إلى ظهرها كرسام يهيئ النموذج الذي سينقل عنه ، وراح ينظر إليه ثانية مبهورا متلاحق الأنفاس حباش الحلمات معجبا حائرا مذهولا ... قبلها جميعا ثم طواها في أحضانه ... حامد ... ما هذا ؟.. أي طيف هذا الذي يدور برأسه ؟.. أهمله وعاد يقبلها في جنون ... في ثورة عارمة فيها من الاصطناع ما يحاول به أن يبعث هذا الطيف الذي لم يجد وقتا آخر إلا هذا ليلح على تفكيره ... حامد ... وما شأني به ؟ وعاد يقبلها في جنون أشد وفي ثورة أكثر جموحا .

ولكن ... حامد ... نط في رأسه تعلو مع جنونه فتطغى على جنونه ، وتصرخ

مع ثورته فتتداعى لها ثورته .. وحاول حيرى ثانية وثالثة وعشرا ولكن حامد تخذله في كل مرة ، ودولت دهشة حاهلة داهلة ... ماذا به ؟.. ما هذا الومض الذى يبرق فى عينيه ؟ ما هذه الثورة التى يفتعلها ؟.. ماذا به ؟..

استلقى حيرى على الأريكة وأدار وجهه إلى الحائط وراح يضرب الوسادة بقبضته قائلا :

— حامد ... حامد ... حامد ... حامد .

وأطرقت دولت ثم قامت إلى ثيابها ، وحين استدار حيرى ليواجه هزيمته كانت دولت قد تركت البيت جميعه .

أسرع حيرى إلى ملابسه فارتداها ونزل إلى الطريق ، وحين مر بشقة صاحب البيت وجد الرجل العجوز يدلف إلى شقته ، ووجد زوجته تستقبله ، ورأى فى عينيها شيئا لم يفهمه ولكنه واثق أنه رآه . ولم يعر الأمر كثير تفكير بل سارع إلى الطريق ، وما وقع له فى ليلته لا يزال يسيطر على كيانه فيشعر بالعجز والأسى ... من أدرانى أن حامد هو السبب .. لعله ستار تختفى من ورائه خيبتى وقلة حيلتى .. إنها المرة الأولى التى التقى فيها بهذا الخذلان ... ولعلى لا ألتقى بعد ذلك إلا بالخذلان ... دولت التى تفتش العابد يمضى عنها تفكيرى فى حامد .. حامد .. أى مصيبة .

كان يعرف طريقه ... وقف بباب حالة نجيب وطرق الباب ، وأجابت الخالة طرقه وكانت تعرفه ... سألها فى لهفة عن نجيب ، وكان نجيب بمسمع فحرج إليه :

— حير يا حيرى ؟

وقال حيرى فى لهفته ما يزال :

— حير ... استأذن من خالتك وتعال .

— ماذا ؟

— سنسهر معا الليلة .

— ماذا حصل ؟

— اذهب يا خيب مع صاحبك ولا تكثر الأسئلة .. وسأنتظرك حتى تعود

وقال حيرى :

— والله — إذا سمحت — اتركى خيب يبيت معى الليلة .

وقال خيب :

— تسمحين يا حالتى .

— ما تراه يا اسى .

ودون أن يحيى واحد منهما السيدة الطيبة هبطا السلم جريا ، وما إن بلغا الشارع حتى حاولت كلمة استفهام أن تصدر عن خيب ، ولكن حيرى لم يدع لها مجالا فقد راح يقص على صديقه ما وقع له . ولم يعقب خيب بشىء إلا :

— يا حبيبك !!

— المهم ...

— ماذا ؟

— أتعرف طريق الغسالة ؟

— الست أقرب .

— السك زوجها فى البيت .

— إذن ..

— ألم تقل إنك كنت تريد أن تذهب بى إلى سهرة ؟

— والله فكرة . . معك فلوس ؟

— كم تريد ؟

ــ كم في جيبك ؟

ــ جنيه تقريبا .

ــ نعمة هيا بنا .

* * *

في مصر الجديدة وفي بيت أنيق ولج محجوب يتبعه خيري ، وحين هم محجوب بالصعود قال خيري :

ــ الله يخرب بيتك ... إلى أين ؟

ــ وأنت مالك ... اطلع ... اسمع ... لا تنطق أنت بشيء .

ــ أمرك .

ــ وعلى باب شقة في الدور الثاني وقف محجوب ودق الجرس ووقف خيري من ورائه ذاهلا دهشا حائقا متشوقا معكرا في كل شيء . وأجاب الجرس رجل مهيب الطلعة ذو شاربين أبيضين وخطهما الشيب وقامة مديدة وقوام ممشوق لم تعد عليه السن ، وقال الرجل وهو يطل من صلفة الباب :

ــ من ؟

وأوشك خيري في سرعة خاطر أن يسأل عن اسم وهمي يعلل به مجيئهما ثم ينصرف ، وكأنه أخطأ في العنوان ، ولكن محجوب سارع يقول :

ــ أنا يا عمي .

ــ أهلا ... كيف أنت يا سي ...؟

وقال محجوب :

ــ محجوب ... محجوب يا عمي ... قد جئت في الأمس مع صلاح .

ــ نعم ... نعم ... أذكرك يا بني تماما ... ادخل يا محجوب .

وقال محجوب :

— الأستاذ حيرى صديقي .

— أهلا ... تفضلا

وتقدمهما الرجل الكبير إلى غرفة الجلوس ، وهم حيرى أن يقول شيئا ولكن نجيب وضع سبابته أمام شفتيه وهو يقول :

— هس .

فدخل نجيب إلى البهو .. وراعه أول ما راعه سيفان على الحائط يحيطان بصورة الرجل الذى لقيهما وقد بدا فى الصورة أعظم منظرا وأشد هيبة . ورأى تحت السيفين مسدسين قديمين كفوسين حول أسفل الصورة ، ثم لم يجد سعة من الوقت ليرى شيئا آخر فقد وجد نفسه مسحوبا إلى غرفة على شيء من الأناقة عرف أنها غرفة الجلوس .

وقعد الثلاثة ودار بينهم الحديث ولكن قليلا ما دار ، فقد قطعه نجيب —

— الهوانم هنا ؟

وقال الرجل فى وقار :

— أخواتك هنا ...

ثم نادى :

— يا ليلى ... يا يسرية .

وأقبلت فتاتان ، إحداهما شقراء الشعر حمراء العينين ناصعة البشرة وإن شاب بياضها قليل من الغمش لا يعيب جمالها ، والثانية سمراء ممشوقة القوام سوداء شعر ، وكان فى كليتهما عزة لا توحى برخص . وأقامت الفتاتان قليلا ، وخرجتا بعد حديث قصير تناول الجو ومصر الجديدة والمواصلات . ولحق بهما نجيب ، وقال حيرى :

— ما هذا ؟

(ثم تشرق الشمس)

— وما شأنك ؟.. أيهما تختار ؟

— ممن ؟

— ليلى أم بسرية ؟

— أهما ...؟

— نعم .

— كان يقول : أختك !!

— كلام .

— كلام ؟! أليس أباهما ؟!

— نعم .

— ويقول : أختك !!. ونقول : يا عمى !!

— يا سيدى كلام ... أنا لم أعرف العائلة إلا أمس ... يا أخى لا تضيع الوقت .

وفكر خيرى فى كلمة الأخوة التى قدسها ، ورجع به ذهنه إلى دولت ولكن جيب سارع يقول :

— انطق .

وعاد بذهنه إلى ما هو فيه ... لقد كان يريد الشفراء فهو يحب الشفراوات ، ولكن الآن ... فى هذه اللحظة يريد السمراء ... إنها سمراء كدولت .. كدولت فى سمارها على الأقل ... قال دون أن يحس :

— السمراء .

— تترك ثلاثين قرشا فى الحجرة ...

ودخل الرجل ... العم ... وجلس ثانية ، وبدأ حديثا عن الجامع الذى يقوم بجمع المال له ، لأن مصر الجديدة تكاد تخلو من الجوامع ، وقال نجيب :

— هذا مشروع عظيم يا عمى .. أتسمح أن أساهم فيه ؟

— بكل سرور يا بنى .

— عشرة قروش تكفى ؟

— عظيم ... كله لله .

وسارع حيرى يقول :

— تسمح لى أنا أيضا ؟

— تشكر يا بنى ، أنت ابن حلال .

ونادى صوت من الخارج :

— نجيب ... أريدك كلمة .

وقام نجيب وهو يقول :

— عن إذنك يا عمى ... تعال يا حيرى لترى الشقة :

وقام حيرى وهو يقول :

— تسمح لى يا ...

وكاد لسانه يقول عمى حيرى على عادة البيت وزائريه ، ولكنه وقف عن يقول فى اللحظة الأخيرة :

— يا بك .

وقال البك :

— تفضل يا بنى ... شف فيما نريدك أختك .

وطنت أختك فى إذن حيرى ، ولكنه ما لبث أن صحك منها فى نفسه ساخرا !!

* * *

عاد حيرى مطمئنا إلى بيت نجيب ، فما كان يستطيع أن يعود إلى بيته بعد أن

أخبر أمه فى الصباح أنه سيبيت ليلته عند نجيب ليذاكر ... كان إذ ذاك يفكر فى ليلة مع دولت فأصبحت ليلة مع يسرية .. أهناك فرق ؟.. هذه أخته وهذه أخته ... ترى لو عادت إليه دولت ... لا ... كلهن إلا دولت ... إنه يعرف حامد وبينهما صلات قوية ... الأخوة مع حامد مشفوعة بصداقة وبأستذة من حامد وبمعروف قدمه هو لحامد ... وحامد هو من عرفه بأخته وهو من أوصاه بها ، وإن تكن دولت سهلة المنال إلا أنها ليست مثل يسرية ولا ليلى تباع لكل من يشترى ... نعم هناك فرق ... إذن فهو الضمير ... ملعون أبو الضمير ومن عرف الضمير ... النهاية ... سليمة ... على كل حال هكذا أحسن .. بلغ الصديقان البيت وأذان الفجر يعلو ... فقال كل منهما فى نفسه : إن الله غفور رحيم ... ثم لم يعقب أحدهما على الأذان بكلمة ... أطرق كل منهما فى صمت وراحا يصعدان السلم ، وبلغا شقة صاحب البيت فوجداه خارجا وقد التف بعباءة وراح يتمتم مسبحا فى طريقه إلى صلاة الفجر فى الجامع . وقال نجيب :

— حرما مقدما يا عم عبد الباقى أفندى .

ولكن عبد الباقى أفندى قال فى حزم :

— يا سى نجيب أنا لا أقبل هذه الأمور فى بيتى أبدا ... أنا مضطر أن أطلب منك أن تترك الشقة .

— ماذا ؟... لماذا يا عم عبد الباقى أفندى ؟ كفى الله الشر !!

— اسأل صديقك ... اسأله عن البنت المايعة التى كانت عنده الليلة ... لقد رأتها زوجتى .

وسارع حيرى قائلا :

— من ؟... أنا ؟.. رأت ...

وقبل أن يكمل الجملة سارع نجيب يقاطعه :

— أبداً ... أبداً يا عم عبد الباق أفندى ... لا بد أن الست أحطأت السطر ... لم يأت لصديقى إلا صديقنا صلاح ... أحيانا يحرج من عبر طربوش .

— من عير طربوش ؟.. أهذا كلام يا سى !!. أيمكن أن تخطىء روحتى بين رجل وامرأة ؟.. لا يا سى ... أرجوك أن تبحث عن مكان من أول الشهر .

وأطرق نجيب منظاهراً بالأسف وقال :

— أمرك يا عم عبد الباق أفندى .

وحاول حبرى أن يتكلم ولكن نجيب أمسك بيده حمية فسكت ثم نوجها إلى السلم يكملان صعوده ، ولكنهما لم يكادا حتى أوقف نجيب حبرى مرة أخرى ممسكا بذراعه دون أن يحادثه ، ومال نجيب على الدرابزين ونظر إلى الباب الخارجى حتى إذا اطمئن إلى خروج عبد الباق أفندى قال لحبرى :

— تعال .

وفهم حبرى ما يريده صديقه فنزل وراءه وهو يقول :

— المقابلة الشريفة الوحيدة التى نتم فى بيته يكون هذا جزاؤها .

وقال نجيب :

— اسكت ... تعال .

ودحلا شقة عبد الباق أفندى ولاقتهما الست .

ولم يترك نجيب البيت أول الشهر ، ولم يطلب إليه عبد الباق أفندى إلا شيئا واحدا هو أن يقبل اعتذاره ... وقبله ..

٢٠

لم يستطع خيرى أن ينجح فى عامه هذا واستطاع نجيب . ويئس خيرى من المذاكرة يأسا تاما ولم يحاول أن يعيد إلى ذهنه فكرة المذاكرة مرة أخرى ، وطمأن نفسه أن مستقبله معلق بمستقبل يسرى ونادية . ولم يخذل يسرى أخاه فقد كان يسير فى تعليمه سيرا طيبا فلم يرسب ، وكانت نادية أيضا تسير فى تعليمها سيرا مرضيا ، ولم يخف على سميرة هانم ولا على خيرى ما جد على الطفلين من تغيير ، فيسرى قد أصبح ذا وجه احتفى صفاؤه نحت ثائر من الحبوب الحمراء ، يخرج صوته خشنا لا نعومة فيه ولا براعة ، تتقلب عيناه عابرة الرجال مستفزة على النساء ... أى نساء ، داهلا أغلب الأحيان ... حائرا عجلا إلى كل أمر لا يستقر به من القلق حال .

ونادية أيضا لم يعفها الزمان من بوادر أنوثة ، فوجهها يسارع إلى الاحمرار ، وتنحنى عن أخويها إذا بدلت ملابسها ، ولكنها لم تكن بعد قد وصلت إلى السن التى تشعلها فيها محاسنها ... بوادر لا أكثر .

بل تنقطع الصلة بين خيرى ونجيب بل استمرت دون تظاهر بالمذاكرة ، فعرفا الحانات معا ، وعرفا الكثيرات من مثيلات ليلى ويسرية ، وأصبحت هذه الأمور بالنسبة إليهما جزءا من حياتيهما . ولم يفقدا من متعتهما الأولى إلا الدهشة التى كانت تداخلهما كلما التقيا بجديد ... فقد أصبحا لا يلتقيان بالجديد إلا نادرا يندر كلما مرت الأيام ، وكان خيرى يعمل فى إصرار على ألا يشاركهما محسن فى هذه الخولات ، فما كان يحب أن ينفق أكثر مما يستطيع أن ينفق ، وما

كان يجب أن يصحبهما محسن فى أمكنة قد لا يراها جديرة بمعاه أو قد يرى نفسه متواضعا حين يرودها . فالتواضع صفة لا يرضى خيرى أن يصطنعها له أحد . مكان واحد كان يرافقه إليه محسن هو المسرح ، فثمن التذكرة واحد بالنسبة لكليهما ، وجميعهم يهوى المسرح ويرى فيه متعة روحية ينعم بها فترات من الوقت طويلة ، تطول إلى ما بعد مشاهدة الرواية بأيام وقد تصل إلى أسابيع ، ثم تظل ذكرى الرواية ما وعت الذاكرة .

وهكذا أبقى صلته مع محسن مقصورة على الزيارات المنزلية ، ولم تكن زياراته قليلة ولا كانت زيارات محسن ، وعلى زيارات المسرح ولم تكن هى أيضا قليلة ، فما كانوا يشاهدون الرواية مرة واحدة ولا اثنتين .

وظلت دولت تعمل فى بيت عزت باشا وظلت على رغم أنفها عفيفة ... فمحسن يصدف عنها إكراما لمكانها فى البيت ، وهى لا تبذل فى سبيل احتذابه إليها أية محاولة فقد كانت تدرك الفارق بينها ، وكان إدراكها هذا يمحو مطامعها ويقضى عليها قبل أن تحاول الظهور .

وماتت أمها فلم يبق لها إلا هذا البيت ، وعدل عزت باشا نهائيا عن فكرة إبعادها ، واطمأن لما كشف بعينه الواعية انعدام الصلة بينها وبين محسن . ولم يحضر حامد وفاة أمه فقام عنه خيرى ومحسن بكل الأعباء وأرسلا يعزيانه ، واكتفى هو بخطاب أرسله إلى أخته ، وببعض خطابات أخرى أرسلها إلى الباشا ومحسن وخيرى ، ولم ينس يسرى فقد كان دائما يقدر أنه هو صاحب الفضل الأول عليه ، وأنه عن طريقه استطاع أن يصل إلى عزت بك الذى أصبح باشا ، ثم إلى هذه البعثة وإلى ذلك المستقبل الذى ينتظر عودته .

وقد حصل حامد على الدكتوراه ، ولكن وفاة أمه واطمئنانه إلى مكان دولت جعلاه يطلب مد البعثة لينال شهادات أخرى . وكان عزت باشا وزيرا فأجيب

طفله .

واستطاعت فايزة أن تنتفع بهذه المعلومات القليلة التي كانت قد تعلمتها قبل أن تصاب ، فتمكنت أن تتغلب على البله بالقراءة فقرأت ولم تكن تفعل شيئا إلا أن تقرأ ... وهل يمكن أن تفعل شيئا ؟.. قراءة تستريح منها بالسينما وتستعين هناك بالقراءة أيضا ... كانت تقرأ ترجمة الحوار التي كانت تكتب إلى جانب الشاشة على شاشة أخرى صغيرة ، وكان رأسها يظل رائحا غاديا بين الشاشتين ، ولكنها كانت تستمتع بما تشاهد . ولم تفكر بطبيعة الحال كما لم يفكر أهلوها أن تذهب إلى أفلام مصرية ناطقة ، فما كانت هناك شاشة صغيرة تستعين بها . فإن كان لا بد من فيلم مصرى فصامت ... كحياتها ... كأذانها ، واستطاعت أن تضحك من النكتة المكتوبة ، واستطاعت أن تلقى من قلبها إشراقا بريئا صنعته لنفسها من ثقافتها ومن قلبها الغض ومن عطف المحيطين بها ومن حبهم .

وجرت الحياة شبه رخاء لعزت باشا فاشترك في الوزارة عدة مرات ، وحصلت مصر على المعاهدة ، وكان من الذين يرون فيها خطوة إلى الاستقلال وليست الاستقلال جميعا . وحاول عزت باشا أن يصرف كثيرا من جهده ووقته لإسعاد زوجته ، وتقبلت إجلال محاولاته في شكر وتقدير ، فكان لا ينى عن طمأنتها على وفية فقد كانت الأنباء تصل إليه دائما عنها ، وكانت أنباء يرتاح لها فؤاده وفؤاد زوجته . وكانا يكتمان هذه الأنباء لفايزة فتمرح وتظهر فرحها في براءة حيية . وكانت وفية تأتي إليهما في كل عام ، بل كانت تأتي إليهما خلال العام مرات ، فقد كان لها من كياسة زوجها وغناه ما يهيئ لها هذا المجيء كلما شاءت .

وكان حبري يحرص على أن يراها مرة عند محيئها ومرة قبل ذهابها ، وكان اللقاء يثير بعض ذكريات ما تلبث أن تصطدم بالواقع ، فتذوب مع الزمان الماضي الذى اسعلت منه .

وكان محسن يسير فى طريقه المرسوم عابثا حادا ، ناجحا فى دروسه ، ناجحا فى معامراته ، وإن حد عليه شىء فهذا الاهتمام المفاحىء بأعمال أبيه السياسية ، وبالحرب والصراع بينه وبين الأحزاب الأخرى . ولكن اهتمامه لم ينل من حق دراسته أو من الحقوق الأخرى التى ينيحها لشبابه ، ولم يكن لهوه جميعا نساء وخمرا بل كان كإخوانه يستمتع بنفسه بكل شىء ؛ وصاحب المتعة عنده كثيرة ، فهو يحب المسرح ، ويحب الأدب ، ويطرب للشعر ويسعى إلى مجالسه ، ويمتشى للعاء ، ويهفو للنكتة ، ويعطى إليها مهما تكن حافية . الحياة جميعها رفيقة الأستار أمام عينيه بأعبائها ولهوها ، بجدها وهزلها ، بوقارها الذى تفرضه عليه ، وبعربدته التى يفرضها هو عليها ، يحب من حوله ويبذل جهده ليحبوه ، ويحب الحياة ويبذل جهده أن تحبه الحياة . وحين أقبلت بوادر الحرب استقبلوها فى اهتمام ساخر فقد عرفوا أنى يقصدون لياليهم . ولم يمسهم النور المحبوس داخل الححرات أن ينعموا وإن حرموا بعض المتع ، فقد استطاعت نفوسهم المرتاحة الهادئة أن نقبل الحرمان فى نكتة أو ضحكة أو نعيسة واهنة ما تلبث أن نزول فى متعة أخرى — مهما تكن هذه المتعة — هى النقاش حول تطورات الموقف الحربى ، وحول أفضلية الألمان على الإنجليز أو أفضلية الإنجليز على الألمان على أن النقاش لم يكن فى يوم عنيفا فقد كان الساسة يكرهون الإنجليز ، وكان كره المستعمر معروسا فى النفوس شب معها وكبر ، فكان الرأى العام يكاد يتجه بكله إلى رجاء هزيمة الإنجليز بمجرد الانتقام منهم لا بمكرهة أخرى ؛ لا يقف رجاؤهم هذا عند حد إلا إذا ذكر أحدهم الآخر بأن الألمان قد يكونون شرا فى

استعمارهم من الإنجليز ، وأننا قد تبدأ عهدا جديدا من استعمار جديد يحتاج إلى بدء مفاوضات أخرى كانت قد وصلت إلى معاهدة الشرف والاستقلال ، وما كانت شيئا قليلا . وعندما تبدو هذه الحجج في أثناء النقاش تتحه رغبة الانتقام المطلقة عن العاطفة إلى التفكير .. بعض التفكير ، وينتهي النقاش على غير هزيمة أو انتصار .

٢١

أوغلت الحرب فلم تعف أحدا ، ولم يستطع أحد مهما يتح له من اطمئنان أن يباعد ما بينه وبينها .

فقد عادت وفية إلى مصر تحمل طفلها عزت جميل ، ولعلك مدرك من تسميتها لابنها أنها أثيرة عند زوجها بحانة الرجاء عنده يبذل غاية جهده لإرضائها ، فهو يسمى ابنهما باسم أبيها ولا يسميه باسم أبيه . ولعلك مدرك أيضا أنها سعت مع الأيام ، فحبها القديم في نفسها آثار ، وابنها اسما أرسلته إليها السماء الكبيرة فترى في ابتسامته ابتسامة الأيام ، وترى في طلعته اعتذارا عن حب كبير لم تتحقق آمالها فيه . ولعلك مدرك من وجود هذا الابن أن الزواج أثمر ، وأن قلبي الزوجين قد التقيا على ولدهما . وإني مطمئنك أيضا أنهما التقيا على تلك الصداقة الحبيبة التي ينشأ في ظلالها الحب الرقيق الناعم العميق ، تزيده المعاشرة اطمئنانا وتزيده الأيام توثقا ؛ ذلك الحب الذي يولد صغيرا كالطفل ويتغذى من الود والوفاق فينمو مع الأيام الطوال ، ويستطيع مع هذه الأيام أن يمد جذوره في حياة الزوجين فيثبت قويا على الأعاصير والعواصف مهما يكن

هومها من ماس حياتها ماضوية ، أو من جهل الزوجين كليهما بالآخر قبل الزواج . اطمأنت الحياة بالزوجين ونبت فيها العطف المزدهر والود الوثيق . وحين عادت وفية إلى بيت أبيها كان حبوي يلقاها وتتصافح مهما الأيدي وتثب بين الذهن خيالات من الماضي فلا تجد في نفسيهما إلا حبا دارسا أصبح صداقة وطيدة يحميها الإكبار والإعجاب ، والذكريات والأمنيات المنعمة برخاء السعادة والرغد والنجاح في الحياة .

وعاد الدكتور حامد عبد الكريم ... وما هو إلا حين السعي حتى عين بكلية التجارة مدرسا للجغرافية الاقتصادية . ولم تعد دولت لتعيش مع أخيها فهو قد تعود الحياة فردا ، وأحب هذه العادة التي اكتسبها من لندن كما أحب العادات الأخرى التي يعود بها أغلب العائدين من هناك . ولم ينس الدكتور حامد عادة من تلك العادات بل صحبها جميعا من بلادها إلى مصر ، ودعمها بعاداته التي نبتت معه في مصر ؛ فهو ما يزال بطيء المشية عظيمها ، نبيل اللفتات متكبر البسمات . وعلى الرغم من أن الفقر كان مصدر هذه العادات ، وعلى الرغم من أنه ترك الفقر واطمأن إلى عدم عودته إليه ، إلا أنه لم يترك من عاداته عادة الانفراد وعادة البخل وكلتاهما تعينه على دولت أي غناء ، واستطاع أن يحمل ويشتد بخله فلا يترك استغناءه عن دولت يمر دون أن يستغله أحسن استغلال .

تظاهر لعرت باشا أنه يترك أخته إكراما لخاطره وخاطر فايزة التي أصبحت لا تستغني عنها ، وأظهر أيضا أنه يقبل هذا عن طيب نفس مهما يكن من هذا الترك من متاعب ستلاقيه بها وحدته وانفراده . وكان شكر الباشا واضحا في سعيه حثيث ، وكانت الثمار دانية عن قريب في تعيين الدكتور بكلية التجارة .

لم ينس حامد وفاءه للبيت الذي حقق له هذه الآمال ، وقد آلمه ما حاق به . ولكنه حين رأى الكارثة قديمة أخفى ألمه ، وأبدى وفاءه في اهتمامه بيسري

وإصراره أن يلحقه بكلية التجارة ما دام غير راغب فى كلية تعبها . والنحق يسرى بكلية التجارة ، وظل حامد يرعى أمره رعاية مخلصة وفية .

أما حيرى فقد واجه الحرب هادئا لم يشغله إلا علاء الحاجات ، ولكنه اطمأن حين وجد محصولات أرضهم تغلو هى أيضا فتواجه العلاء . وحين جاءت علاوات الحرب ازداد طمأنينة ، وسار حياته كما كان يسيرها هادئا واثقا مرتاح النفس والضمير .

وأحس محسن من الحرب الطلام المفروض الذى حد من غرواته المسائية ، وترك لأبيه جميع الأعباء الأخرى ، وترك له أيضا — بطبيعة الحال — المكاسب الكبرى التى أغدقتها الحرب على أصحاب الأرض .

واجه الجميع الحرب مرغمين غير راضين ، شأنهم فى ذلك شأن العالم أجمع . واختلف تأثر كل منهم عن الآخر شأنهم فى ذلك أيضا شأن سكان العالم أجمعين .

٢٢

فرغت سميرة هانم من صلاة الظهر ، ولم تقم عن السجادة بل ظلت فى مكانها تسبح بعض الوقت ، ثم نظرت إلى نادية التى كانت جالسة إلى جانب السجادة على الأريكة التى ظلت عمرها فى حجرة سميرة هانم ، وصحبتها من بيتهم القديم إلى شقتهم . وقالت سميرة هانم :

— لماذا لم تلبسى يا نادية ؟

— سألبس حالا يا بيتا .

— قومى يا بنتى لتذهب وتعود قبل الليل والعارات .

— حالا ... أبى خيرى سيذهب معا ؟

— طبعا ... ألم يلبس هو أيضا ؟

— إنه لابس لم يخلع .

— ويسرى ؟

— لا يريد الذهاب .

— لماذا ؟

— لا أدرى .

— نادية واذهبى أنت لتلبسى .

وخرجت نادية وعندما تركت الباب نادت :

— يسرى .

وأجاب خيرى ظانا أنه هو المطلوب :

— نعم .

— نيما تريدك .

وقصدت نادية إلى حجرتها تبدل ملابسها ، وقصد خيرى إلى حجرة أمه يسألها :

— تريدينى يا بنا ؟

— لا يا ابنى ناد لى يسرى .

— أتريدينه فى شىء ؟

— ناده وايق معنا .

وحين جاء يسرى بدأته أمه :

— ماذا يا يسرى ؟!

— ماذا يا بنا ؟!

— ما معنى مقاطعتك لبيت عمك عزت ؟

— لا شىء .

— لا بد من شىء ... يا ابنى منذ مات أبوك لم يعد أحدا مثل عزت باشا ... وقف إلى جانبنا فى أيام الشدة ، وما من طلب طلبناه منه إلا سارع بتلبيته ، فهل أقل من أن نزوره ونسأل عنه ؟

وقال يسرى فى بوادر غضب :

— أنا لا أعرف لأحد فضلا علينا .

وضاق خيرى بهذه الإجابة ولكنه كظم ضيقه ، وقالت الأم :

— أبدا ؟

وقال يسرى فى إصرار :

— أبدا .

وقال خيرى :

— يا أختى لا تنس فضل الله على الأقل .

وقال يسرى فى ثورة :

— ولا الله .

وهتت الأم قائلة :

— ماذا ... ماذا قلت ؟

وقال خيرى :

— لا تهتمى يا نينا ... لا تخافى ... إنها موجة فى هذه الأيام ... ولكنها كلام لا يدل على ما فى القلب .

وقالت الأم :

— إنه كافر يا خيرى ... كافر ...

وسكت يسرى مأخوذا من ثورتها ، وقال خيرى محاولا أن يهدىء أمه :

— أبدا يا نينا ... أبدا ... إنه لا يقصد .

واتجهت الأم إلى يسرى قائلة :

— أتنسى فضل الله ... الله الذى جعل لك هذا الأخ الذى قام بأمرك وحرم نفسه من التعليم لأجلك ... تنسى فضله ... إلى أى مصير كنت تلقى بغير أخيك ؟.. أليس له فضل عليك ؟

واستأنف يسرى صمته فى تخاذل ، وقال خيرى محاولا أن يخرج أخاه مما أوقع نفسه فيه :

— يا أخى ما هذا جميعه ولنذهب إلى بيت عزت باشا ؟

وكأنما أثار هذا الاسم ثائرا فى نفس يسرى كان قد أوشك أن يهدأ .

— يا أخى لا أريد ... أهو مفروض على أن أذهب ؟.. هل أنا أسير

عدكم ؟.. لا أريد ... لا أريد .

وقالت الأم في حدة :

— ولد ... ما هذه اللهجة التي تتكلم بها ... أحسنت ؟

وقال خيري مصطنعا الهدوء لا يزال :

— أليس لاحجامك هذا سبب ؟

وقالت الأم :

— عظمة ... واحد عظيم ليس لأحد فضل عليه .

وقال يسري دون أن يلتفت إلى سخرية أمه مستأنفا ثورته موجها حديثه إلى أخيه :

— أتريد أن تعرف لماذا ؟.. أتريد أن تعرف ؟

وأسندت الأم ذقنها إلى يدها ونظرت إلى ابنها الثائر نظرة ثابتة دهشة ، وقال خيري :

— إن كان لا يضيرك أن تقول .

— لا يا أخي لا يضيرني ... لا يا سيدي .. أقول لك لماذا لا أذهب ... لا أريد أن أرى عناءهم وفقري ... لا أريد أن أرى السراية وأعود إلى الشقة ، لا أريد أن أرى محسن يلبس أفخم قماش وأفخم كرافتة ويستبدل كل يوم حلة بأخرى وأعود لأحد حلتي الوحيدة في الصوان ... واحدة في الصوان لا تزيد ... إن حرجت فإلى جسمي ، ولتحل التي ألبسها مكانها . واحدة في الصوان وواحدة على . لا أريد أن أذهب حتى لا أرى عايدة الصماء تلبس أفخم الملابس ، بل إن دولت تلبس أفخم الملابس ، ونادية وهي تستقبل الشباب في ملابس ... ملابس ...

وقاطعه خيري :

— على مهلك .. على مهلك ... نحن نعرف تماما إلى أى مدى هم أغنياء ونعرف أيضا مقدار ما نملكه ... ولكننا متساوون فى أشياء أخرى ... نحن وهم شرفاء .. ونحن وهم أولاد عم لم نمد إليهم يدا نستجدى ولا هم أشعرونا بفارق المال بيننا ... والمساواة بيننا فى ...

وقاطع يسرى أخاه فى حدة :

— فى المركز العائلى والشرف والكرامة ... ها .. ها ... هذه النكت التى لا تعرف غيرها لم تعد تساوى شيئا ... لا أستطيع أن أشترى بها بيت عزت باشا ... تعال معى إلى المذبح ... تعال إلى سوق الخضر ... تعال إلى تجار الدقيق واللبن ومتعهدى الجبوش ... تعال انظر إلى المجد الذى يلمعوه بلا شرف ولا عائلة ولا كرامة ... بلا شىء إلا الذكاء وفهم الدنيا كما يجب أن نفهم ... تعال انظر إليهم الآن ... الأموال مكدسة تجرى بين أيديهم كما تجرى على لسانك ألفاظ الكرامة والشرف والمركز العائلى . ولكن فلوس تجرى فتأتى بفلوس ، وكلامك يجرى فلا يأتى إلا بالفقر الأصلى ... نحن لم نصل إلى بائع الخضر ولا إلى الجزار ، لا ولا إلى حتى بائع اللبن ، ولكننا مع هذا ننشدق بالبيت الكبير الذى كان لنا ، وبغرفتنا القريبة من عزت باشا . ونصر أمى ونصر حصرتك على أن أذهب لزيارتهم ، وتغضب أمى ونغضب حصرتك إذا قلت إنى لا أريد الذهاب ... لا يا أخى ... لن أذهب ... لن أذهب إلا حين أحس أننى أصبحت فى غنى عزت باشا أو فى عمى قريب من عماه ... أعرفت الآن لماذا لا أريد الذهاب ؟.. هل اقتنعت ؟ لن أذهب ... ولن أنتظر حتى لأسمع رأيك فإنى أعرفه .

وفى حركة سريعة اتجه يسرى إلى الباب وعبره إلى باب الشقة الخارجى ، وما هى إلا هنيهة حتى سمعت سميرة هانم وسمع حيرى الباب يصفق صفقة عنيفة ، ولم

ترد الأم عن أن تقول :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال حيري :

— لا تخاف ... شدة وتزول ... لا تخاف ... سوف يعرف قريبا أيهما أكثر قيمة : الكلام الذى يجرى على لسانى أم المال الذى يجرى فى يد الحوار وبائع الحصر .

٢٣

عادر يسرى البيت ساخطا ، الثورة تمور فى نفسه فكأنه ما أفرج عنها . وراح يسير الطريق يعلو صدره ويهبط لا يعقل ذهنه شيئا إلا أن يستبعد ما كان يقوله لأخيه ، ولا تبدو على وجهه إلا بقايا ابتسامة ساخرة تطفر إلى فمه كلما دار بذهنه ما يفكر فيه أخوه من شرف وكرامة وأخلاق ، وغير هذا من الأوهام التى يسمح فيها حيرى والتى لا تساوى عنده إلا هذه الابتسامة . وإنه اليوم يريد ابتسامته تشيئا وإن كانت قد بدأت تتخذ لونا آخر إلى جانب السخرية التى تتسم بها ، فلقد راح يستعيد فى ذهنه شكل أخيه وهو يسمع منه هذا الهجوم الذى شنه على العوالم التى يعيش فى هيكلها .

نعم إن أخى ما كان يفكر يوما أنه سيسمع هذا الحديث ، ولا شك أن دهشته زادت أن صدر هذا الحديث عنى أنا ... أخوه الذى عاش معه هذه السنوات الطوال لا يسمع منه حديثا إلا هذا الحديث عن ماضينا وبيتنا وأسرتنا وكرامتنا . . كرامتنا ؟! كلام ... كلام ... فى أى عصر يعيش أخى

حبرى ؟.. إنه يغلف نفسه بستار سميك من سنوات الماضى وخرافاته ... مع أنه شاب ... شاب ودائر وقطع السمكة وذيلها . ولكنه من أفكاره فى غرفة أقفل ما بينها وبين الحياة ، فهى المعزل البعيد المطمور فى خرافات الماضى وأوهام السنين ... ألم ير إلى الحياة اليوم ؟... لعله لا يعرف ما نعرفه نحن ، نعم أظن أنه لم يتعمق الحياة كما أتعمقها أنا ... طبعا ثقافته محدودة ولم يدخل إلى التعليم العالى ، ويكتفى بقراءة هذه المكتبة التى ورثها عن المرحوم والدنا . ولكن ماذا تجدى هذه الكتب الأدبية فى فهم الحياة على حقيقتها والوصول إلى جذورها ؟.. العالم يحترق أمامه وهو يقرأ فى شعر المتنبى وشوقى وأيام طه حسين ومجدولين المنفلوطى وفلسفة العقاد ومساخر المازنى ... مصائب ... إنه لا يريد أن ينزل إلى الحياة الحقيقية ... إلى الواقع .. كم دهش حين حدثه الدكتور حامد عن صداقته .. كم دهش حين رأى الدكتور حامد يقول إن كل العواطف ضعف وأن الحياة لا تقبل إلا على الذين يلقونها بقلوب خالية من كل عاطفة إلا عاطفة المصلحة ، ويعرم لا يعرف إلا بلوغ القصد فلا نظر إلى الوسيلة ولا مشاعر الغير ... كم حزع أخى ... كم حزع ... لم يجد شيئا يقوله إلا أن العواطف لا نعرف وإنما نحس ، وأنه لا يستطيع أن يناقش إنسانا هذا رأيه لأنه لن يستطيع أن يقنعه ... وقال شيئا آخر ... قال فى حدة لولا العاطفة .. عاطفة الصداقة والأخوة بينه وبين الدكتور ... ثم لم يكمل ... وحين استحثه الدكتور حامد أن يكمل احمر وجهه وصمت ولم يكمل ... ماذا كان يريد أن يقول ؟.. أتراه كان يريد أن يذكر الفضل الذى ناله الدكتور حامد عن طريقه ؟.. أم تراه يقصد إلى شيء آخر ؟. لا أدرى .. أظن أن الدكتور حامد فهم هذا المهم ... أم تراه لم يفهمه فهو رجل حريص ألا يبدى وجهه شيئا مما يعتمل فى نفسه .. كم أعجب بالدكتور حامد .. لقد استطاع أن يفهم الدنيا ويتعمق حقائقها ، كيف استطاع ذلك ؟ أترى سفره إلى الخارج أم تراها

طبيعة ؟ أم تراه مجرد ذكاء وهبه الله له ؟.. إنه يختلف كل الاختلاف عن أخي وصديقيه نجيب ومحسن ... ولكن أي مقارنة تلك ؟ إنه يسبقهم في السن ويختلف عنهم في الثقافة لا شك أنه يملك مواهب وثقافة وصدفه في أيضا ... فهو لا شك يسبق حيله فهو ثائر على حيله المقيد بالماضي والتقاليد . لا أنسى ما فعله معي في الامتحان .

أي أستاذ غيره يمكن أن يمل الإحابة على تلميذ في اللجنة ؟. جرأة عجيبة ... أظن إن كان أخي جرى مكانه لقتلني لو طلبت إليه هذا ... أما الدكتور حامد فجريء ... ألم يقل لي يومها « أنت أحق بالنجاح من الأغبياء الذين يذاكرون ولا يفهمون شيئا ، وإنما يحفظون ويرمون بما يحفظون على أوراق الإجابة » . رجل مقنع أنني ذكي وأنني أستحق النجاح والتفوق ...

كانت أقدام يسرى قد بلغت به إلى موقف الترام ، وما لبث أن رأى الترام الذي يبلغ به بيت الدكتور حامد قادما فركبه ، فقد جعله هذا الحديث الذي دار بنفسه يشتاق إلى رؤيته ، كما تذكر أنه يريد أن يسأله في بعض مواضع عرضت له أثناء المذاكرة . وقد تعود يسرى أن يزور أستاذه في غير حرج ، فقد قاربت الكلية بينهما كما قاربت بينهما روابط الماضي . ولم يكن عند حامد إلا خادم هرم قليل المئونة هين الأمر فلم يكن يرى حرجا في أن ينتظر أستاذه بالبيت حتى يعود إذا تصادف وذهب على غير موعد أو ذهب على موعد فلم يجد أستاذه بالبيت ؛ فقد كانت الصلة بينهما تتيح للأستاذ ألا ينتظر تلميذه مكتفيا بترك ورقة يطلب إليه فيها أن يعود في موعد آخر أو يطلب أن ينتظره حتى يعود ، كما كانت تتيح ليسرى ألا يعتذب .

وبلغ يسرى البيت ودق الجرس ، وفتح الباب عن دولت . أخذ يسرى بعض الشيء وعاجلته هي قائلة :

— أهلا .

فيها ترحيب وفيها شوف . وقال يسرى :

— أهلا بك .

— أين أنت ؟. من زمان لم نرك .

— فى الدنيا ... خير مادا جاء بك ؟

— مادا ... غريبة ؟

— نعم ...

— بيت أخى :

— أعرف ... ولكنى أحيء إليه كل يوم تقريبا ولا أراك .

— أنا أحيء إليه من حين لآخر أرى ملابسه وأنظم بينه وأعود .

— آه ... أهو هنا ؟

— لا ... ادخل .

ودخل يسرى وهو يقول :

— أين ذهب ؟

— لا أعلم ! جئت فلم أجده .

— وأين عم إدريس ؟

— لا أدرى أيضا ، فإنه ما كاد يرانى حتى قال الحمد لله أنك جئت . انتظرى أنت أخاك وسأنزل أنا أشرب فنجان شاى لأن عندى صداعا وأريد أن أشم الهواء . ونزل السلم يجرى كأنه ابن العشرين .

— هيه ... طيب .

— اقعد ... مالك واقفا ؟... ألا تنتظر أخى ؟

ولم يتردد يسرى إلا بكلمة عابرة أطلقها وهو يقعد الأريكة فى البهو :

— قد يعيب .

وقالت دولت فى دلال :

— وماله ؟.. لنا زمان لم نرك .

وهى دولت كما هى ... لم تغير منها السنون ، ولم تمر بها الحرب . عميقة رغم أنها عاهرة لو استطاعت إلى ذلك سبيلا ... الرجل يملأ تفكيرها وحسها ، ولولا بعض حياء ما امتهنت عن الخدم فى بيت الباشا . ولكنها لم تستطع أن تنسى مكانها فى البيت ، وأخاها الذى أصبح أستاذا كبيرا ، فعفت عن الخدم ولم تجد فى حياتها غيرهم ، فعاشت شريفة بواقع أمرها غير شريفة بآمالها وتفكيرها وأحلامها وأمسياتها المنفردة الباردة .

لم تجد زوجا ... فأخوها يأبى لها الجاهل ولا يجد لها المتعلم . وهى فى وسط بعيد عن الرجال الذى قد يقبل أخوها أن يزوجها بأحدهم . وقد جعلتها إقامتها فى بيت الباشا تقتنع برأى أخيها ، فإنها لم تعد تطيق أن تنزل من هذا العز الذى رفلت فى أطوائه إلى حياة جافة مع صانع أو مثيل له .

نظر بسرى إلى دولت مليا ... جمال أخاذ ... إنه يعرف ذلك منذ زمن بعيد ... ولكن كيف كان يمكن أن يصل إليها ؟.. لقد انقطع عن بيت عزت باشا فى الوقت الذى كان يمكن أن يستقل فيه علمه جمالها ...

أحست دولت نظرته وعرفتها والتذتها ، فأقامت مكانها ترنو إليه وتنتظر أن ينتهى من النظر حديث . ولم يطل انتظارها قال :

— ازددت جمالا يا دولت .

وضحكت دولت فى تمايل وهى تقول :

— أما تزال ترانى جميلة ؟

— أجمل مما كنت أراك .

وازدادت ضحكا وقالت :

— أنت أيضا ازددت جمالا ، فقد أصبحت تعتنى بشعرك وتمشطه ، وخلعت الطربوش الذى كان لا يفارقك على الرغم من حوصته المكسرة ، وصحت بهم بملابسك ، وازدادت عيناك بريقا ولو أن الخبث حل فيهما محل البراءة ، وأصبحت ذا عينين جريئتين حتى لأستحى أن أقف أمامك ، وإنه يخيل إلى أنك توشك أن تخلع عنى ثيابى .

وقال يسرى فى لهو :

— يا ليت !

وضحكت دولت ضحكة عالية وهى تقول :

— لا ... لقد أصبحت بلوى كبيرة .

وأمسك يسرى يديها وأجلسها إلى جانبه .

وتحققت أمنية دولت آخر الأمر ، واستطاعت أن تجد رجلا ، واستطاعت أيضا أن تترك عهد العذارى غير آسفة ولا قلقة ، فقد كانت تحس ألا أحد هناك سيأسف على ما فقدته ، فهى لا أحد لها إلا أخوها .. وأخوها لا يهمه من أمرها إلا أن تكفيه مؤونتها ولا تطلب منه مالا ، ثم هو مشغول بعد ذلك بالكلية وبالمجد الذى يجهده لنفسه فى الحياة ... فماذا تخشى ؟..

وهكذا وبهذا الاطمئنان المستقر فى نفس دولت استطاع يسرى أن يطمئن هو الآخر ، فما دامت هى غير آسفة ولا قلقة ولا خائفة ، فماذا يدعوه هو إلى الأسف أو القلق أو الخوف ؟!.. لا شىء .

قالت له .

— أين نلتقى بعد ذلك ؟

قال يسرى :

— لا أدرى !

— لماذا لا تأتى إلى البيت ؟

— وما الفائدة ؟

— صحيح .

ثم قال وكأنما أشرقت فى ذهنه فكرة رائعة :

— لماذا لا نلتقى هنا ؟

ونظرت دولت إليه فى دهشة :

— هنا ؟!

— نعم لم لا ؟

— وأحى ؟

— سأعرف مواعيد خروجه وأخبرك بها بالتليفون .

وظلت دولت تحملق فى وجهه بدهشة وهى تقول مرددة وراءه بلا تفكير .

— بالتليفون .

— نعم . . سأطلب البيت ولا أجيب حتى أسمع صوتك ، فإذا سمعته أخبرك بالميعاد ولا تجيبى أنت .

وبدا على دولت أنها اقتنعت ، ولكنها ما لبثت أن قالت :

— وعم إدريس ؟

— لا شأن لك به ... سأسبقك وأجعله ينزل بأى حجة أو تسبقينى أنت ، وهو ما أحب إليه أن يخطر على بال إجازة عجيبك .

— نخرب .

— ليس أصلح من هنا .

— أترى ذلك ؟

ـــ لا شك .

وما هي إلا دقائق حتى كان يسرى بالطريق يفكر فيما كان من أمره وأمر دولت ، فرحا هادئ النفس يسير على الأرض لا يكاد يلمسها من مرح ونشوة ، حتى إذا هفت إلى ذهنه فكرة أنها أخت أستاذه وصديقه الذى يحبه حبا يكاد يصل إلى حبه لأخيه خيرى طمأن نفسه ... إن حامد واسع الأفق ثائر على التقاليد ذكى ، وما نلث نفسه أن تطمئن ويعود إلى سيره يكاد لا يلمس الأرض من مرح ونشوة .

٢٤

دامت الصلة بين يسرى ودولت ، ولكنه أيأسها فى آخر لقاء بينهما أنه سينقطع عنها بعض الوقت لأن امتحان البكالوريوس أصبح على الأبواب .

وانقطع يسرى للمذاكرة فعلا ، وكانت مذكراته فى بيت صديق له هو عبد الوهاب النحدى ، وكان يشاركهم فى المذاكرة صبحى الملوانى وبحيى مهدى . وكانوا جميعهم جادين فى مذاكرتهم ؛ وألحت عليهم الدروس وألحوا عليها وأصابهم هذا الدوار الذى يعرفه أبناء المدارس . حتى كانت ليلة انتبه يحيى إلى رفاقه الثلاثة ، وكان يشرح لهم فوجدهم لا يعون من قوله شيئا ، فأقفل الكتاب ونظر إليهم قائلا :

ـــ أولاد .

فطالعته منهم همهمة تشبه الإجابة فقال :

ـــ أنتم لا تفهمون شيئا مما أقول .

— فقال يسرى :

— اشرح أنت ولا شأن لك .

— لا شأن لى ؟ كيف ؟ أهو تعب قلب والسلام !!

فقال صبحى :

— لا يا يسرى ! يحيى محق ... مخنا مقفل .

وقال عبد الوهاب :

— ما رأيكم ... نترك المذاكرة الليلة .

فقال يسرى :

— وماذا نفعل ؟

وقال يحيى :

— نذهب إلى السينما .

وسارع صبحى قائلا :

— أى سينما ... هل جننت ؟

وقال يحيى :

— مسرح .

فقال صبحى ساخرا فى مرارة :

— يا بنى اكبر ... سينما ... مسرح ... هل نحن عيال ؟

وقال يحيى :

— ألا يذهب إلى السينما والمسرح إلا العيال ؟ طيب وماذا تريدون أن تفعلوا ؟

قال عبد الوهاب :

— البار ... مار سيت مايو ... عجيب يا سى ... كاس الويسكى .

فقاطعه يحيى :

ـــ أنا لا أشرب .

قال عبد الوهاب :

ـــ لا وعيت تشرب ... انظر ... ألا تسطر أيضا ؟

فقال يحيى فى بلاهة :

ـــ وماذا أنظر ؟

فأغرق الجميع فى الضحك إلا يسرى الذى ارتسمت على وجهه معالم دهشة كبيرة وقال :

ـــ أتريد أن تفهمنى أنك لم تذهب إلى مار فى حياتك ؟

وقال يحيى وعلائم البلاهة ما زالت بادية عليه :

ـــ لا ... لم أذهب .

وضحك يسرى وأغرق فى الضحك :

ـــ لا ... معذور تكون أول الدعسة ... أبدا ؟

فقال يحيى :

ـــ أبدا ... ألا بد أن تذهب إلى النار ؟.. أذهب أحدكم إلى الجامع فى حياته ؟

فقال يسرى :

ـــ ماذا ؟ أتوبت تخطب خطبة وعظ أيضا ؟

فقال يحيى :

ـــ لا ولكن هناك أمكنة لم تذهبوا أنتم إليها أبدا وذهبت أنا إليها ، وأمكنة لم أذهب أنا إليها ...

فقال يسرى مقاطعا :

— نعم وذهبنا عن إليها ... عظيم ... اسمع ، النار فيه سهوان تعش العابد ، وشراب يا حبيبي وعدك الله به في الجنة ونحن عنده في الدنيا من غير جنة أو تعب جنة .. نجيء معنا أم تنتظر أنت دورك مع الحور العين وشراب الكوثر ؟

فقال يحيى في حرم :

— لا ... أفضل أن أنتظر دوري .

فقال صبحي :

— يا بني يار سيبت فاير أقرب .

وقال عبد الوهاب :

— وأسرع ... وهو أيضا مؤكد .

فقال يحيى في لهجة تكاد تكون عاصفة :

— أتكفر بالله ؟.. الجنة أيضا مؤكدة .

فقال يسري :

— وهل قلنا إنها غير مؤكدة ... كل ما في الأمر أننا شباب ونأخذ حظنا من الدنيا ، ومسألة الجنة هذه نؤجلها إلى حين لا نستطيع المتعة . أؤكد لك يا يحيى أنني في سن الخمسين ... لا ... الستين سأصلي وأمتنع عن شرب المسكر وأصوم وأحجيك ، وسأقابلك بعد ذلك على أبواب الجنة عند عمك رضوان ... يا عيني عليك يا يحيى ستحرق يوم ذلك حرقا عظيما ... حرمت نفسك ومنعت نفسي ، ثم التقينا على أبواب الجنة ، يا عيني يا ابني .

فقال يحيى :

— كلام فارغ ، لكل جزاؤه .

وقال عبد الوهاب بين ضحك رفاقه :

— اسمع يا عم .... نحن ذاهبون إلى النار ... أقصد إلى الجنة التي في

الأرض ... أتجيء معنا ؟ أم تذهب أنت إلى السينما ؟
— لا ... سأذهب أنا إلى السينما واذهبوا حيث شئتم .
فقال يسرى :
— اسمع ... قبل أن تذهب ... أعندك خادمة فى البيت ؟
وأدرك يحيى ما يرمى إليه السؤال فقال :
— وما شأنك أنت ؟..
فقال يسرى :
— لا شأن لى ... وإنما أسأل فقط .
فقال يحيى :
— يظهر أنك سكرت قبل البار ؟!
فقال يسرى :
— لا والله أنا مفيق جدا ... المهم ... متى تحضر غدا ؟
فقال يحيى :
— فى موعدى ، وأرجو أن أحدكم قد أفقتم من سهرة الليلة .
فقال عبد الوهاب :
— لا يا أخى .. لا تخش شيئا ، نحن تشرب المحيط ولا يهمنا .
فقال يحيى :
— محيط يبلعكم جميعا ، سلام عليكم .
فقال عبد الوهاب فى حد ساخر :
— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
وقد تقطعت تحيته بالضحكات العالية أو المكتومة ، وخرج يحيى وتركهم يتهيأون لسهرتهم ، وقد طمأنهم عبد الوهاب أنه سيدفع عنهم النفقات جميعا .

أصر يسرى على أن يمر ببيته ليلبس حلته الأخرى ، ولم يستطع رفاقه أن يخالفوه . وحين سأله أخوه عما دعاه إلى ارتداء حلته النظيفة أسأه فى عجلة أنهم تعبوا من المذاكرة ويريدون أن يذهبوا إلى السينما . ولم يشأ حيرى أن يسأله أى سينما . ولم يشأ أن يقول له إنه يريد أن يرافقهم مع أنه كان ينوى أن يذهب إلى السينما هو الآخر ... لم يشأ أن يقول شيئا فقد كان يدرك أن وجوده معهم لا يروقهم ، كما كان يدرك تمام الإدراك أن أخاه فى أغلب الأمر يكذب وأن السينما لن تكون مقصده . أدرك هذا فسكت . ولم يدرك يسرى أن أخاه عرف كذبته وإنما هو يلقيها واثقا أن أخاه سيصدقها فهو واثق من ذكاء نفسه ، واثق أنه قادر على أن يجعل أخاه يصدق ما شاء له أن يصدق ... وانفتل يسرى إلى صديقيه اللذين كانا ينتظرانه أسفل البيت ، وما هى إلا بعض دقيقة حتى كانوا يأخذون سمتهم سعيا على أقدامهم من المنيرة إلى بار سيت فاير بميدان الأوبرا .

سار الرفاق ، ووجدهم يسرى يتابعون حديثا بدأوه حين كان هو يرتدى ملابسه ، قال صبحى :

— ألم تقل لأبيك إنك لا تريدها ؟

فقال يسرى :

— ماذا ؟ هل جد جديد فى أمر زواجك يا عبد الوهاب ؟

— لا ... لا جديد إلا أنى اقتربت منه

فقال يسرى :

— ولكنى أراك فى هذه الأيام غير عاصب كما كان شأنك يوم فرض عليك هذا الزواج .

فقال صبحى :

— والله إن أردت الحق يا أبا عبده ، أنا أيضا أراك فى هذه الأيام أقرب إلى

الاسقاط .

فقال عبد الوهاب :

— والله إنكما خبيثان .

فقال يسرى فى لهجة الفاهم .

— قل الحق يا أبا عبده .

فقال عبد الوهاب :

— والله أنا وجدت المسألة معقولة إلى حد كبير .

فقال صبحى :

— أهكذا ؟!

فقال عبد الوهاب :

— الست عندها مائتا فدان وحدها ، ورثتها من أبيها الذى أصبح رجلا فى الدنيا وأخرى فى حبة عمك يحيى !

فقال صبحى .

— معقول يا أبى ... الغنى يحب الغنى

فقال عبد الوهاب :

— الزواج شىء لا بد منه على كل حال ، ومسألة الجمال هذه ليست مهمة ... الجمال موجود فى سينت هاير وغيره من البارات ، أما المائتا فدان فمسألة صعب وجودها

فقال صبحى :

— رحم الله عمك أوسكار وايلد ، كان يقول إذا أطفئت الأنوار تساوت النساء .

فقال عبد الوهاب مسترسلا :

— فعلا ... هي زوجة على أية حال للبيت والأولاد ، وأما عن جمالها فأستطيع بمالها أن أجعل ألف جميلة تعوضني عن قبحها خير عوض .

فقال صبحي :

— والله وأصبحت فيلسوفا يا ابن الكلب .

فقال يسرى فى نوبة تفكير :

— والله كلامه معقول يا صبحي .

فقال صبحي :

— وهل قلت غير ذلك ؟

وقال عبد الوهاب :

— ثم إن أبي سيرضى عن هذا الزواج لأنه وقع باختياره و ...

وقاطعه يسرى :

— وهل هذا المنطق الذى تسوقه منطق أبيك ؟

فقال عبد الوهاب :

— لا أبدا ... إنما البنت بنت أخيه وهو معجب بأدبها وخلقها ، ومسألة الجمال لا تهمه .

فقال يسرى :

— وما الجمال ؟ وما العيب أن تكون روجتك عنية وغير جميلة ، ما أثر الجميلات اللواتى سيكن زوجاتك بأموالها ... الفلوس يا حبيبى ... الفلوس هي كل شيء ... إذا كان معك فلوس فمعك الجمال الذى تريد والمجد والعز والأبهة ... والله فلسفتك عميقة يا عبد الوهاب ... تزوج يا بنى على بركة الله .

وقال صبحي :

— العقبى لك يا يسرى .

(ثم تشرق الشمس)

فقال يسرى :
— ومن أين آتى بفرصة كفرصة سى عبده ؟ إنه غنى ويستطيع أن يتزوج العبة .

وقال صبحى :
— فرصتك أنت أكبر ... أقاربك جميعهم أغنياء ، ما عليك إلا أن تضع يدك فى وسطهم تخرج بواحدة غنية ، وما دمت ترى أن الجمال لا أهمية له فالمسألة أصبحت غاية فى السهولة .

وصمت يسرى ومكر وأطال التفكير ، وانشغل الصاحبان ، وران عليهم صمت زاده عمقا الظلام المخيم على القاهرة ، فالنور يخرج إلى الشارع منخفيا فى حذر تذوده ألوان زرقاء قاتمة طلى بها زجاج النوافذ ، والسيارات تمضى واهنة تتحسس طريقها بالعلم لا بالرؤية ، مصابيحها هى أيضا زرقاء داكنة تكاد لا تفيد شيئا إلا أن تنبه المارة أنها تمر . وكان الرفاق قد بلغوا ميدان الأوبرا وليس من دليل أنهم بلغوه ألا أنهم يعرفون أنه هو ، فهو هادئ ساكن شأنه شأن ضاحية فى طرف من المدينة قصى .. فلم يكن ميدان الأوبرا — قلب القاهرة النابض — نابضا فى هذه الأيام ، إنما هو متسع من الأرض يرين عليه ما يرين على العالم والنفوس من إظلام ، وصمت مقبض ، وخوف راعد ، وجهل للمستقبل ، وضيق بالحاضر ، وشوق إلى الماضى .

كان بار سيبت فاير شأنه شأن الميدان أجمعه ، فهو من الخارج صامت كالح يسعث منه بصيص من الضوء يتلصص طريقه إلى الخارج ، ولكن ما إن دلف إليه الرفاق الثلاثة حتى وجدوا الحياة تمور فى داخله عريدة تنتقم من الصمت فى الخارج ، ووجدوا الضياء باهرا ينتقم من الظلام فى العالم ، والعقول غائبة والأجسام حاضرة تثبت وجودها فى إصرار ، فى كل نأمة منها ، فى كل إشارة يشير بها

حتى من الجنود المحاربين أو نشير بها فتاة من فتيات البار ... أجسام بلا عقول ، وضحك بلا تفكير ، وحديث بلا منطق إلا الرغبة ، حديث أجسام تهتبل من إجازة الساعات فرصة لا يدرى أصحابها إن كانت تعود أو لا تعود ... أو متى تعود إن هي عادت ؟.. هم الجنود العائدون من القتل أذاقوه عدوهم وذاقوا منه بأعاجيب ، ولم تكن عودتهم لأهلهم وذويهم بل إنهم يجهلون من أمر هؤلاء كل شيء ، فمن زوج ترك زوجته الشابة ، ومن ابن ترك أمه العجوز ، لا يدرى الزوج كيف تحيا زوجته ، ولا يدرى الابن أتحيا أمه أم هي فارقت الحياة . عادوا يريدون أن ينسوا الموت جميعه سواء منه ما جرعوه لعدوهم أو ما تعرضوا هم له وأفلتوا لا يدرون كيف ، ويرعبهم أنهم يعلمون أنهم ملاقوه ثانية وثالثة وعشرا . ثم يعجز تفكيرهم ... كيف يفلتون من الموت القادم ؟.. كيف ؟.. إنهم يريدون أن يمحوا تفكيرهم عن هذا الطريق ويريدون أن ينسوا أوطانهم وما فيها فيكبوا على الخمر ، يريدون أن يسكروا ويريدون النساء اللواتى تعرض عليهم ولا يهمهم فى غمرة خوفهم من الماضى والمستقبل أنهم فى أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، فقد أصبحوا يرون كل مكان يتزلون فيه مكانهم هم أصحابه بقوتهم وبسلاحهم ، وبالحق الذى يفرضونه لأنفسهم على غير المحاربين .

دخل الرفاق الثلاثة البار ، ووقفوا بجانب الباب بعض الحين ينفضون المكان بأعينهم متنقلين فى دهشة وبعض خوف بين النساء واحدة بعد الأخرى ، وإذا هن جميعا مشغولات عنهم . فراحوا ينقلون أبصارهم مرة أخرى بين المناضد عساهم يجدون واحدة خالية ، حتى إذا يئسوا من هذه أيضا تقدمهم يسرى فى تؤدة وأدب جم إلى البار واعتلى كرسيا ووقف صاحباه إلى جانبه ، وقال عبد الوهاب :

— ثلاثة ويسكى

وجاءهم الشراب فراحوا يشربون وهم سكوت مفكرين حائمين ، الصحب من حولهم منصب فى قلوبهم رعبا .

وكان إلى جانب يسرى من الناحية الأخرى جندى طويل القامة عريض المنكبين له ذراعان مفتولتان كل عرق فيهما يمور بالقوة العارمة ، وكان أحمر الوجه احمرارا صارخا لا عن خجل وإنما عن طبيعة زادتها الخمر وضوحا ، فهو كالذبيحة بين يدى الجزار يكاد رائيه يظن أن الدماء لن تلبث أن تنسجس من حديه فى عنف وانهمار . وكان الجندى يلف ذراعا له حول خصر فتاة لا تكاد تتماسك بين ذراعيه ، حتى يخيل ليسرى أنها تسيل وتسيل وتوشك أن تصبح مادة بلا قوام تحتاج إلى وعاء يضم من أودها أو يبقى على مادتها ، وكانت ذراع الجندى الأخرى على البار تمسك بكأس نرفعها بين الحين والحين إلى فمه أو إلى فم فتاته ، ولعله كان يخيل إليه من شدة السكر أنه يسقيها وهو يسقى نفسه ، أو يخيل إليه أنه يسقى نفسه بما هو يسقيها .

وظل الرفاق الثلاثة يشربون ، وظل يسرى ينظر إلى هذه الفتنة التى ترتكب بجانبه شاردا يفكر فيها حينا ويفكر فى حديث صبحى حينا آخر ، أو يفكر فى دولت حينا ثالثا ، أو تختلط الأفكار جميعها فى رأسه امتزجت بحميا الخمر فهو فى تحران .

مضى حين من الوقت لم يشعر البار بمضيه ، وغمز صبحى ذراع يسرى وأشار بذقنه إلى فتاة مالت على صدر جندى راح يعبث فى جسمها ويقبلها فى نهم . وأطال يسرى النظر إلى الفتاة والجندى . ثم التفت فجأة إلى جواره يريد أن يرى أثر هذه المغازلة الصريحة على الأسترالى وصديقته ، ولكنه وجد الأسترالى قد انصرف والفتاة تقف وحدها إلى البار . فظل ناظرا إليها وتسمت هى إلى نظرته

فابتسمت له فابتسم ، فدعاها إلى كأس فأجابت وإلى أخرى فقبلت . وأوشك أن يدعوها إلى الخروج لولا أن عاد الأسترالى ، وكانت الفتاة قد تعتعتها الخمر كما تعتعت يسرى ، وكان الأسترالى كامل السكر غير محتاج إلى مزيد ، وما هى إلا ثانية واحدة حتى كان يسرى مقذوفا يحطم الزجاج المطلى باللون الأزرق خارجا هو والنور إلى الشارع ، وقبل أن تمر الدقيقة التالية كان الصديقان يخترقان لوحين آخرين من الزجاج الأزرق غير مقذوفين إلا بالرعب المرفرف فى قلبيهما ، وما إن بلغت أقدامهما أرض الميدان حتى أطلقا الزمام للجرى لا يلويان على صاحبهما .

أمسك يسرى بأول قدم مرت به فى مرقده خارج البار ، وامتدت إليه يدان تحملانه كطفل ، وسارع صاحب اليدين يترك المكان جميعه يتوخى الظلام الشديد ، حتى إذا بلغ مكانا مطمئنا تركته اليدان ، وطالعه صوت لم يختلط عليه :

— يظهر أن الفيلم كان دراما عنيفة يا أستاذ يسرى .

٢٥

أفاق يسرى إفاقة تامة ، وواجه أخاه الذى طالعه وجهه من ثنايا الظلام الأعبر مبتسما حانيا صافحا مدركا ، وظل يسرى صامتا مستخزيا .

وقال خيرى :

— هل أصابك شيء ؟

— لا ... بسيطة .

— أتستطيع المشى ؟

— نعم ... أظن ذلك .

— اعتمد على ذراعى وامش .

— أين تريد الذهاب ؟

— إلى البيت .

— ... نحذفى إلى مكان آخر .

— تعال .

— إلى أين ؟

— تعال .

ومشى الأخوان يعتمد يسرى على ذراع أخيه . تعثرت خطواته فى أول الأمر مصل الحين ثم ما لبث أن استقام به المسير . وبلغا شارع قصر العينى ، ولم يمل خوه إلى الميرة بل حاد يمنة إلى النيل ، وحين بلغا الحجارة البيضاء المشرفة على نهر العريق جلس خيرى وساعد أخاه فأجلسه إلى جانبه ثم قال :

— هل فكرت يوما أن تجلس جلسة كهذه ؟

وقال يسرى فى سحرية تتردد بين الظهور والاستخفاء :

— جلسة شاعرية تعنى ؟

فقال خيرى معتصيا عن رنة السحرية فى صوت أخيه :

— مثلا .

— لا يا سيدى أنا لست من غواة الشعر .

— هل لا بد أن تكون من غواة الشعر حتى تتمتع بالطبيعة ... يخيل لى يا يسرى أنك لا تتمتع بالطبيعة أبدا .

— هذه متعة لا أعرفها ... إنما أعرف متعات أخرى .

— حتى هذه المتعات تحتاج إلى شىء من الجمال فى نفسك لتتعلغل إلى كيانك ، تستطيع أن تسكب على حياتك لونا من الجمال ... من الإحساس ... من المشاعر .

— إحساس ! مشاعر !.. الشعر أتلف الدنيا معك .

وقال خيرى فى بساطة :

— قل لى يا يسرى ... ألم تحس فى لحظة ... فى لحظة عابرة أنك تحب هذه الدنيا ... الدنيا كلها بكل ما فيها ومن فيها ؟ تحب الظلام والنور ، تحب العدو والصديق ، تحب الدنيا لأنك فيها ، وتحب الله لأنه صنع لك هذه الدنيا ... الدنيا كلها بحمالها بل بقبحها وقسوتها . ألم تحس فى لحظة — ولو لحظة — أن قلبك استطاع أن يحتوى العالم جميعه واستطاع أن يحنو عليه ويعطعه مما فيه من جمال ، بل ما فيه أيضا من بؤس ؟

قال يسرى فى نفس البساطة :

— لا .

— أبدا ولا أظن أنني سأفعل ... أي دنيا هذه التي أحيها ؟.. هذه الدنيا التي جعلتنا فقراء وجعلتك تترك تعليمك لتعلمنا أنا وأختي ، وجعلت غيرنا أغنياء لا يدرون ما يفعلون بمالهم ؟

— أليس جميلا أن نجد في الحياة أحدا مثلي ترك تعليمه لتعليمك أنت وأختك ؟.. أليست جميلة هذه الصلات القوية الرقيقة التي تصل الأخ بأخيه والصديق بصديقه ؟

— ليست جميلة أبدا . . ماذا كسبت ؟ إنك تفلسف حياتك وتقبلها مع أنها حرمتك من العلم والطموح والغنى ، أما أنا فلا أستطيع ...

— لقد حرمتني الحياة مما قلت ، ولكنها وهبت لي الأصدقاء والحب والدفء والطمأنينة ، وإني أرى في هذه الأشياء غنى عن الطموح والغنى .

— ألم أقل إنك تفلسف حياتك وتقبلها ؟.. أنا لا أفلسفها .. أنا أنظر إلى الواقع الملموس فيها فأراها فقراء وغيرنا أغنياء ... لماذا ... ماذا يفيد الدفء في حل هذه المعضلة ؟

— طيب اسمع ... أترضى أن تكون فردا من عائلة عزت باشا بدل أن تكون فردا من أسرتنا هذه ؟

— أرضى !! أرضى يا أخي بل أتوق وأتمنى .

— أترضى أن تكون أختك ... صماء ؟

وأحد يسري هيبة وقال :

— صماء ؟!

— نعم .

— لماذا ... ما معنى سؤالك ؟

— معناه أن لكل أسرة متاعبها ... أسرة عمك عزت باشا تعرف المصيبة التي

تكمن بينها ، أما الآخرون فلا تعرف مصائبهم ... دع الخلق للخالق يا يسرى واحمد الله على الصحة .

فقال يسرى ساخرا :

— الصحة ... نحمده . أهذه كل ما نملك ؟

— أهي قليلة ؟ على أنك تملك أيضا الستر وإخوة يحبونك وأما ترعاك .

— يا سلام على الأملاك ... يا سيدى على الشفالك .

— ليست الدنيا كلها أملاكا وشفالك يا يسرى .

— آه ... صحيح ... الدنيا ذكريات الماضى التى لا نزال تحترها حتى تتواوح الدموع فى عينيك ، والدنيا شعر وخيال والنبل الهادئ والأحلام ... لا يا آبى خيرى ... الدنيا تغيرت ... تغيرت كثيرا عن هذا ... أصبحت واقعا مجردا ... أصبحت قيمتك تحدد بما تملك . إن كان ما تملكه يحويه جيبك فأنت لا تساوى أكثر من حجم الجيب الذى يحوى مالك ، وإن كانت أملاكك فى الأرض فقيمتك على قدر الأرض أو العمارة ... وإن كانت فى البنك فعلى ...

وقاطعه خيرى :

— قدر رصيدى فى البنك ... أهذه هى الدنيا كما تراها ؟ . أترى أنها نعيوت فأصبحت كذلك ؟

— لا شك .

— بل إن هناك شكا ... بل إن هناك يقينا أنها ليست كذلك ... هذه غمرة حرب يا يسرى ثم تنجلى ونعود الدنيا مرة أخرى إلى معان أخرى وقيم غير هذه القيم .

— معان وقيم ؟ ... لم تعد الدنيا تحتمل هذه الخرافات يا آبى خيرى .

— بل هى الحقائق يا يسرى وأنت لا تدرى . الحياة كلها فى الصلات الدقيقة

عبر المرئية التى تربط الإنسان إلى الإنسان ... فى الحب ، فى العطف ، فى الإحساس بالجمال ، فى الإشفاق على البائس ، فى إيثار الصديق على النفس ، فى هذه التيارات الهينة العميقة التى تسرى وتعصف فى طوايا الإنسانية ، دائما وفى كل حيل وفى كل زمن ... العملات تتغير والمذاهب الاقتصادية تتبدل ، والعواطف ثابتة منذ عرفت حتى الآن لم تتغير ولم تتبدل ، وهى هى فى جميع أنحاء العالم ، وهى هى منذ الأزل وإلى الأبد ... الناس تضحك إذا فرحت وتبكى إذا حزنت ، وتحتقر الخفير وتعجب بالسبيل ، لا يختلف فى هذا فوم عن قوم ولا دين عن دين ... هذا الإجماع العالمى هو الذى يرسى للعواطف والمعانى الكريمة خلودها ، فهى خالدة باقية .

— أين هى اليوم ؟

— فى النفوس ... ظاهرة فى بعضها خافية فى البعض الآخر ولكنها موجودة عميقة راسخة فى الأغوار البعيدة من نفس الإنسانية ، وستظل هناك وإن طغت عليها موجة عاتية من سعار الحرب ومادية الحياة ، إلا أنها لا بد ستظهر

— ما أسعدك ، تعيش فى أحلامك سعيدا بها .

— وما يمنعك يا أخى أن تخلق لنفسك أحلامها ونعيش فيها ؟.

— الحياة ... واقع الحياة وأنا أبصره أكاد أمسك به ... الحياة ... الحقيقة

— ما أملك فى الحياة !!

— الغنى .

— عن أى طريق ؟

— عن أى طريق !. ألا ترجو الغنى أنت أيضا ؟

— بل أرجوه ... ولكن ليس عن أى طريق .

— عن أى طريق تريده ؟

ـــ أريد أن أجهد وأحصل على المال ... لا أحب هذا المال الذى يجىء سهلا ... لا أحب المال الذى يعجبك فى يد الخزار الذى اغتصبه غصبا من الإنسانية منتهزا فرصة الحرب والقتل والدمار ليغنى ويثرى ، ولا هذا الذى اغتصبه اللبان ، لا ... لا أحب هذا ولا أريده .

ـــ طيب ، وما رأيك فى مال يأتيك عن زوجة غنية ؟

ووجم حيرى وطالت وجمته بعض الحين ، ثم قال :

ـــ ألا تعرف رأيى ؟... ألم تعرفه ؟

ـــ صحيح ... هذا نوع من المال لم يعجبك .

وأخذت الذكريات على حيرى عطل صامتا ، حتى قال أحوه أخيرا :

ـــ هيا بنا .

٢٦

نجح يسرى فى عامه هذا وحصل على شهادة البكالوريوس ، وقد استقبل البيت الصغير النأى فى فرحة عامرة فهى أول شهادة عالية يحصل عليها بيت همام . وقد أحس حيرى أنه أدى واجبه ورأى فى شهادة أخيه ثمار سعيه ، وكانت نادية فرحة بأخيها فقد أصبحت ترى فى كل نجح نصيبه العائلة خطوة تربو بها إلى الآمال المنصورة التى بدأ الشباب يهيئها لها .

ومرت أيام قليلة عن نجاح يسرى ، ثم كان يوم اجتمعت فيه الأسرة حول مائدة الغداء يديرون الحديث بينهم رهوا فيه تكاسل السعادة وهدوء الأمن ، ودق الجرس فشخصت إلى الباب الخاجة زينب ، وانفرج الباب عن عزت باشا

يحمل في يديه هو لا يدى السائق لفافة ضخمة ، ودخل عزت باشا ومن ورائه إخلال هانم ، ثم محسن يتبعهم السائق يحمل لفافة واحدة ، وقد حلت يده الأخرى .

وقامت سميرة هانم من جلستها في فرح وشكر دون أن تطفى الفرحة أو يطغى الشكر على كبرياء طبعت به حركاتها ومخارج ألفاظها ، وقالت :

— أنت يا باشا تحمل اللفافة ... ألا تتركها للأسطى عنده يحملها عنك ؟

وقال عزت باشا في فرح صادق عميق :

— إن لم أحمل تورتة نجاح يسرى فماذا أحمل ؟.. حقا نشاركم في العشاء فهل لنا متسع ؟

وكان يسرى وخيرى وزيادة قد حفوا إلى عمهم وأسرته وقد أدهشتهم المفاجأة ، والتقت في قلوبهم خفقة شكر أحسها يسرى نفسه الذى طالما كفر بالعواطف . كانت المائدة هى مائدة هانم وهى مائدة تعودت أن تمتد ولا تصيق بوافد ، فامتدت ووسعت القادمين ووسعت ما حملوه معهم من هدايا ، وانتهى الطعام وقاموا إلى غرفة الجلوس ، وقال عزت باشا في صفاء :

— مبروك ثانية يا يسرى .

— بارك الله فيك يا عمى .

— أتظن أننى لم أعرف إلا اليوم ؟

— أظن ذلك .

— إنى أعرف بنجاحك في نفس اليوم الذى عرفت فيه أنت ، ولكننى تأخرت عامدا متعمدا .

وضحكت سميرة هانم وهى تقول :

— لماذا يا باشا كفى الله الشر ؟!

وقال الباشا :

— لم أرد أن أقول مبروك واحدة ... لا بد من مبروكين .

فقال خيري :

— فأما واحدة فنعرف أمرها ، وأما الثانية ...

فقال عزت باشا :

— فأما الثانية فلأنني حصلت ليسري اليوم على وظيفة في وزارة المالية ... ما رأيك يا أستاذ يسري ؟

وأحس يسرى دفء العطف يهل عليه من هذا الرجل الكبير ، وقال دون أن يمكر فيما يقول :

— أشكرك يا عمي ... أشكرك غاية الشكر .

وقال عزت باشا :

— هذه كلمة لا أحب أن أسمعها منكم يا يسرى يا ابني ... أبوك كان أخي ... وقد حاولت أن أؤدي واجبي نحوه فمنعني خيري ... منعني مرتين . وأعجبت به في المرتين وغضبت منه في المرتين ، فأنا مهما أفعل الآن لا أحس أنني أديت واجبي نحوكم ... أنتم أولادي ...

وشاعت في الحجرة موجة صامتة ، فيها شكر وفيها حنان وفيها مودة جمعت قلوبا على معان كريمة عميقة . وأحس خيري أنه لا يستطيع أن يقول شكرا ، وأحس يسرى أن آراءه ليست جميعها سديدة وأن من الناس من يستطيع أن يكون ذا قلب كبير ، وأحس أيضا أن شكره إن حاول أن يقدمه فسيترل في غير مكانه ، وقد يقطع هذه الموجة الحنون التي أظلت القوم حركوا نفوسهم لتلذها وتغمر في أسكويها .

٢٧

أصبح الصباح على يسرى وليس فى ذهنه إلا خاطر واحد يشغل تفكيره . لا بد أن يذهب إلى بيت عزت باشا ليشكره .. إذن فسأذهب ولا سبيل لى أن أنكص عن الذهاب ... إذن سأذهب دون أن أصل إلى غناه أو إلى غنى قريب من غناه .. بل سأذهب لأقول شكرا ... لقد غمرنى الرجل بفضله وعطفه ... أذهب إذن لأدفع ضريبة الفقر والعجز ، فلو كنت غنيا ما احتجت إلى وظيفة ، ولو كنت ذا سلطان ما احتجت إلى سعيه . ولكننى بلا مال ولا سلطان فلا بد أن أشكر وإلا أصبحت جاحد فضل ، وإن كانت هذه الصفة لا تعصمنى إن هى اتصلت بى . ولكننى إن امتنعت عن الذهاب ضاربا برأى أمى وأخى عرض الأفق فإننى قد أغضب هذا الرجل ذا المال وذا السلطان ، فيقف عن فضل رضاه ، ولا أستطيع أن ألجأ إليه بعد ذلك إن احتاجت حياتى الجديدة فى ظل الوظيفة أن ألجأ إليه . لا بد من الذهاب إذن ... ذهابا خاضعا ذليلا أترضى به وأشكر فضلا سابقا وأرجو به أفضالا جديدة ... فهاتى أيتها الحظوة هاتى ... هاتى مصائبك ... ما كان أغنانى عن الذهاب لو كنت غنيا ... أكنت أحتاج إلى وساطة أو كنت أحتاج إلى تقديم الشكر أو كنت أحتاج إلى عون أحد ؟.. المال ... المال وحده يستطيع أن يكون عونى ووساطتى وكل شىء لى . ولكن أبى هو لعن الله قلبه ... فلأذهب إذن . أى انتصار لأخى حيرى .. إن ذهابى سيجعله يوقن أن آراءه الحالمة صائبة وقد يجعله يظن أننى أصبحت حالما عاطفيا مثله ... سيحس النصر ولكنه سيسكت مصطنعا نبل الكرام عند هزيمة

أعدائهم ... أعرف أنه لن يذكرني بهذا العهد الذي قطعته على نفسي ألا أذهب أو أصبح في عنق عزت . أعرف أنه لن يقول لي ساخرا ما أقوله أنا لنفسي الآن « أأصبحت غبيا ؟! » لن يقول بلسانه ولكن سيفرح في نفسه أنه انتصر على ... ما شأني بفرحته ؟.. إنها الحياة أمامي ولا بد أن أقتحمها بكل سلاح ؛ وليفكر أخي بشأني ما شاء له التفكير ، وليفرح بنصره ما حلا له الفرح ، فأنا أنا لم يعيرني فضل عزت أو ظن أخي أنه انتصر ..

كم يتوق أخي أن يسألني الآن في ابتسامته الخالة : « أرأيت كيف تصل العواطف ما بين الناس ؟ ورأيت كيف سعى لك عزت باشا دون أن ينتظر منك شكرا أو يطمع في عوض عن حمله ؟ » .

الجواب عندي ولكني لو قلته له لصرح في وجهي وثار بي ولعنني أمي ... الجواب عندي ... أي عوض يطمع فيه عزت باشا أكثر من أن نظل نهارنا وليلنا نسبح بفضله وكرم أخلاقه ووفائه لصديقه المرحوم ولأسرته من بعده ؟.. أي عوض أعظم من أن نظل عمرنا أمامه صنيعة يديه وبعضا من فضله وقطعة من كرمه ؟.. أي عوض يرجوه أكثر من أن يتشدق الناس من حوله وحولنا بما صنعه لنا وما قدمه إلينا ؟.. دلتنا أمام كبره وصغرنا أمام فضله وانحناؤنا أمام عظمه عوض له أي عوض ... المال عنده فما اليأس به أن يجمع إلى المال ثناء الناس لعظمه علينا . لقد نال العوض وافيا بل زائدا ولكن لا بد مع ذلك من الشكر غاية الشكر ومن الذلة غاية الذلة ، ولا بد على كل حال من الذهاب .

كانت هذه الأفكار تدور في رأس يسري وهو يرتدي ملابسه ، وما زالت به حتى ارتداها ، وما إن هم بمغادرة الحجرة حتى دق جرس الباب الخارجي ودخل إليه محسن ابن عمه عزت باشا ... مشرقا كعهده مطمئنا فرحا :

— صباح الخير يا أستاذ .

— أهلا محسن ، صباح الخير .

وأدار يسرى عينيه فى الحجرة خجلا ، ثم ما لبث أن قال :

— نعال إلى الصالون .

— أى صالون ؟ وهل أنا غريب ؟ .. أراك منأنقا ... إلى أين تذهب ؟

— والله كنت أنوى زيارتكم لأشكر عمى الباشا .

— يا أخى عيب . أتظن أن عمك الباشا ينتظر شكرك ؟.. على كل حال لقد أرسلنى لأدعوك اليوم للغداء معنا ... عندئذ اشكره ما طاب لك الشكر .

— الغداء !

— نعم ... هل أنت على موعد ؟

— أبدا فقط . .

— فقط ماذا ؟.. هيا بنا الآن فقد أمرنى أبى أن أترك عملى اليوم لأذهب معك إلى وزارة المالية وأقدمك إلى الوزير .

— الباشا هو الذى أمرك بهذا ؟

— نعم ، وأى غرابة فى ذلك ؟

— لا ... لا غرابة ، ولكن لم أظن أنه سيذكر هذا جميعه .

— هل أنت عبط ؟.. ألا تعرف حبه لكم ؟ . هيا ... هيا بنا .

* * *

عاد يسرى ومحسن إلى بيت عزت باشا قبيل الغداء ، وقبل أن يصعدا إلى الطابق الأعلى سمع محسن نفير سيارة أبيه ، فانتظره هو ويسرى فى البهو ، وأقبل عليهما عزت باشا وأشرق وجهه حين رأى يسرى وسأله عما تم فى وزارة المالية ، فأنبأه أنه سيتسلم عمله بدءا من الغد . وحاول أن يشكر عمه ولكن الشكر توقف على شفتيه مترددا بين الانطلاق والجمود حتى غلبه الحياء آخر الأمر ،

فقالها شكرا مستحذية غير مقتنعة ولا متطلقة ، واكتفى الباشا بجملة عابرة « يا أحى عيب » . ثم أخذ بذراع يسرى وتقدم به إلى السلم يصعدانه معا وقد تمهما محسن . وما إن بلغا أعلى السلم حتى نادى عزت باشا :

— يا إجلال ... إجلال .

وجاء صوت إجلال :

— نعم يا عزت .

— تعالى ... تعالى رحبى باليك .

وظهرت إجلال من باب إحدى الغرف وهى تقول :

— باليك ؟!

فقال الباشا :

— نعم اليك الذى سينسلم عمله غدا فى وزارة المالية .

وقالت إجلال هائم وقد رأت يسرى :

— أهلا ... أنت محق يا عزت ... إنه لك فعلا .

وسيطر الخجل على يسرى فلم يجد ما يقوله إلا حمرة علت وجهه وهمهمة نشه الحديث وما هى بحديث ، أو تشبه الشكر وما هى بشكر ، إنما هى لعثمة تتحرك بها شفتاه ولا يبين عنها صوته .

كان يسرى قد غاب عن البيت سنوات ، ولولا أن عزت باشا كان يراه كلما زارهم هو فى منزلهم لتبين هذا الغياب . ولكن إجلال هانم كانت تبيت هذه القطيعة منه ثم لم تجعل لها فى نفسها شأنا مقدرة أنه شاب ذو أصدقاء قد يلهونه عن الزيارة كما تلهيه المذاكرة ، دون أن يخطر بها الذهن إلى هذه الأفكار الثائرة التى تمور فى ذهن يسرى .

ودخلوا جميعهم إلى حجرة الجلوس اليومى ، وما كاد الحديث يدور حتى

أقبلت إلى الحجرة قافزة ... إنها سنوات قلائل التى عاشها يسرى ... أتستطيع هذه السنوات القلائل أن تفعل كل هذا ؟.. أصبحت ربانة العود ، استوى بنيانها واحصل ، واكتملت أنوثتها وكادت تطغى ، لولا هذه النظرة الحزينة مائلة فى عينيها الزرقاوين وفى وجهها الهادئ المستسلم ، لا تمتنع عنه غشاوة الحزن تلك السمة التى ارتسمت على وجهها حين رأت يسرى ... ابتسامة طفلة كانت تلقاه بها حين كان يجيء ليلاعبها .. هناك فى هذه الأيام التى لم يكن يفكر فيها فى ثرائهم وفقره ... هى نفسها تلك الابتسامة البريئة لا تعرف الشباب ولا الأنوثة ، لا ولا هى تستشعر السنوات مررن فجعلن من الطفلة فتاة ومن الطفل ثائرا . وخالط عينيها بعض العجب ، لقد أصبح الطفل العربيد الذى كان يضع ملابسه على نفسه لا يعنى بوضعها أو مظهرها والذى كان يصر على الطربوش أن يكون فوق رأسه ثم لا يحفل به مائلا أو معتدلا ، منهارا أو مستويا ، والذى كانت عيناه الغريرتان لا تومضان إلا إذا هجست فى ذهنه لعبة خطرة من لعب الطفولة تستهدف تسلقا أو قفزا ، أو تستهدف معاكسة لخادم أو تقليدا لمشية كبير من كبار البيت ... أصبح هذا الطفل أنيق الملبس يختار رباط العنق ملائما للحلة ، وأصبح بلا طربوش إنما هو شعر كثيف يغطى رأسه وقد جرى فيه المشط فهو مستو مستقر المكان ، وأصبح وهو ذو عينين عميقتين فيهما ذكاء وفيهما وقار وإن بدا مصطنعا ، وأصبح هو ذو وجه بارحته آثار الطفولة فهو صلب محدد المعالم . ولكن الأيام لم تستطع أن تغير لون عينيه السوداوين ، ولا أن تغير تلك السمرة التى تشوب وجهه ، ولا أن تغير شفتيه الغليظتين بعض الشيء ، وإن كانت الأيام قد عدت على تلك البساطة التى كانت تنسم بها شفتاه فإذا هما اليوم شفتان فيهما عزم يؤيده ذلك البريق المصر الذى يشع من عينيه ... عينين تعرفان طريقهما وترودانه فى ثقة ، وإن يكن تفتيشا حائرا قلقا .

قالت فايزة بعد هنيهة :

ــ أهلا يسرى .

ووقف يسرى وفي وجهه بعض دهشة :

ــ أهلا فايزة .

ولم تسمع فايزة ما يقول وإن كانت فهمته ، وقبل أن يعود الحديث إلى أفواههم أقبلت دولت تتبع فايزة ، فقد تعودت أن تلازمها وأن تكتب لها ما يراد لها أن تسمعه . ووقف يسرى يسلم على دولت لم تختلج يده ولا يدها ولا طرفت عينه ولا عينها ، وإنما هي تحية طبيعية لا تنم عما كان بينهما في اللقاء القريب .

ودار الحديث بعد ذلك شتى مناحيه ، ولاحظ يسرى ما تقوم به دولت من عون لفايزة ولكنه لم يظهر أنه لاحظ ، وما لبثت خاطرة أن هفت إلى ذهن يسرى ... ماذا لو تزوج فايزة ؟! إنها صماء ؟ وهذا هو طريقه الوحيد إلى الزواج بها .. أفكان يقبله عزت باشا لو لم تكن صماء .. وما البأس بالصمم ؟ أيريدها مراقبة في الإذاعة أم يريدها زوجة ... ويريدها غنى وعزا ؟! ماذا عليه لو تزوجها وعاش في هذا القصر حلت حياته من الفقر وفرغ إلى الغنى والملهية ؟ الوحيد الذى سيدرك الدوافع التى حدت به إلى هذا الزواج هو خيرى ... بل وقد تدركها أمه أيضا ، ولكن ماذا عليه لو أدركا ؟.. ومنذ متى أقام لرأيهما أو أدراكهما وزنا ؟.. إنها حياته وإنها فرصته وما كان ليتركها ... إن الأغبياء الذين ولدوا فقراء لم يصلوا إلى الغنى إلا بخطوة من هذه الخطوات الحاسمة في حياتهم ... يقدمون على تجارة يطبها الناس بائرة وإذا هي رابحة ، فما لى لا أتخذ هذه الخطوة في حياتى ؟. إن أحدا لم يطلب فايزة لأنها صماء ... جهل من الخطاب وحمق ... أتترك هذه الثروة جميعا لأن العروس صماء ... وكانت نظرته مثبتة على فايزة ودولت ، فما لبثت دولت أن أوحت إليه بحجة أخرى ... إنه سيتزوج

كلتيهما ... أما فايزة فعلى سنة الله ورسوله لأن الثروة لا يمكن أن تأتيه إلا على سنة الله ورسوله ، وأما دولت فعلى مألوف ما جرى بينهما ولن يحتاجا بعد ذلك إلى بيت أخيها ، فسيكون بيت فايزة مكانا لهما يلتقيان فيه ما شاء لهما اللقاء ، ويصطحبان به أيضا فإنها لن تسمع ...

إن للصمم فوائد كبرى فهو سيتيح لى هذه الريحة التى ما كنت لأطمح إليها أو أصبو ، وهو سيتيح لى أيضا أن أحادث دولت أمامها ما شئت من حديث ، ومن يدرى فقد يتيح لى بعد ذلك مكاسب أعظم وأصحم ... أما لو تحقق هذا الأمل ؟ إذن فوداعا للفقر ، ووداعا للحلة الواحدة والشقة الضيقة .

وقبل أن يدعوهم الخادم للغداء أقبلت وفية فى سمتها الرفيع الجميل وقد أمسكت فى يدها بابنها عزت ، ورحبت بيسرى ترحيبا بالغا وعانته على غيته عنها هينا لا مرارة فيه ، ولم تجلس وفية فقد دعى الجميع لتناول الغداء .

وعلى المائدة ظل يسرى يحملق فى فايزة ودولت ، ولم يلحظ الأب ولم تلحظ الأم ولم يلحظ محسن فقد شغلهم الحديث والطعام . وكانوا قد يئسوا أن ينظر أحد — أى أحد — إلى فايزة على أنها فتاة تصلح للزواج ، اثنان لحظا هذا الإنعام الصامت الذى ينظر به يسرى إلى فايزة ... دولت ووفية ... فأما دولت فقد ظنت أنه ينظر إليها ويصطنع النظر إلى فايزة حتى لا يفتضح أمره وفرحت بهذا الظن وارتاحت إليه مطمئنة واثقة .

وأما وفية فقد دهشت أول الأمر ثم تملكها الذعر . ماذا يريد هذا الفتى من أختى الصماء ؟! مادا يريد ؟!

٢٨

انفرد يسرى بأخيه خيرى وقد كسا وجهه جد واهتمام :

— آبى خيرى ! إنى أريد أن أتزوج .

ودهش خيرى من هذا الحديث ، ثم ما لبثت موجة من الفرح أن طغت على محياه . إذن فقد أدى الأمانة التى حملها وكبر أخوه الأصغر وتقدم يطلب الزواج .

— ما أحب هذا إلى يا يسرى ... هل اخترت الزوجة أم هى فكرة عامة وتريد أن نبحث معا عمن تليق بك ؟

— بل اخترت .

— حقا !؟ من هى ؟

— فايزة .

وانتفض خيرى كالملسوع صائحا فى دهشة وخوف :

— من ؟!

ولم يحمل يسرى انتفاضة أخيه ولا دهشته وخوفه ، وإنما أعاد الاسم فى هدوء ثابت واثق :

— فايزة .

وقال خيرى كما لو كان قد أخطأ السمع :

— تقول فايزة يا يسرى ؟

— نعم يا آبى خيرى ، وما البأس ؟

وصمت خيرى بعض الحين بعد أن وثق أنه لم يخطئ السمع .. لقد كان يعرف أن يسرى يحب الغنى ولكنه لم يتصور أنه يحبه إلى هذا المدى . ولم يعد يفكر في يسرى فهو يعلم أنه يستطيع أن يعمل ما يشاء ، ولكنه أصبح يفكر في فايزة وفي وفية وفي عمه عزت .. في هذا البيت الذى لم يصيبوا منه إلا الخير كل الخير . وقد ملأت الخشية قلبه أن يرد لهم أخوه خيرهم جحودا ونكرانا .. فهو يعلم أخاه . صمت مفكرا وأطال التفكير حتى قال أخوه :

— هيه ... ما رأيك ؟

وقال خيرى يائسا :

— أيفيدك رأيى كثيرا ؟

— إنك أخى الأكبر وأنت من ربيتنى .

— أتأخذ برأيى إذا قلته ؟

— هذا يتوقف على رأيك .

— إذن فلا قيمة له .

— عفوا أنا لم أقل .

— بل قلت ... أنا أعرف أنك لن تعمل إلا برأى نفسك ، أما إن شئت رأيى فأنا غير موافق .

— ولماذا ؟

— أنت تعرف لماذا

— لا ... لا أعرف .

— لأن فضل عزت باشا كبير علينا ، ولا يجوز لك أن ترد فضله بأن تطمع في ثروة ابنته ، فإنك لا تريدها إلا لثروتها . وحين تصبح هذه الثروة بين يديك ستذيقها ألوان العذاب وإلى أراك ظالما ؟

— أهو ظلم أن أتقدم لفتاة لن يتزوجها أحد وأتزوجها ؟

— إنك تتزوج مال أبيها وستظلمها وهي مسكينة عاجزة لا تستحق ما تدبره لها

— ولماذا تظن أني أدبر لها شيئا ؟

— هل تحبها يا يسرى ؟

— يا سلام يا أبي حيرى ؟ أتظن أن الزواج لا يقوم إلا على الحب ؟

— لا ولكني أعلم أنه لا يقوم على الطمع .

— ألست أولى من الغريب ؟

— بل لا ... أنت تعرف أن أحدا لن يطلب فايزة ، وإذا فكر أحد المحبين للغنى من أمثالك في التقدم لها ، فإن ذكاء أبيها سيحول دون هذا الزواج لأنه يعلم أن من يتقدم لها إنما يطمع في مالها لا غير .

— أتراه يظن بي هذا الظن ؟

— لا ... فإنك ابن عمه أو صديقه ، ولا يمكن أن يفكر فيك على أنك طامع في مال ابنته .

— فمالك أنت تفكر هذا التفكير إذن ؟

— لأني أعرفك يا يسرى ... لأني أعرفك ... لقد توهمت لفترة أنك تكثر من الذهاب إلى بيتهم لتعبر عن شكرك ، وإذا بي مخطئ ، وإذا أنت لم تتغير . المال بالنسبة إليك كقطب البوصلة لا تتجه إلا إليه .

— وماذا يضيرك في هذا ؟

— أخاف أن تسيء إلى هذا البيت .

— لا تخف .

— أتنتظر أن يزول خوفي بمجرد قولك لا تخف ؟.. لا .. لا أستطيع القول .

— إذن فلن تعطيها لى .

— أنا ... موتى أهون .

— إذن فلا تعصب أن أطلبها أنا .

— أنت حر .

— لا أظن مثاليتك ستجعلك تذهب إلى عزت باشا تجره أنى طامع فى مال ابنته .

— لا أستطيع فأنت أخى ، ثم إنى غير واثق أنك ستسىء إليها ، عليس لى أن أسبق المستقبل .

— هذا كل ما أطلبه منك .

— إنه ليس هينا ما تطلب ... كان الأجدر بى أن أنبه الرجل ... ولكن ماذا أقول له ... ماذا أقول ؟

٢٩

اعتنى بسرى بهندامه أقصى ما تكون العناية وكرر النظر إلى المرآة ، وأطال التحديق فى كل مرة حتى اطمأن أن ليس بعد عنايته زيادة لمستزيد ، وترك غرفته إلى حجرة أمه فنظرت إليه ملياً ثم قالت :

— إلى أين ؟

— إلى بيت عمى عزت باشا .

— أنويت تفاتحه اليوم ؟

— نعم ما دمت مصممة ألا تفاتحى أنت إجلال هانم .

— أنا والله يا ابنى أخجل أن أفعل .

— هل فى الزواج ما يخجل !؟

— لو لم أكن أعرف حبك للمال وطمعك فى العروس ما خجلت .

— هل معنى ذلك أن تفاطعى الزيجة بأكملها ؟

— بالطبع لا .

— إذن فماذا ستفعلين ؟

— إذا قبلوا فسأذهب وأقدم الشبكة وأفعل كما تفعل أم تفرح بأول زواج يتم فى بيتها ، وسأظل بعد ذلك أدعو الله أن يهديك ويسترك ، ويكرمنا مع هذه العائلة التى لم نر منها إلا كل خير .

— إن شاء الله كل خير ... أمصممة أنت على عدم الذهاب ؟

— طبعا .

— إذن أستأذن أنا .

— ربنا يوفقك .

وبهذا الدعاء الفاتر ترك يسرى أمه واستقبل الطريق يقطعه فى عزم وإصرار ، حتى إذا بلغ بيت عزت باشا وجد حجرة مكتبه منيرة ووجده بها منفردا يقرأ ، فحياه فى أدب وجلس إلى كرسى مقابل له ، وعاد الباشا إلى القراءة لحظات ثم ترك ما بيده وقال ليسرى :

— لعلك مرتاح فى عملك يا يسرى .

— مرتاح يا عمى كثير جدك .

— إن أردت أى شىء أنت تعلم طبعا أننى دائما مستعد لأدائه .

— أعلم يا عمى .

وانقطع الحديث فترة ، وران الصمت على الحجرة ثم قال يسرى فى بعض لعثمة :

— يا عمى إن لى عندك أمنية .

— قلها .

— لقد أصبحت بفضلك موظفا وأنا أحمل شهادة عالية ، وأملى كبير أن أرتفع فى الوظيفة أو أشق طريقى فى الشركات إن سنحت الفرصة .

— هذه مقدمة طويلة ... خير .

— عمى إننى أريد ...

وانقطع السيل المندفق كما لو كان آلة أصابها العطب فجأة ، وتلعثم يسرى ووجد أن الأمر ليس باليسر الذى ظن .

وقال عزت باشا وقد حبل له أنه يعرف ما يريد :

— يسرى قل ماذا تريد ؟

وعلت وجه يسرى حمرة وارداد اسانه لعثمة ووقف به الحديث ، فقد وقف عقله عن العمل أو كاد وراح يردد فى حمحل :

— أريد ... أريد .

وقال عزت باشا :

— شكلك يدل على أنك تريد الزواج

وكأنما وجد يسرى ضالته فقال فى سرعة وفى صوت حفيض :

— نعم .

واستطرد عزت باشا :

— وتريد سلفة ؟

وقال يسرى فى حزم :

— لا .

— من العروس ؟

وعادت اللعثمة إلى يسرى مرة أخرى :

— إنها ... إنها ...

وقال عزت باشا وقد كاد يضيق :

— يا أخى قل ... مم تخجل ؟

. . كانت هذه الجملة سريعة المفعول ، فقد وجد يسرى نفسه يقول فى سرعة :

— أريد فايزة بنت معاليك .

ووجم عزت باشا فما كان يظن أنه سيسمع أحداً يخطب فايزة أبداً ، ولم يذهب به الظن أن هذه المقدمة الطويلة التى ساقها يسرى كانت تمهيداً لهذه النهاية ، واختلطت مشاعره بين فرح وذهول ، وبين خوف وإشفاق ، وبين حذر

وريبة ، ولم يجد شيئاً آخر يقوله ليسرى إلا :

— يا ابنى أنا لم يخطر لى هذا التفكير على بال . وعلى كل حال فايزة أختك ، ولكن أتمانع أن تترك لى بعض الوقت لأسألها وأسأل أمها ؟

وقال يسرى :

— أنا تحت أمرك يا عمى . متى أجىء ؟

— وهل تجىء إلى بمواعيد ؟.. تعال فى أى وقت شئت ، وسأجيبك حالا .

— أشكرك يا عمى ... أشكرك .

وقام يسرى واستأذن وانصرف ، لم يخالجه الشك أن عمه سيقبل .

ولماذا يرفض وأين يجد مثل لمثلها ؟.. قال أختك ... أختى لأنها صماء ... أتراها كانت تطل أختى لو لم يكن بها ما بها ؟.. أختى ... مفهوم يا معالى الباشا مفهوم . أتريد فترة للتفكير ؟.. لك ما تشاء من فترات فإنك ستقبل يا معالى الباشا ، سيقول عنك الناس وخاصة أقاربنا إنك رجل عظيم رعيت القرابة والصداقة القديمة وأنت فى نفس الوقت ستروج ابنتك التى لم تطمع أن تزوجها فى يوم من الأيام فتجمع إلى رواج ابنتك ثناء الناس . فلك من فترات الزمن ما تشاء ولكنى أعلم أنك ستقبل .

* * *

مكث عزت باشا فى مكانه يفكر فى هذا الأمر الجديد ... أتراه يحبها أم تراه يطمع فى مالها ؟ أم تراه يطمع فى مكانتى أن تطله ؟ أم تراه يريد الرواج مجرد الرواج فوجد فى فايزة المال والسلطان وتعامى عما بها من مرض ؟.. ولكن كيف ؟.. إنها لا تسمع مطلقا ... لعله يريد أن يشكرنى على تعيينى له ، ولعله لم يجد ما يعبر به عن شكره إلا أن يفقد ابنتى أن تكون عانسا ؟ أما هذا فلا ... إننى أقبل أن يتزوجها يسرى بن همام حتى وإن كان طامعا فى مالها ولكننى لا أقبل أن

يزوجها أحد على الإطلاق لمجرد أنه يريد أن يقدم شكره لى ... لا أرضى لاسى هذا المكان ، ولا أرضى ليسرى أيضا أن يقدم حياته كلها لى لمجرد شعوره بالجميل نحوى ... أما هذا فلا أقبله ...

وقام عزت باشا متثاقلا يقلب الآراء جميعها فى ذهنه حتى بلغ إجلال هانم وجلس إليها مفكرا ما يزال ، وتركته هى لصمته بعض الحين ثم قالت :

ـــ مالك يا عزت ؟

فقال دون ريث تفكير ، فقد كان يريد أن يقول دون سؤال :

ـــ يسرى خطب فايزة .

وتمتمت إجلال هانم الخبر هينة ، ثم أشرق وجهها بالفرح وقالت :

ـــ صحيح ؟

ـــ ما رأيك ؟

ـــ وهل نجد لها خيرا منه ؟

ـــ ألا تخشين شيئا ؟

ـــ أن يكون طامعا فى مالها ؟!

ـــ لا ... ليس هذا ما أخشاه .

ـــ إذن ؟!

ـــ ألا تخشين أن يكون يسرى يحاول أن يضحى بنفسه ليشكرنا ؟.

ـــ يا أختى ما هذا الكلام ؟.. إنك لم تقدم له ما يجعله يضحى بنفسه من أجلك . إنك عينته وليست هذه بالخدمة التى يضحى من أجلها شاب فى سن يسرى بمستقبله كله ... لو لم يكن يريدها ما طلبها ... دع عنك هذا التفكير .

ـــ لعلك على حق ولكنى على كل حال سأسأله .

ـــ أنت حر ، ولكن ألا تسأل فايزة ؟

— بالطبع ... ولكن سأنتظر حتى أتأكد من رغبته فإننى أخشى ألا يكون واثقا من شعوره أو يكون مندفعا فى تيار التضحية فتصدم البنت صدمة عنيفة .

— ما ترى .

* * *

جاء يسرى إلى البيت بعد يومين ، وانفرد به عزت باشا وبدأه قائلا :

— يسرى هل أنت واثق أنك تريد فايزة ؟

وقال يسرى فى حرارة ، فقد أصبح الأمر ميسورا بعد الحديث الأول :

— بالطبع يا عمى ... إنها أمنيتى .

— يا ابنى أنا لم أفعل لك شيئا يذكر . وإنى سعيت من أجلك لتعين أمر لا يستحق منك أن تبذل أى تضحية ، فإن كان طلبك هذا مبعثه شكران أو إحساس بالمعروف فأعف بنى العاجزة أن تكون وسيلة لشكرانك ، وأعف نفسك من مستقبل طويل فى ظل زواج لا يقوم على أسس سليمة .

وأحس يسرى وخزة ألم أن يظن به عمه هذه المثالية التى لم تخطر فى ذهنه على بال ، ولكن سرعان ما استجمع نفسه وهو يقول :

— إنك يا عمى قد قدمت لنا أفضالا كثيرة ، وقد رعيتنا خير رعاية بعد وفاة المرحوم والدنا ، وقد عينتنى وعينت أخى حيرى من قبل ... لقد بذلت لنا الكثير ولكن زواجى من فايزة أعتبره أنا إذا سمحت به أكبر فضل أضفيته علينا .

— أنت واثق من شعورك هذا ؟

وقال يسرى فى حزم :

— كل الثقة يا عمى .

— إذن فأنا موافق على الزواج ومرحب به ، وكذلك إجلال ، ولكن لا بد أن أسأل فايزة ... وقريبا ستسمع الجواب .

* * *

جلس عزت باشا وإحلال هانم فى حجرة النوم وطلبا فايزة أن تحضر إليهما . وما إن استقر بها مجلسها حتى لاحظت هذه الإشراقة على وجه أمها ، وتلك الابتسامة المترددة بين الخوف والفرح على فم أبيها ، فانتظرت حتى ترى ما يخبيان . وقدم إليها أبوها ورقة مكتوبا عليها « يسرى يريد أن يخطبك » . وامتقع وجهها فى اندهاشة المذهوه الذى لا يتوقع ، وسارع لسانها يقول فى عجب :

ـــ أنا ؟!

وهز أبوها رأسه وهزت أمها رأسها أن نعم . وقالت الأم « نعم » . وفهمت فايزة الإيماءة واستنتجت حركة الشفاه استنتاجا ، ثم سكتت وما لبثت الدموع أن أشرقت من عينيها وهى تقالبها فى حيرة ودهول وقد انعدمت مشاعرها لا تدرى أخير ذلك الذى يعرض عليها أم هو شر ، فهى لم تفرر من أمر نفسها شيئا منذ أدركت الأشياء ، وها هى ذى تواجه هذا الأمر ... أهم ما يؤخذ فيه رأى فتاة ... إنها حياتها ... فكرت بعض الحين ثم قالت :

ـــ وأتركهما ؟!

وأشار أبوها أن لا ، وقالت الأم « لا » ففالت فايزة :

ـــ ما رأيكما ؟

وكتب لها أبوها أنهما موافقان ، فقالت :

ـــ لماذا يخطبنى ؟!

وكتب لها أبوها « ابن عمك ويريدك ، ما الغرابة فى هذا ؟ » .

وقالت :

ـــ إننى صماء ... كان يستطيع أن يجد خيرًا منى .

وقالت الأم « ليس فى العالم خير منك » فلم تسمع وكتب أبوها « إنه يريدك ويلح » .

وقالت :

— ألا تخشى أن يكون وراء رغبته شىء آخر ؟

وكتب لها أبوها « لقد تأكدت من حقيقة شعوره » .

فأطرقت هنيهة وغاص دمعها وهى تقول :

— الأمر أمركما ، افعلا ما تشاءان .

وخرجت فايزة من الحجرة ولجأت إلى حجرتها ولحقت بها دولت ، فطلبت إليها أن تتركها بعض الحين . وما إن غادرت دولت الحجرة حتى انخرطت فايزة فى بكاء عنيف ... أهكذا يا يسرى ؟.. أتطمع فى مالى وتنتهز فرصة مرضى حتى لا أستطيع الرفض ؟.. كيف أرفض ؟ ماذا أقول لأبى وماذا أقول لأمى ؟.. إن الفتاة حين ترفض تكون واثقة من نفسها عالمة أن الكثيرين سيتقدمون إذا هى لم تتزوج ممن ترفض ، أما أنا فماذا أنتظر ؟ ومن يتقدم إلى إذا لم أقبل يسرى ؟ ولكن أيقبل هو هذا ؟.. أينتهز مرضى ليتزوج منى ؟.. كيف أقتل هذه الفرحة النشوانة فى نفس أبى ؟ وكيف أقسو عليه وأقضى على هذا الأمل الذى ظل زمنا طويلا يراوحه ويغاديه ضعيفا يائسا حتى أصبح حقيقة ؟ كيف أقضى على هذا الأمل بعد أن تجسم أمامه واكتمل فى شخص يسرى ؟.. كيف أستطيع الرفض ؟.. هى حياتى البائسة . آمالى آمال الآخرين . وقدرى يخطه أبى وتخطه أمى والغريب عن الدار ولا يد لى فيه ... بماذا أقرر لنفسى مصيرها ؟ بأذنى التى تعزلنى عن الناس ، وتضعنى فى عالمى وحدى بلا شريك ولا أنيس ؟ بأى حق أقول لا أو نعم ؟ إنما أنا ما يريدان لى أكون لا أملك من أمر نفسى أمرا ... فليفعلا ما يشاءان ، وليس لهما منى إلا أن أطرق كما أطرقت وأسلم إليهما أمرى كما أسلمت .

واشتد بكاؤها فدخلت إليها دولت وفى عينيها من السؤال ما يغنى عن السؤال ، وجلست دولت ولم يطل بها الجلوس بل قالت فايزة تجيب السؤال

المطل من عينيها :

— يسرى يريد أن يخطبنى ؟

ودقت دولت صدرها وهى تقول :

— من ؟

ولم تسمع فايزة وإنما ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وهى تقول :

— يطلبنى ويلح فى طلبى .

وازدادت نبرات صوتها سخرية وهى تقول :

— وأين يجد خيرا منى ؟..أذنان تسمعان الهمس وصحة مكتملة ... إنه يريدنى لذاتى لا لمالى ... أليس كذلك ؟.. قولى إنه كذلك .

ولم تقل دولت شيئا إلا :

— ابن الكلب السافل .

ولم تسمع فايزة شيئا ، بل استمرت فى ثورتها المريرة الساخرة :

— بنت عمه ، وماله لا يخطب بنت عمه ؟.. وماذا تستطيع أن تقول بنت عمه ؟.. هل عندها خطاب غيره ؟! إنه الوحيد الذى وازن بين مالها وصممها فوجد المال أعظم مخطبها ... أتستطيع أن ترفض ؟.. وماذا تقول إن رفضت ؟.. إنها ما زالت صغيرة ، ومن سيخطبها حين تصبح كبيرة ؟.. إنها لا تريد الزواج ، وماذا تصنع الفتيات إلا الزواج ..إن الوقت متسع أمامها ، ومن سيسأل عنها فى هذا الوقت المتسع ؟.. لا بد أن تقبل بنت عمه ... وإن كانت تعرف أنه يخطب مال أبيها ... نعم وإن كانت تعرف ... ولتقم الأفراح والليالى الملاح ، فسيتزوج ابن العم من ابنة عمه الصماء ... فوافرحتاه .

وارتمت فايزة على السرير باكية فى نشيج عال أليم حتى لم تستطع دولت إلا أن تنسى ما أصابها من هذا الخبر ، فراحت تربت فايزة فى إعزاز وحب وإشفاق ،

وأحسست حينذاك أنهما كلتيهما طعينتان بسكين واحدة . هي يسرى .

ودق جرس التليفون وظل يدق فترة حتى وافاه أحد الخدم ، ثم لم تسمع دولت الخادم يتكلم وإنما سمعته يضع السماعة مكانها ، فعرفت أن يسرى يطلبها ، فعزمت ألا تجيبه فى المرة الثالثة ، ودق جرس التليفون ثانية وتردد ، وسارع الخادم ، فكان حظه من الحديث كحظه فى المرة الأولى ، ودق الجرس ثالثة فقصدت هى إليه وسمعت يسرى يقول ردا على صوتها :

— غدا فى الساعة السادسة .

ووضعت السماعة وعادت إلى فايزة واحتوتها بين ذراعيها ، وتمخرت دموعهما معا .

٣٠

أكنت أطمع فى الزواج به ؟!... إذن فمالى قد عصفت هذا الغضب ؟. شاب متعلم موظف ابن ناس ... أكنت فكرت حين أسلمت نفسى له أنه سيتزوجنى ... لعل هذا التفكير راودنى عن أخيه ، أما عنه هو فلم أكن أفكر فى الزواج به على الإطلاق . لماذا لم أفكر ؟ لست أدرى ... فما هذا الغضب الذى تولانى ؟.. ألعلى عاصية لأنه لم يبقنى ... أم لعلى عاصية لأنه سيكون فى أحضان غيرى ... بعلمى ... أم لعلى مشفقة على فايزة ... أم ترانى عاصية وإنما كنت مأخوذة باليأس حين سمعته ... ماذا أقول له حين ألقاه ؟. وماذا تراه يقول هو ؟.. إننى لا أستطيع عنه غناء ... إنه الرجل الوحيد الذى عرفته فكيف أغنى عنه ؟.. سأقبل عذره ... أى عذر يلفقه ...

ولكن أترى ألفاه كما عودته فى بهجة أم أصطبغ العضب ؟. لأترك هذا إلى ما تمليه على نفسى عند اللقاء . والإثم يدوم بى هذا الحال ؟.. ألا من نهاية ؟.. لقد ضمنت الآن على أية حال أنني سألازم فايزة حتى بعد رواحها ، وأين أجد زوجا مثل يسرى ، ولكن ماذا بعد ؟.. إننى أكبر مع الأيام وأخشاها ... إنها رهيق عادر هذه الأيام فماذا تخبىء لى ؟ لو أن أخى بذل بعض الاهتمام بى ، ولكن كيف ؟ لقد فعلت رحلته ما كان بيننا من صلة هينة وازداد التباعد بينما حين استقل ببيته وتركنى فى هذا البيت ... أما كنت حليقة أن ألقى واحدا من زملائه فى بيته فيطلبنى ؟ ولكن أأستطيع اليوم الوصول إلى زواج كهذا ... وكيف ؟ ألا يجدر بى أن أبحث هذا الأمر مع يسرى ؟. نعم ... لا بد من ذلك ... مبلغ يسير من المال أعود فتاة كما كنت فإنى أعرف الحاجة توحة ، وهى ما زالت تقوم بهذه العمليات ... سيستطيع بعد زواجه أن يدبر لى ما أريد ... لا شك أنه سيستطيع .

بلعت دولت بيت أختها وفتح لها عم إدريس الباب ، وما هى إلا هنيهة حتى كان عم إدريس فى طريقه إلى مقهاه وفى جيبه خمسة وعشرون قرشا .

ولم يتأخر يسرى ووجد الباب مفتوحا ، فدخل ووجدها جالسة فى البهو على الأريكة التى شهدت أول الصلة بينهما . وكانت لا تزال تدير فى رأسها هذه الأفكار عن مستقبلها وماضيها وقد غشيت وجهها سحابة من الحزن ، لا قاها هو بابتسامة عريضة :

— لا ... لا ... لا أطيق هذا الوجوم ... إنه لا يتفق وهذا الجمال .

ولم تستقبل الدعابة إلا بنظرة غير مبالية وهى تقول :

— أكنت تنتظر الزغاريد ؟

وكان مدركا ما بها فقال :

— أنت عاصمة ؟
— ذكي ... عرفتها وحدك .
— مالك ؟
— ولد ... ألا تعرف مالي ؟
— لا والله .
— يسرى أتراني ساذجة ؟
— العفو ، من قال ذا ؟
— أنت ... ألا تعرف مالي ؟
— افهميني .
— يسرى ... حط مخك في رأسك ... ألا تعرف إلى من تتكلم ؟
— ألأنني خطبت عايزة ؟
— هأنتذا تعرف .
فقال يسرى وابتسامة تعلو شفتيه :
— وماذا يغضبك في هذا ؟
— ألا تعرف ؟.. ألا تعرف ماذا يغضبني في هذا ؟
— اسمعي يا عبيطة ... إنني حين أتزوج فايزة سأكون معك دائما .
— ماذا كسبت أنا ؟
— غدا تعرفين ماذا كسبت ... هل أنت محوتة ... ألا تدرين الفوائد التي نجنيها من هذا الزواج ؟.. لقد طلقتك اليوم لتفهمها بالزواج إن كانت غير راغبة .
— وأما يا يسرى ؟
— أنت في عيني ... ألا تعرفين مكانتك عندي ؟
فقالت ساخرة :

— أعرفها تماما .

— لا والله ، أنت لا تعرفين شيئا ... غدا تعرفين ... المهم الآن أن تقنعيها .

وصمتت دولت . لم تنبته أن فايزة قد قبلت الزواج مرغمة ، فقد أرادت أن تنتهز الفرصة لتظهر له أنها صاحبة الفضل فى هذا الزواج عسى أن ينفعها هذا فى أيامها القادمة . ولم يتركها يسرى لصمتها بل قال :

— هيه ! ماذا قلت ؟

— وماذا عساى أقول ؟

— هل سأل الباشا فايزة عن رأيها فى الزواج ؟

— نعم .

— وماذا قالت :

— لم تقل شيئا .

— كيف ؟

— تركته وخرجت إلى حجرتها ، وقد ظلت تبكى طول يومها أمس .

— أهى التى أخبرتك بالخطبة ، أم كنت معها حين أخبرها أبوها ؟

— هى التى أخبرتنى .

— ولماذا تبكى ؟

— ألا تعرف ؟!

— ألا تريد الزواج ؟

— إنها تعتقد أنك تريدها لمالها .

— وماذا قلت لها ؟

— وماذا كنت تريدنى أن أقول ؟!

— ماذا قلت ؟

— أما أعرف أنها سادجة وصعيفة .
— إذن فقد وافقت على زواجها بى .
— أنت والله لا تستأهل هذا العطف منى .
— أبقاك الله لى .
— أبعد يدك .
— أنت أعظم إنسانة فى العالم ... هذا ترين كيف أعوضك عن هذا .
— كلام !!
— عذا ترين .

٣١

وأقيم الفرح ... فرحا متألقا ، وجلست فايزة إلى جانب يسرى يحف بهما الورد أكداسا ، وكان يسرى فرحا غاية الفرح ، وكانت فايزة تعسة يملأ الخوف قلبها رعما تكاد تثق أن زوجها هذا لم يتزوجها لذاتها ، وإنما لمالها ، ومع ذلك لا يزال وامض من الأمل يراوحها ويعاديها تذوده عن نفسها باليأس القاتل المرير . حتى إذا بارحها هذا الوميض المتهافت وحلت إلى اليأس وحده خالصا عادت تسترجع وامض الأمل تجد فيه راحة ، ثم ما تلبث أن تجد فى الشك عذابا يعدل عذاب اليأس أو يزيد ، فظل تتقلب بين نيران الأمل ولوادع اليأس يملأ الرعب قلبها على الحالين ، ويسرى بحوارها ينظر إلى الراقصة نظرات حريئة وينظر إلى المستقبل نظرات مقتحمة ، يطمئن نفسه أنه بلغ من الحياة ما يريد أن يبلغ . وتلتقى عيناه بعينى أمه فيجد فيهما الخوف فيشيح عنها إلى الدكتور حامد ،

فيجده قرحا مطمئنا منتسما مقبلا ، وإذا النقت عيناه بعيني دولت وجد فيهما تساؤلا ووجد في شفتيها ابتسامة المتفضل إلى المفضول ، وابتسامة حامل السر يدنيها لمن يحمل سره .

وبحث بسرى عن أخيه خيرى فلم يجده ، فخطر في ذهنه أن يبحث عن وفية فلم يجدها أيضا ، فقال في نفسه « لعلهما التقيا ولعلهما الآن يتذاكران الهوى القديم » ، ثم يبتسم ساخرا من أفكار أخيه الخيالية ويعود إلى الرافصة يمعن النظر في جسمها اللدن يتأود أمامه فيرى فيها قرحة الدنيا التي يقبل عليها .

ولم تكن وفية ولا كان خيرى في البهو الذي أفهم فيه الفرح ، فقد انتهزت وفية خلسة من الناس وأومأت إلى خيرى أن يتبعها فتبعها ، وصعدت إلى الطابق الأعلى وهو وراءها . حتى إذا اطمأنت إلى بجوة من العيون جلست وجلس وقالت وفي عينيها خوف ولهفة :

ـــ خيرى ... لقد أردت أن أراك منذ وقت طويل .

وقال خيرى في هدوء :

ـــ نعم أعرف .

ـــ لماذا لم تأت ؟

ـــ لأني أعرف ما تريدينني فيه

ـــ هل أحبك مثلك ؟

ـــ أتريده كذلك ؟

ـــ بل أرى فيه صفا من الناس يختلف عنك كل الاختلاف .

ـــ إذن فقد أدركت .

ـــ لا شك .

— أنا لا يد لى فى الأمر .

— وهذا أدهى .

— وماذا تريدينى أن أفعل ؟

— أما كان جديرا بك أن تحذر أبى ؟

وأطرق حورى مليا وقد ران الصمت على الحجرة فقالت :

— لماذا لا تجيب ؟

— يا وفية قدرى ظرفى ... ماذا ترين كنت أقول ؟ وكيف أعتمد على مجرد الاستماع لأطلب إليه أن يرفض يسرى ؟... لعله ... لعله — لعله — من يدرى — يدرك الفضل الذى أسبغه عليه أبوك فيحسن معاملتها ؟

— أتضيع أختى من أجل لعله ؟... لعله ... أنت تعرفه ... إن شخصا يقدم لبتزوج من فايزة الصماء ... ماذا أقول ماذا أقول ؟... لماذا يا حورى سكت ... لماذا سكت ؟

— كان الأمر أقوى منى يا وفية ... إنه أخى .

— أليست فايزة أختك ؟... وهى عاجزة يا حورى ... ماذا سيصنع بها ؟

— نسأل الله اللطف .

— إن اقتصر الأمر على المال هان ، ولكن أخشى أن يعذبها .

— لا تخشى .

— أهو طيب ؟.. أهو شفوف ؟.. ألا يؤذيها ؟

— إنه يطمع أن يساعده أبوك فلا تخشى .

— وهل سيعيش لها أبى دائما ؟

— دعينا نؤمل الخير فى حياته على الأقل ، وبعد ذلك يتولاها الذى لا تعمل له عين .

ـــ كيف ؟

ـــ قد ينجحان ... وقد يحب أولاده فيكرمها من أجلهم .

ـــ أكثر من زيارتنا يا خيري .

ـــ ألا أحرجك بكثرة الزيارة ؟.. ألا يعرف جميل ما كان بيننا ؟

ـــ إنه يعرف ، ولكن السنين مضت . وهو يقدرك ولا يخشى جانبك ، فزرنا لتطمئن على فايزة . إنها أختك وهي وديعة بين يديك ... إن فايزة لن تخبر أحداً منا بعذابها إذا تعذبت ، ولكنها قد تخبرك أنت ... فزرها وأكثر ولا تخف أن تحرجني ... لقد سكتُّ متروحها فلا تتركها في هذه الأمواج من الطمع التي ألقيتها إليها .

ـــ أمرك يا وفية ...

ـــ أنت أخونا يا خيري ... أنت دائماً أخونا .

ـــ أعرف يا وفية وسأظل دائماً .. دائماً تحت أمرك .

وأمسكت وفية بيده في كلتا يديها وشدت عليها في إعزاز وإكبار وأمل :

ـــ لا أمل لي إلا أنت يا خيري .

ـــ ربنا معنا ... إن شاء الله خير .

ـــ أرحوك يا خيري ... إنها أختك .

ـــ هي أختك ... إن لم يكن من أجلها وأجل أبيها فمن أجلك أنت ... فأنت دائماً عندي وفية ... وفية التي ...

وانهمرت الدموع من عينيه وعينيها ، ثم هوى على يديها فقبلهما في حب وإعزاز .

* * *

انتهى الفرح وصعد العروسان إلى الحجرة التي خصصت لهما ،

وجلست فايزة مطرقة وجلس يسرى بجانبها ، وطال بينهما الصمت فمد يسرى يده وربت كتف زوجته وحاول أن يحتويها فى ذراعيه ، فرفعت إليه عينين مخضلتين بالدموع وقالت :

— لماذا تزوجتنى ؟

كان السؤال نافذا مباشرا لا لف فيه ولا دوران ... نوع من الكلام لم يتوقعه يسرى وحار فى الإجابة ، وحاول أن يتكلم ليجيب ، ثم تذكر أنها لن تسمع فحمد الصمم مرة أخرى فإن الكتابة ستتيح له وقتا للتفكير . أمسك القلم وكتب على الورق الذى يظل دائما قريبا من فايزة فهو أذناها ... كتب « لأنى أحبك » ونظرت إليه فى ألم ويأس وقالت :

— إننى صماء ... صماء ... ألا تعرف ؟

وكتب يسرى : « أعرف ولكن ما أهمية هذا ؟ » .

— أتشفق على ؟!

وكتب « إن ست عرت باشا الأرميرلى الوزير الغنى لا تستحق الإشفاق » .

فقالت فى ألم :

— أتتزوج عرت باشا الأرميرلى والوزارة والغنى ؟

فكتب : « بل أتزوج فايزة . فايزة وحدها » . بلا إشفاق وبلا تفكير فى وزارة أبيها أو غناه »

ونظرت إليه فايزة مليا وقد رقأت دموعها وأطالت التحديق ثم قالت :

— أنت لا تعرف مدى لهفتى إلى تصديقك

فكتب : « فصدقينى » .

— يا ليت !

فكتب : « ستجعلك الأيام تصدقينى »

فقالت :

— لا تستهن بالأيام فهى تأتى من قريب ، وعن قريب أعرف مقدار صدقك ... لا تحمل الأيام تؤيد حوى وتزيل أملى فأنا لا أستحق هذا ... ولا أستحقه منك أنت بالذات ، أنت أح لما ... وأنا ... وأنا ... وأنا لقيت من الزمان ما يكفى .

وكتب : « ستعرفين مدى صدقى » .

فأطرقت فايزة وأطالت الإطراق ، وعاد يسرى يربت كتفها ، وما لبثت أن قالت :

— يا رب إن كان كاذبا فلا تجعلنى أرى كذبه .

٣٢

نعم يسرى تحياته الحديدة واستطاع أن ينسى فايزة مخاوفها ، فكان يقبل عليها مشرفا وينصرف عنها ملاطفا ، واستكانت هى إلى هذه الحياة الجديدة مقبلة عليها فى سعادة لم تعرفها منذ كانت طفلة لا هية ، وأوشكت أن تنسى ما بها . وشهد أبوها وأمها وأختها هذا الإشراق الجديد الذى أصبح يشيع فى أجوائها ، وكان خيرى لا ينى عن الزيارة وكان يشهد هذه السعادة التى استطاع أخوه أن يهبها لزوجته ، وكان يرى آثارها على العائلة جميعها ولكنه لم يطمئن كما اطمأنت عائلة عرت باشا فقد كانت معرفته لأخيه أعمق ، ولم يشأ أن يكدر هذا الصفو فهو يظهر لهم فرحه ويخفى خوفه ، يخفيه عن وفية التى ما تكاد تخلس خلوة به حتى تظهر رضاها عاية الرضا عن أخيه ومعاملته لزوجته ، وكان خيرى يلاقى

فرحها بمرح يصطنعه متكلفا فى اصطناعه غاية الجهد .

ومرت الأيام بيسرى وهو بها هانئ ، وكان عزت باشا لبقا كيسا فاستطاع ألا يمد عونه ليسرى دون أن يجرح كبرياءه ، فقد طلب إليه أن يشرف على حسابات الزراعة وحدد له لقاء هذا أجرا أكبر أقله يسرى فى صمت كحق مفروض له وهكذا أصبح هذا الأجر وما يناله كمرتب من وزارة المالية مالا خالصا له هو غير مطالب منه بشىء إلا هدايا قليلة يقدمها لأخته نادية أو لأمه ، وحين حاولت أمه الرفض عصب وكاد يقاطع البيت فقبلت مرغمة . وأراد يسرى أن يقدم لأخيه حيرى بعض هذه الهدايا فأقنعه حيرى ألا يفعل ، ولكن دون أن يغضب ودون أن يتيح له فرصة للغضب ، مشيرا إليه أن واجبه يقضى عليه بأن يقدم الهدايا لزوجته ، ففرح يسرى بهذه الإشارة وبعد مصمومها فى إقبال وغدق .

لم تطل أيام يسرى الهانئة فإن نفسه لم تعهد من الضيق .

ها هو ذا المال يجرى بين يدى ... وهأنذا لا أشتهى شيئا ، فمالى ضيق النفس لا أستفر على حال من القلق والملل ؟ إلى أعمل ... ماذا أعمل ؟.. ألا أذهب كل يوم إلى الوزارة ؟.. وماذا أفعل بها ؟.. إننى هناك كما أنا فى البيت زوج بنت عزت باشا ولا عمل ... ألم يكن المال هو كل ما أشتهى ؟.. ألم أكن أحسد الحوار وبائع اللبن وعزت باشا على غناهم ؟.. وهأنذا أكاد عى منهم .. فإن المال يأتينى ثم أنا غير مطالب بشىء .. دفتر حساباتى فيه الوارد وليس فيه الصادر ... ربح خالص بلا رأس مال ... وعزت باشا يشقى ويكدح طول عامه ، يسافر إلى العربة مرات فى الأسبوع ، ويتابع أمواله فى كل مناحيها ، وأنا ما على إلا أن آكل من شقائه وأسعد ابنته ، وإن إسعادها هين يسير . ولكنى أرى عزت باشا سعيدا فى سفره سعيدا فى شراء الأسهم وبيعها ولا أرى نفسى سعيدا ... يبدو لى أن السعادة ليست فى المال ذاته وإنما فى بذل الجهد للحصول عليه ... فأى جهد

أستطيع أن أبدله ؟.. آه لو شهد أخى خيرى هذا الضيق الذى يزحم نفسى لأحس الانتصار على مرة أخرى ... وكيف له أن يشهد ؟! إننى لا أبدو أمامه إلا سعيدا هانئا فمن له بما يركد فى نفسى من ضيق وملل ؟. ولو أننى حكمت منطقى وحده لوجدت هذا الضيق سخفا خالصا ... لقد طلبت الغنى فملته ، والسلطان فتحقق لى بفضل عزت باشا .. فما هذا الضيق ؟ وما حيلتى فيه وأنا أحسه يملأ كيانى ، ويعصر سعادتى ، ويدمر أيامى تدميرا ؟

حتى دولت لم أعد أحد بين أحضانها ما كنت أجد ، حتى الويسكى لم يعد يحقق بهذه النشوة التى كنت أحسها منه حين كنت أشربه مع عبد الوهاب وصبحى ... ترى أيحس عبد الوهاب ما أحسه أنا ؟.. لا أظن ... ولماذا لا أظن ؟.. ما لى أظن الناس جميعهم سعداء إلا أنا ؟.. فيم يختلف عنى عبد الوهاب ؟.. حاله كحالى ولعله يظهر الرضى ويخفى الضيق الذى أخفيه ... ألا يحس عبد الوهاب حاجة إلى السعى ؟. ألا يحس بشوق عارم للعمل ؟.. ألا ينظر لما يدخل فى جيبه من مال نظرة باردة لا حرارة فيها ؟.. ألم يفقده سروره بهذا المال ؟ ألا تهدر فى نفسه عواصف من رغبة العمل ؟... ألا يريد أن يمسك مالا كسبه عن عمل لا عن وساطة ؟.. وبعد ... ماذا لى من أمل فى الحياة بعد هذا ؟.. إلى أى مدى أتشوف للمستقبل ؟.. ماذا أريد من هذا المستقبل ؟ ما لذة اليوم الجديد ؟ ماذا لى فى طوايا الغيب ؟.. سكون راكد كالمستنقع .. إن لى مالا ... وإننى آمن من الفقر . ولكن ماذا بعد أن يزيد مالى ؟ وماذا أفعل به ؟ وما لذته وأنا لم أجهد للحصول عليه ؟ ماذا أفعل بشبابى جميعه ؟ طلبت الغنى فهأنذا نلته فى أول خطواتى من الحياة ، ثم ها هى ذى الحياة بكاملها تمتد أمام ناظرى بيضاء باهتة بلا حياة فيها ولا أمل ولا عمل ... ألمثل هذا كانت ثورتى ؟.. واحيبتاه ... لا حياة لى ... لا حياة .

٣٣

كان الدكتور حامد عبد الكريم جالسا بين رهط من إخوانه الأساتذة فى جروبى ، وكان الحديث يدور بينهم هينا لا يمس إلا أمورا تكرر تناولهم لها مرات ومرات ولكنهم لا يجدون غيرها ليديروها بينهم ، وأقبل عليهم فى جلستهم رميل لهم هو الدكتور أنيس عوض ، وما إن حياهم وجلس حتى سأله صديقه الدكتور فهمى صدقى :

ـــ خير يا أنيس ؟

ـــ خير إن شاء الله .

ـــ هل تمت المسألة ؟

ـــ أعتقد أنها ستتم قريبا .

وسأل حامد :

ـــ ماذا يا أنيس ؟

وقال الدكتور أنيس محاولا أن يغير موضوع الحديث :

ـــ لا ... لا شىء ... مسألة بسيطة .

وقال حامد فى ثقة مدركا ما هدف إليه صديقه من محاولة البعد عن هذه المسألة :

ـــ هى سر إذن .

وقال الدكتور فهمى محاولا أن يفيد صديقه مما أوقعه فيه :

ـــ يا أخى ألا تترك شيئا إلا وتحاول معرفته ؟.. هل انتهيت من طبع كتابك ؟

ولم يحب حامد بل فكر قليلا محاولا أن يعرف ما يحبه صديقه ، ولكن مهمى لم يتركه يفرغ لتفكيره بل أعاد سؤاله مرة أخرى فى صوت أقوى ، فانتبه حامد من سرحته ليقول :

— آه ... ماذا ... آه ... نعم ... كدت أنتهى من طبعه .

وضحك الزملاء من إجابة صديقهم المترددة وعادوا إلى حديثهم الذى قطعه عليهم مجىء الدكتور أنيس . ولم نطل بهم الجلسة وبدأوا ينصرفون الواحد بعد الآخر ، وكان حامد يعرف أن زميلهم الدكتور محمد وحيد صديق للدكتور فهمى صداقة وطيدة فحرص أن يكون انصرافه فى رفقة الدكتور محمد ، فما كاد هذا يستأذن فى الانصراف حتى استأذن حامد معه وخرجا إلى شارع المناخ معا وسأل حامد :

— أذاهب إلى البيت ؟

— نعم .

— خذنى معك ... إنى أريد أن أزور صديقنا فى جهنمكم .

— أهلا . .

وهكذا أتاح حامد لنفسه فترة طويلة يحاول فيها أن يستخلص هذا السر الذى أحاطه به أنيس وفهمى . ولم يكن الوصول إلى هذا السر يحتاج إلى كثير مداورة ولا كثير عناء فما أسرع ما عرفه ... وما أعظم المائدة التى توقعها لنفسه من معرفته .

* * *

قصد الدكتور حامد من فوره إلى بيت تلميذه السابق وصديقه الدائم يسرى ... وكان هو نفسه بيت عزت باشا . وكان يسرى بالبيت فدعاه حامد أن يخرجا معا ليجلسا فى سان سوسى . وما إن استقر بهما المكان حتى قال

حامد :

— مسألة يا يسرى لو تمت لنا بها السعادة والعيش والجاه .

وكأنما كان حامد يعلم ما بنفسه من شوق إلى العمل ، وما أسرع ما قال يسرى فى فرح :

— صحيح .

— صحيح جدا ... اسمع . المسألة تحتاج إلى عناية ومثابرة واهتمام وأنا واثق أنها ستتم .

— ماذا ؟

— منصب عضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة التأمين الوطنية .

— ماله ؟

— خال ... ويريدون أن يعينوا فيه أستاذا جامعيا .

— ما المناسبة ؟

— المناسبة أنهم يريدون أن يضعوا ثقة على الشركة ... أو أى — آخر ... المهم أن زميلا لى مرشح له ونجرى معه مفاوضات .

— من زميلك ؟

— الدكتور أنيس عوض .

— ولماذا اختاروه ؟

— له قريب فى مجلس الإدارة .

— وماذا تريد منى ؟

— لو أن الباشا كلم وزير المالية فرشحنى لأصبحت أنت سكرتيرا عاما للشركة بمرتب تحدده أنت .

— ولكن الباشا لو عرف أنى سأعمل بالشركة لاعتبر هذا رشوة .

— ومن الذى سيحبره ؟
— ألست سأعين ؟!
— بعد أن أعين أنا وحينئذ لن يكون للباشا عندنا كلام .
— معقول .
— خدمة يقدمها لى الباشا كما تعود أن يقدم من خدمات .
— توكل على الله .
— وعليك .
— إن شاء الله .

* * *

عاد يسرى إلى البيت والأمل يداعب نفسه عن هذا المنصب الجديد . ووجد الباشا جالسا وحده فى المكتب فألقى إليه رجاء الدكتور حامد فى لهجة حلت مما يخالط نفسه من آمال يعلقها به ، ووجد عند الباشا قبولا كشأنه دائما كلما سنحت له فرصة لخير يقدمه إلى حامد . واطمأن يسرى وظل مع عمه يدور بينهما الحديث فى شتى مناحيه . ثم قام العم لينام وصعد معه يسرى .

وكان جناح يسرى وفايزة مستقلا عن البيت لا يشركهما فيه إلا دولت فى حجرة مقابلة لحجرتهما . وحين بلغ يسرى جناحه وجد حجرة نومه مظلمة وبابها مقفلا ، ووجد باب دولت مفتوحا ورأى ضوءا خافتا ينبعث منه ، فذلف من الباب المنفرج إلى الضوء الخافت .

٢٤

أصبح يسرى بعد تعيين حامد بشهور قليلة سكرتيرا عاما للشركة ، ورأى يسرى نفسه وهو فى بواكير الشباب الأولى ذا حجرة مفردة وذا نبى وسطوة وسلطان ، وأدرك الباشا عند تعيين يسرى أنه كان آلة فى يد يسرى يحركها إلى حيث يشتهى . وقد غضب لهذا الوضع الذى أراده له يسرى ولكنه لم يستطع أن يظهر غضبه واصبحا فقد كان يرى حب عايزة لزوجها ، ولم يكن قلب الأب فيه ليتيح له أن يعنف بيسرى العنف الذى يراه يستحقه . ولكن لم يشأ أن يسكت بل انتهز أول فرصة بعد تعيين يسرى وقال له :

ـــ أظن يا يسرى أن عملك فى الشركة سيأخذ وقتك كله !

وقال يسرى وقد أوجس :

ـــ أظن ذلك يا عمى !

فقال الباشا فى حزم :

ـــ إذن فاترك حساباتى ليتفرغ لها شاب أقل من سكرتير عام الشركة الوطنية للتأمين .

وأطرق يسرى خجلا وهو يقول :

ـــ أمرك يا عمى .

وبهذه السخرية اللاذعة وبهذا الحزم القاطع استطاع الباشا أن يبدى ليسرى أنه فهم اللعبة التى دبرها له هو وحامد ، وأنه أيضا غير مرتاح لهذا التصرف ، كما استطاع بهذه المحادثة القصيرة الحاسمة أن يقطع عن يسرى المرتب الذى كان يعطيه

إياه

ولم يكن بيسري في حاجة إلى المرتب فقد كان مرتب الشركة ضخما ، كما أنه أصبح إلى حين في غير حاجة إلى عون عمه . وطمأن نفسه « إنه رجل طيب وما أسرع ما أستطيع إرضاءه » . فاطمأنت نفسه إلى هذا الظن .

ولم يمر كثير وقت على تعيين يسري بالشركة حتى كان قد دبر هو والدكتور حامد أمراً ، وارتاح إليه وقصد إلى أخيه خيري في البيت وحده في حجرته جالسا يقرأ في إنعام ، فقال له :

— جئتك اليوم في أمر هام يا أبي خيري .

وقال خيري في هدوء لا يزايله :

— خير ؟

قال يسري :

— كم بلغ مرتبك في الوزارة ؟

وقال خيري :

— ما المناسبة ؟

— أليس لي الحق أن أعرف ؟

— لا أرى مانعا أن تعرف ولكني أيضا لا أرى موجبا لذلك ، فقد بلغ مرتبي القدر الذي يكفيني ويجعلني أعيش المعيشة التي أرضاها لنفسي فلا أشكو ضيقا .

— وحياتي عندك يا أبي خيري أن تترك هذا الخيال ... لكل إنسان طموح ولا يعقل ألا تكون أنت طموحا مثل كل الناس .

— ومن قال لك إنني لست طموحا ؟.. إنني بقدر طموحي هذا ما كنت أستطيع أن أواصل تعليمك وتعليم أختك والإبقاء على أسرتنا في ستر ورضا ...

ألم يكن هذا حميعه طموحا ؟

— عظيم ... عظيم ولكن أليس لك طموح شخصى ؟.. أليس لك آمال تسيها لنفسك ؟

— أنت أمل من هذه الآمال ... وأختك نادية أمل آخر لى ... وثق أننى حين أروج نادية سأنظر إلى نفسى وأتزوج ، وقد أخرج من الوظيفة ، وقد أحقق آمالا أخرى يعود نفعها على وعليكم .

— لم تحدثنى أبدا عن هذه الآمال .

— أحب أن أنفذها ولا أتحدث عنها .

— ألا تتحدث عنها لى ... أنا أخوك ؟..

— أعلم أنك أخى ، ولكن حديثى عن آمال قد يجعلها أمام عينيك حقائق بينما أنا لا أرال أراها آمالا ... هى بعد فى نفسى لم تكتمل عناصرها ومقوماتها ، والحديث عنها قد يجعلها تبدو كاملة قائمة .

— قل لى يا أخى خيرى وحياتى ... ورحمة أبى إلا قلت ؟

— المسألة لا تستأهل كل هذا الإلحاح ... أريد أن أترك الحكومة وأذهب إلى البلد فأقيم فى بيتنا هناك ، وأستأجر أرضا من حولنا أربى ماشية وأنمى ثروتنا البسيطة ...

وفكر يسرى قليلا ثم قال :

— والله مشروع لا بأس به ! ومادا يؤخرك عنه ؟

— أنا الآن مطالب بالتزامات إزاء والدتنا وأختنا ، ولا أستطيع أن أترك مرتبى الثابت المضمون لمشروعات لا أدرى نتائجها

وأطرق يسرى هنيهة ثم قال :

— ما رأيك لو ارتفع مرتبك هذا إلى ضعفيه ؟

وصمت خيرى لحظة ثم قال :

— ماذا تتوقع أن أقول ؟

وقال يسرى على الفور :

— أن توافق طبعا .

— طبعا ولكن فقط أحب أن أعرف كيف يرتفع ؟

— تترك الوزارة وتعمل معا فى الشركة .

فقال خيرى فى تؤدة :

— الشركة التى تعمل بها سكرتيرا عاما ؟

وبهت يسرى من الإجابة ، وما لبث أن قال فى لعثمة :

— نعم .

— أترضى لى ذلك ؟

— ماذا ؟

— أن أكون مرؤوسك .

— وهل تعتقد أننى سأكون رئيسا حقا ؟

— وهذا أدهى ... سأحملك بين أمرين لا أرضاهما ... إما أن تكون رئيسا حقا وهذا لا أحبه لنفسى ، أو لا تكون رئيسا حقا وهذا لا أحبه لك .

— يا أبى خيرى إنها فرصة ... وقد تستطيع أن توفر منها مبلغا يمعنك فى مشروعك الذى تنتويه .

— إن كان مشروعى سيحملنى أفعل ما لا أرضاه فإنى سأنصرف عنه .

— يا أبى خيرى إنه مشروع عظيم .

— ألم أقل لك إنك ستراه كاملا قائما بيننا هو لا يزيد عن مجرد أمل فى نفسى .

— وهل الأمل شىء بسيط ؟.. أليست الآمال هى التى تحدد خطوط سيرنا فى

الحياة ؟

— الآمال أهداف وأخلاقنا وتركيب نفوسنا هي التي توجهنا في الطريق .
إن طريقنا لا ترضاه أخلاق طريق لا أسيره وإن لم يكن غير مؤديا إلى هدفي .
هكذا أنا ... هكذا ركبت نفسي منذ كنت صغيرا حتى الآن ... لا أظن أنني قادر على تغيير نفسي .

— كنت أظن يا آبي حيري أن مثاليتك لا تستطيع الصمود أمام الحقيقة ... نعم أعرف ما فعلته مع عزت باشا في أول حياتك ، ولكنني حبل لي أنك مع مرور الأيام أسفت على ما كان منك ، وحبل لي أنك قد نلين أمام المنفعة إذا كنت ماثلة أمامك بلا أوهام ولا خيالات ... للأسف ... ما زلت تتحدث عن الأخلاق والمثالية والتعفف والقناعة حتى أصبحت تطبقها في حياتك أيضا ولا تكتفي بها في أحاديثك .

— عجيبة يا يسرى ... أكنت تظن أن آرائي مجرد كلام فقط ؟

— كنت أظن أن الحياة علمتك أكثر مما فعلت .

وضحك حيري ضحكة صغيرة فيها بعض سخرية وقال :

— لا عليك يا يسرى ... أمرك إلى الله ... وربنا ملاك يأخ عقله فارغ ... تحمل .

وسارع يسرى يقول وقد احمر وجهه خجلا :

— العفو ... أنا لم أقل هذا .

— لم تقله ولكنك تعتقده ... لا عليك ولكن ... اسمع ... أنا أشكرك ... فإن وفاءك لي وحرصك الدائم على أن تقدم لي ما تظنه خيري أمر أحمده فيك وأشكره ، وهو أيضا يطمئنني أنك يوما ما ستعرف أن ما آخذ به نفسي ليس مثالية ولا أوهام تقاليد بالية ... ويجعلني أيضا آمل أنك في يوم ما سترى الدنيا شيئ

آخر غير المال يستحق أن تحيا له .

وأطرق يسرى هنيهة وقد تأثر بحديث أخيه واختلج قلبه بعواطف الحب له ، وإن كان عقله لم يمنعه من الإلحاح عليه أن هذا اليوم لن يأتى ، وأن اليوم الذى قد يأتى هو يوم يعلم أخوه القيمة التى يحتلها المال فى الحياة .

٣٥

كان يسرى جالساً بمكتبه بالشركة حين دلف إلى المكتب سكرتيره ينبئه أن بالخارج صديقه صبحى الملوانى ، وقال يسرى فى لهفة :

ــ دعه يدخل ...

ثم سارع يقول فى نفس اللهفة :

ــ بل اجعله ينتظر قليلا .

فقد ومض فى ذهنه خاطر سريع لا يدرى مأتاه ... لقد أحب أن يشعر زميل دراسته بالفارق الذى أصبح بينهما ... وخرج السكرتير لم يبد ملاحظة ولم يشغل ذهنه باللهفة التى أرسلت رئيسه سامحا فى دخول الزائر ، ثم اللهفة التى أتبعتها فى أن يتريث به . . لم يكن فلبس من عمله أن يفكر وإنما عليه أن يسمع فيطيع ، وقد سمع وأطاع وخرج . ولبث يسرى يتشاغل بالأوراق التى أمامه بعض الحين ، ولم يطل به التشاغل فقد دق التليفون المجاور له وإذا هى دولت تخبره أن حميلا ووفية سيصحبان فايزة إلى السينما وأنهم يسألونه إن كان يريد أن يرافقهم ليشتروا له تذكرة ، فيسألها .

ــ وأنت هل تذهبين ؟

— لا .

— إذن فأحريهم أننى سأتأخر فى الشركة ولا أستطيع صحبتهم .

— ومتى تجىء ؟

— فى الساعة الرابعة .

وانهت المكالمة ولكن التليفون الآخر الذى يصل حجرات الشركة بعضها ببعض دق ، فرفع يسرى السماعة ليصله صوت حامد يطلب إليه أن يجىء إلى مكتبه .

وفكر يسرى أن يمضى إلى حامد دون أن يلقى صديقه صبحى ، ولكنه خشى أن تطول غيبته وينصرف صبحى ، ففضل أن يراه وأن يدخل بنفسه .
هذه المقابلة الواقعة من إظهار مدى مشاغله ومن أثر هذا فى نفس زميل الدراسة .

ودق يسرى الجرس وطلب إلى السكرتير أن يدخل صبحى ودخل صبحى ... ولبس يسرى ما أراد أن يأخذ به نفسه من وقار وعظمة وإظهار مشاغل وإثبات أهمية ، ووجد نفسه حين رأى وجه صديقه يفتح ذراعيه ويحتضن صديقه وكأنه يحتضن نفسه والأيام التى قضياها معا ، ووجد نفسه يقول فى سجية مواتية لا تكلف فيها :

— أين أنت يا ولد ؟ . أين أنت طول هذه المدة ؟

وأطرق صبحى قليلا ثم قال :

— أشكرك يا يسرى ... يا يسرى بك .

وكأنما أفاق يسرى من غفوة ... أيقظته « بك » يسمعها من صبحى ، وأوشك أن يقول « لا تقلها » ولكنه التقفها ... أحس فيها نما وصل إليه من غنى وسلطان فوجد نفسه يتجاهل « البك » وكأنما أمر معروض وقال لصبحى :

— علام الشكر ؟

— على هذا اللقاء .

وقال يسرى فى صوت يعاير مضمون كلامه :

— نحن أخوان .

قالها فى عظمة متواضعة تستطيع أن تحمل فى طواياها أى معنى غير معنى الأخوة ، ثم ما لبث أن قال :

— صبحى ... عصو مجلس الإدارة يطلبنى وأنا مضطر للذهاب إليه ... هل هناك أى خدمة أستطيع أن أؤديها ؟

وقال صبحى فى ارتباك :

— أجيء فى وقت آخر .

— أهلا ... ولكن ماذا تريد ؟

— وظيفة .

وبهت يسرى فهو لم يكن يتوقع هذا الطلب من صديقه ... وطاف به الصمت هنيهة ثم قال :

— والله يا صبحى المسألة ليست سهلة ... أتعطينى فرصة من الوقت ؟

— طبعا ... ولكن أرجو ألا يطول هذا الوقت .

— كن على اتصال دائم بى .

— سأجيء كثيرا .

— وهو كذلك ... اترك لى هذا الموضوع .

واستأذن صبحى وانصرف ، وقصد يسرى إلى مكتب الدكتور حامد .

وحين دخل وجد فى الحجرة رجلا أنيق الملبس قدمه إليه حامد قائلا :

— عند السميع بك فتحى مندوب شركة النفل بالسيارات .

وحيا عند السميع بك يسرى فى أدب وافر ، لاحظ يسرى عناية الرجل

البالغة تحركاته جميعا وتحريه أن تكون كل حركة فائقة الأدب والجمال ، وحرصه كل الحرص أن تظل ابتسامة على فمه ثابتة لا تزيد ولا تنقص إلا عند ضحك شديد إذا ما بدا فى الجو مشروع نكتة وإن لم يكن المتحدث يقصد إليها ... وظل الحديث بينهم فى أمور عامة لا صلة لها بالعمل ، ويسرى يشارك فى الحديث طورا ويرقب هذا الواقد الحديد طورا آخر ، أو هو يرقب الأدب البالغ الذى يصطنعه الدكتور حامد أيضا فى الحديث ، أو يحاول أن يعرف هدف هذه الزيارة ، أو على الأقل السبب الذى استدعاه من أجله الدكتور حامد ، ولكن محاولاته لم تنته به إلى رأى يرتاح إليه . وبدا ليسرى أن كلا من حامد وعبد السميع بك يتباريان أيهما أكثر صبرا وأشد مداورة من الآخر ، فكل منهما يلوب فى الحديث مبتعد عما اجتمعا من أجله . وقد فاز حامد فى هذه المباراة وهزم عبد السميع ، فقد حرص حامد أن تشيع فى الحجرة فترة من الصمت أعقبها بكلمة واحدة ...

— شرفت ...

وقال عبد السميع :

— الله يحفظك ... نرى أتخبر أنت يسرى بك بالمسألة أم نفضل أن أقول أنا ؟

— أطيب من الأفضل أن تخبره أنت .

— أمرك ... لقد اتفقت يا يسرى بك مع حامد بك على صفقة سنعود عليكم بخير عميم . .

وقال يسرى مشجعا :

— عظيم .

— أنا رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب لشركة الأمانة للنقل ، وأملك فيها أكثر من ٦٠/ من الأسهم

وقال يسرى :

ـــ أهلا وسهلا .

ـــ لدى الشركة ما يقرب من الخمسين سيارة نقل ، وحوالى ثمانى سيارات خاصة للمديرين ولى .

ـــ عظيم .

ـــ نريد أن نؤمن تأمينا كاملا على هذه السيارات .

وبدا على يسرى كأنه فهم ما يراد به ، فقال فى تفكير :

ـــ تأمينا كاملا ؟

ـــ نعم .

ـــ السيارات جديدة طبعا .

وأصاب السؤال مكانا دفينا من الموضوع فوجم عبد السميع ووجم حامد ، وسارع عبد السميع يتخلص من وجومه فى سرعة خاطفة :

ـــ طبعا ... طبعا .

ـــ عظيم .

ـــ كل ما فى الأمر أنها ليست حديثة .

وارداد يسرى فهما للأمر فقال :

ـــ كيف تكون جديدة وليست حديثة ؟

ـــ جديدة بمعنى أنها فى حالة جيدة ، وإن كانت ليست حديثة الشراء .

فقال يسرى فى مداورة :

ـــ على كل حال هذا أمر يقوم به مهندسو الشركة .

فقال عبد السميع فى سرعة :

ـــ هذا ما أردناك فيه .

وقال حامد :

ـــ عبد السميع بك لا يثق فى مهندسى الشركة

وقال يسرى :

ـــ أيهم ؟ فسعادتك تعرف أنهم أربعة نتعامل معهم ، نستطيع أن نستبعد الذى لا نثق به وإن كانوا جميعا موضع ثقة الشركة .

وقال حامد :

ـــ إنه لا يثق بأى واحد منهم .

وقال يسرى فى دهشة :

ـــ الأربعة ذممهم خربة ؟!

فقال حامد فى حزم .

ـــ هذا رأيه .

فقال يسرى :

ـــ وما رأى سعادتك ؟

فقال حامد موجها حديثه إلى عبد السميع :

ـــ وعلى كل حال يا عبد السميع بك اعتبر المسألة منتهية ، وتستطيع سعادتك أن تمر بالشركة بعد غد ، وستجد الأوراق جاهزة .

فقال يسرى محاولا إبداء رأيه :

ـــ ولكن ...

فقال حامد فى حزم الرئيس :

ـــ انتهينا يا يسرى .

فقال يسرى فى استخراء داهش :

ـــ أمرك .

واستأذن عند السميع بك وانصرف يودعه حامد إلى باب الغرفة ، وحين عاد من توديعه وجد يسرى منحهما يأخذ طريقه إلى الباب ، فقال له :

— إلى أين أنت ذاهب ؟.. اقعد .. أنت عبط .

فقال يسرى :

— أنا دهش .

— فيم الدهشة ؟

— يبدو أن المسألة ليست سليمة .

— وما بهمك أنت ... أتمانع أن نقبض أربعمائة جنيه دون أى تعب ؟

وفهم يسرى الأمر على تمام حقيقته .

— لا أمانع أبدا ... كيف ؟

— تأتى لى مهندس صديقك يأخذ فى هذه العملية ضعفى ما يأخذ مهندسو الشركة ويعتبر السيارات جديدة ، ونأخذ مقابل ذلك ألف جنيه لى منها ستمائة ولك أربعمائة ... ما عيبها ؟..

وقال يسرى مفكرا :

— أما عن الأربعمائة جنيه فلا عيب بها ، أما عن الطريقة ..؟

وقال حامد فى سخرية :

— نعم يا سيدى ... مالها الطريقة ؟.. لا تجعلنى أظن بك العطف كأخيك ... أنا دائما أحترمك لأنك واقعى ، ذهنك تخلص من الخلفيات الراكدة للتقاليد والتفكير الضيق العقيم .

— ولكن هذه المسألة يا حامد بك لا شأن لها بالتفكير العقيم . ولا مخلفات الماضى .. إنها ... إنها ...

— هيه ... قل سرقة ... قل ... قلة ذمة ... كرر هذه الألفاظ الحوفاء التى

سيطرت على الأجيال الماضية وكبلت التفكير فيها .

— يا حامد بك أنا لا أرى صلة بين الأجيال الماضية وهذه المسألة أبدا .

فقال حامد في حزم .

— إذن فأنت لا تريد الاشتراك معي فيها ؟

— والله إذا أعفيتني أكون شاكرا .

— أنت حر ... طبعا أنت اليوم غني ولم تصبح في حاجة إلى المال . أصبحت تختار نوع المال الذي يصل إليك ، فهذا تقبله وهذا ترفضه ... معلوم ... لك حق ... ولكنني يا سيدي لست كذلك . وإن لم أحصل على المال من حنك السبع فلن أحده ... أنت حر .

— الواقع يا حامد بك أنا محرج أن أرفض لك أمرا ولكن لا أستطيع .

— انت حر ... أنت ... ولكن فقط لا تعطل الورق .

وأصابت يسرى بغتة أخرى .

— ماذا ؟... هل سيمر بي هذا الورق ؟

— طبعا ...

وفكر يسرى قليلا ثم قال :

— ألا يمكن أن يأتيك هذا الورق مباشرة ؟

— بالطبع لا ... أنت سكرتير عام الشركة ... وحين يمر موضوع من غير تأشيرتك سيثير كثيرا من التساؤل والدهشة . وأنا لا أحب التساؤل أو الدهشة ... أو التعطيل .

— إذن ...

— إذن فلا تعطل الورق .

وأطرق يسرى وفكر ... يمكن أن يقال لم ينتبه ، وهذا خير من أن يقال

لص ... لعلهم سيقولون لص أيضا ... لا يهم ما دمت أنا مقتنعا أنى لم أسرق ... إن لم أوقع فسأرفت ... فهو لا يحب التعطيل ...

وقاطع حامد تفكيره قائلا فى حزم ونعمة حالية من التهديد :

— هيه .

فقال يسرى :

— حاضر ... سأوقع .

وضحك حامد ساخرا وقال :

— تقبل أن يقال معفل لا يفهم شغله ، ولا تقبل أن تأخذ أربعمائة جنيه ...

وحاول يسرى أن يعتذر عن أمانته ثانية ولكن حامدا سارع يقول :

— لا ... لا ... لا ترغم نفسك على شىء ... أنت حر ... أنت دائما حر ... تقبل ما تشاء ولا تقبل ما تشاء ... أنت حر ...

وأطرق يسرى وهو يقول :

— أشكرك .

ثم خرج من الغرفة يفكر فى هذه الحرية التى يتيحها له رئيسه .

٣٦

نزلت فايزة ترافق أختها وفية وزوجها جميل إلى السينما فى حفلة الساعة الثالثة ، وكان جميل قد جاء فى إجازة قصيرة سيعود بعدها إلى عمله بسفارة فرنسا . وقد كان يحرص فى إجازاته أن يعوض زوجته عن غيابه بالإكثار من النزهة ، وكان يحرص فى أغلب الأوقات أن يصحب فايزة التى أصبح عمل زوجها الجديد يشغله عنها وقتا كبيرا .

كانت سيارة جميل التى يقودها بنفسه تسير بشارع فؤاد متحدة طريقها إلى السينما ، وكانت وفية تجلس إلى جانبه وإلى جانبها تجلس فايزة . وكانت وفية تكتب لفايزة كلاما تمنعه السيارة أن يتضح فلا نستطيع فايزة أن تقرأه فلا تملك هى وأختها إلا أن تضحكا من هذه الأشكال العجيبة التى لا تستطيع أن تكون شيئا مفيدا . وأخيرا قالت فايزة :

ـــ اسكتى حتى نصل ... ألا تتوقفين عن الكلام أبدا ؟..

وقبل أن تضحك الأختان انتابت فايزة حالة عثيان وحملقت فى وجه أختها ثم انثنت وقد وضعت يدها على وجهها وهى تتأوه فى ألم ، فقالت أختها فى ارتباك :

ـــ مالك ؟

وراحت فايزة فى دوامة ولم تعن بأن تخبر أختها عما بها وإنما راح عقلها يفكر أين تفرغ غثيانها فى منحى عن عيون جميل بالذات ، وفجأة فتحت حقيبة يدها وأفرغت ما بها دفعة واحدة فى فستان وفية ، ثم زادت من اتساع فمها وجعلت من الحقيبة وعاء .

أوقف جميل السيارة على جانب من الطريق ، وقصد إلى مقهى وطلب كوب ماء ، وعاد به إلى فايزة فتناولته فى شكر .

وقالت وفية :

ـــ جميل ، ألا تعرف طبيبا نذهب إليه ؟

ـــ أعرف طبعا ولكن الآن ... الساعة الثالثة والنصف .

ـــ ألا تعرف بيته ؟

ـــ سأكلمه بالتليفون .

وعاد جميل بالكوب الفارغ ليتكلم من تليفون المقهى ، باحثا عن صديقه الطبيب .

وكتبت وفية لفايزة « مالك » ؟

فقالت فايزة :

ـــ لا أدرى ... أحسست فجأة بهذا العشيان .

وقالت وفية وقد أشرق وجهها بالفرح :

ـــ فايزة أنت حامل ؟

طلبت فايزة رانية إليها لم تفهم شيئا لأنها لم تسمع شيئا ، فانتبهت وفية وكتبت لها « أنت حامل ؟ » .

وقالت فايزة :

ـــ عاليا .

وقالت وفية فى فرحة متوثبة :

ـــ حقا ؟

ثم انتبهت وكتبت : « مبروك » .

وقفزت من السيارة وثبا ، وسارعت تقتحم المقهى الذى دخله جميل عو

عاشقة بالأنظار التى أحدقت بها بين عاجمة وبين معجبة وبين مستهجنة ، وحين وحدت زوجها قالت له دون أن تترك له فرصة أن يذكرها بأنهما فى مصر وليسا فى باريس :

— جميل هل صديقك طبيب أمراض نساء ؟

وقال جميل دهشا :

— لا .

— إذن فابحث عن طبيب أمراض نساء .

وقلب جميل صفحات دفتر التليفون يبحث عن الطبيب المطلوب .

* * *

خرجت فايزة من عيادة الطبيب فرحة نشوانة تشاركها فى فرحتها أختها وركبتا السيارة ، وقبل أن يقودها جميل قال لوفية :

— اكتبى لها أننى أطالب بالحلاوة .

وكتبت لها ما أراد . فأخرجت فايزة قرش صاغ وأعطته إياه فقال لوفية ضاحكا :

— اطلبى على الأقل ثمن تذاكر السينما التى لم ندخلها .

وكتبت وفية وعرق ثلاثتهم فى ضحك سعيد هانئ ، وسارت السيارة وخلت فايزة إلى نفسها ، إلى عزلتها وقد أحست بهنائها .. هنائها بكل شىء حتى بهذه العزلة ، ففى ظلها وبسببها تستطيع أن تستمتع بفرحتها كاملة بلا صخب من الطريق ولا حديث من وفية أو جميل ... كانت تحتمل صممها فى صبر ولكنها لم تر فيه نعمة إلا اليوم وفى هذه اللحظة ... أحمدك يا رب ... هل آن لى أن أسعد كما يسعد الآخرون ؟ أأرى ابنى فأسمع بأذنه وأفرح بفرحه وأبدأ به حياة جديدة من غير صمم ومن غير هذه الآلام التى أعانيها فى حياتى القديمة ؟.. أحمدك

يا رب ... فإن أحدا فى العالم لا يستطيع أن يقدر السعادة كما يقدرها من عرف الشقاء ... وقد عرفته . ثم هأنذا تهب لى حياة جديدة هى حياة ابنى ، فإذا أنا ... وأنا وحدى أدرى مدى هذه السعادة التى سكبتها على حياتى الجديدة فيه ... فقد كانت حياتى يا رب شقاء ... ولكننى الآن ... الآن فقط أحمد هذا الشقاء الذى أحاط بى لأننى أستطيع به أن أدرك أى سعادة تحيط بى اليوم ، ولا يستطيع الذين لم يروا شقائى أن يلتذوا السعادة كما ألتذها أنا الآن . فلك الشكر ... سبحانك .

وكانت وفية تحذر جميلا طوال الطريق أن يسرع ، وتحذره أن تهتز السيارة حتى قال جميل آخر الأمر :

ـــ ما رأيك أوقف الآلة وأدفع أنا السيارة وتقودينها أنت ... سهل عدا ولكن لن تهتز ... نعملها ؟

وضحكت وفية ضحكة عالية حتى لقد طرحت رأسها إلى الخلف ، ورأتها فايزة فأدركت أنها تضحك ضحكا عاليا فقالت لها :

ـــ ماذا بك ؟

فكتبت لها وفية ما قاله روحها ، فغرقت فى الضحك هى الأخرى .

وحين وصلت السيارة إلى باب البيت كتبت لها وفية : « انزلى أنت ولكن على مهلك ، واصعدى السلم درجة درجة ، واستريحى حتى تحضر لك الدواء ونعود » .

وابتسمت فايزة ودلفت إلى البيت . وحين بلغت الطابق الأعلى تذكرت أنها لن تجد أحدا إلا دولت فقد كانت أمها مدعوة إلى الغداء خارج البيت مع أبيها ، وكانت فايزة تعلم أن يسرى بالشركة ، ولكنها أصرت أن تخبره فورا فقصدت إلى دولت لتجعلها تطلب يسرى فى الشركة ليأتى من توه .

بلغت فايزة حجرة دولت وفتحتها ثم جمدت ... لحظات ... ثم أدركت أن الاثنين اللذين بالغرفة لم يرياها فأقفلت الباب بهدوء محاذرة أن يند عنه صوت ، وقصدت إلى حجرتها وألقت بنفسها إلى السرير وقد اطبق فكاها في إحكام ، كأنها تمنع الصرخة التي تعربد في كيانها أن تنطلق ، ونولاها حريق من العذاب ، عقلها لهيب ونفسها نيران وتفكيرها موقوف جامد وعيناها لا تريان إلا الصورة التي طالعتها من حجرة دولت ... ورفعت فايزة يديها ووضعتهما على عينيها ثم تمتمت :

— أما زال هناك نوع من العذاب لم أعرفه يا رب ؟... ثم وجدت نفسها تقول :

— لن يعرف أحد ... لا ... لن يعرف أحد ... لن أجعل من نفسي سخرية ولا موضع شفقة بعد اليوم ...

ثم صمتت حينا وعادت تقول :

— ولكن لا بد أن نترك هذا البيت .. كيف ؟.. أأخبر وفية ؟.. وماذا سنعمل ؟.. إذا طلبت هي طردها عرف الجميع .. لا بد أن تطلب هي الخروج ... واحد فقط يستطيع أن يقول لها اطلبي ترك البيت ... هو يسرى ... ولكن لن أخبره ... ماذا أفعل ؟.. لمن أقول ؟؟.. نعم هناك حل .

وخرجت فايزة من الحجرة في خفة وسعت على أطراف أصابعها ونزلت إلى الطابق الأسفل ودخلت إلى مكتب أبيها ، وجلست حتى ليظن من يراها أنها جاءت إلى هذه الحجرة من الخارج مباشرة ، مكأنها ما صعدت وكأنها ما رأت وكأنها ما زالت تحيا في تلك الفرحة المنتشية التي صحبتها من عند الطبيب ، والتي فقدتها عند دولت .

دقت فايزة الجرس وكتبت على ورقة كلاما . وحين جاء الخادم قالت له :

ـــ خذ سيارة أجرة واذهب بها إلى بيت خيرى بك ... أعطه هذه الورقة وارجه أن يأتى معك فى السيارة ... وإذا لم تجده فانتظره حتى يعود ... لا تعد من غيره .

وأومأ الخادم أن نعم ، وخرج فى طريقه إلى خيرى ، والتقى فى فناء الدار بوفية وجميل . كانت وفية تحث الخطى فى سعادة متوثبة صاحكة استخفها الفرح حتى لم تملك نفسها أن تسأل الخادم :

ـــ هل جاء الباشا والست ؟.

مع أنها تعلم أنهما لن يعودا قبل المساء . ولم تنتظر الإجابة بل واصلت سيرها الحثيث حتى بلغت البهو الداخلى تريد أن تواصل سيرها إلى الطابق الأعلى حيث تتوقع أن تجد فايزة . ولكن مكتب أبيها ذا الباب المفتوح استرعى انتباهها فالتفتت فوجدت فايزة جالسة ، فدهبت إليها ودون أن تلحظ ما بها كتبت لها : « هل أخبرت يسرى ؟ » .

فقالت فايزة فى جفاء وإصرار وألم ومرارة :

ـــ لم أره .

وأحست وفية ما فى صوت أختها فكتبت وهى تعجب فى نفسها : « إذن لم يأت ؟ » .

وأجابت فايزة فى نفس النغمة المريرة :

ـــ لا أعرف .

وكتبت وفية : « ألم تصعدى إلى الطابق الأعلى ؟ » .

وقالت فايزة فى حزم وتماسك وقد أوشكت أن تنهار :

ـــ لا .

ولم تملك وفية أن تكتم عجبها فكتبت : « ما بك » ؟

ولم تجد فايزة شيئا تقوله إلا ...

— منعمة .

فكتبت : « تعالى نصعد إلى أعلى » .

— لا ...

فكتبت : « لماذا ؟... ماذا بك يا فايزة » ؟

— يا سلام يا أبلة وفية .. منعمة .. متعبة .. اتركيني هنا .. فإني هنا مرتاحة .

ولم تكتب وفية شيئا وإنما قالت فى صوت مسموع وفى نغمة الخبير الذى يعرف بواطن الأمور :

— هيه ... لقد بدأ معك الوحم فقلب مزاجك ... بسيطة ... يا دولت .. دولت .

وخرجت وفية من الحجرة تنادى حتى أجابها صوت دولت .

وكان جميل بالبهو ما يزال وقد وضع ما حمله من دواء على إحدى المناضد ، فقالت له :

— لماذا تجلس هنا ...؟ تعال .

فقال وهو يقوم من كرسيه :

— لا ... سأذهب أنا إلى بيت أبى وأعود فى المساء لآخذك ، أم ستبيتين هنا ؟

— سأبيت هنا مع فايزة . ولماذا لا تبيت أنت أيضا هنا ؟

— كما تشائين .

وخرج وعادت إلى غرفة المكتب ، وكانت فايزة قد أحست أنها قست على أختها وخشيت أن تكون غضبت ، فقالت لها فى صوت يحاول الرقة فبمنعه عنها ألم مرير يخالط كل كيانها :

— أين دهست ؟

فكتبت لها : « أنادى دولت » .

وانتفضت فايزة دون أن تحس :

— لا .

وقالت وفية :

— ماذا ؟... ما بك ؟

ولكن فايزة لم تسمع واستطاعت فى لحظة أن تملك أمر نفسها ، فأقرت حسمها المحموم وأطبقت يديها على مقابض كرسيها فى تماسك ، كأنها تخشى أن يقذفها شىء من عليه ، وكتبت لها وفية :

— ما بك ؟

فقالت فايزة فى تشنج :

— لا شىء .

ثم أقرت نفسها على الكرسى ثانية وثبتت من مقامها عليه ، وقالت وكأنها تستعد لصراع كبير :

— ناديها ... نادى دولت .

وقالت وفية :

— إنها آتية .

ولم تسمع فايزة شيئا ولم تكن فى حاجة إلى أن تسمع ، فقد دخلت دولت ، وقبل أن تخبرها وفية بالبأ السعيد وجدت فايزة نفسها مقذوفة عن الكرسى ، واقفة تسارع خطوها إلى مكان الحوض ، وقد عاودها العثيان مصورة أشد .

وبهتت دولت هنيهة ، ثم نظرت إلى وفية فوجدتها تربو إليها فى نظرة من يحمل أخبارا فرحانة ، ثم غمزت لها بعينها وقالت :

— ادهبي إليها ساعديها ... ألم تدركي ما بها ؟ .. إنها حامل .

وظهر الفرح على دولت وقالت في سرور مخلص :

— حقا ؟

وقالت وهبة في نغمتها السعيدة المرحة :

— ادهبي إليها ... ادهبي .

وذهبت دولت إلى فايزة ولكنها وحدتها قد أوصدت من دونها الباب ، وهمت أن تطرقه ثم تذكرت ألا فائدة من طرقه فعادت إلى وهبة ثانية . وراحت وهبة تعطي الأدوية لدولت واحدا بعد الآخر وتخبرها عن مواعيدها في دقة وتحذرها أن تنسى أو تهمل .

وعادت فايزة بعد قليل وقد استعادت جأشها أو كادت ، ووجدت آثار النبأ الجديد على وجه دولت وعجبت أن ترى منها هذا الفرح الخالص الصافي الصادق العميق ، حتى لكادت تشك فيما رأت عيناها . ولكنها سرعان ما سخرت من نفسها وشكها ؛ فقد أكون صماء ولكنني على أية حال أرى ... ولقد رأيت . . رأيت بعيني ، وأوشكت أن نعود إلى ثورتها ولكنها تماسكت وجلست إلى أقرب كرسي منها .

وقالت في لهجة توشك أن تكون بريئة :

— هل جاء يسري يا دولت ؟

وأرتج على دولت هنيهة ، تستطيع العين البريئة ألا تلحظ ارتباكها ولكن العين التي رأت ... عين فايزة لم تكن تستطيع ألا تلحظ ، وتمالكت دولت نفسها وقالت :

— نعم .

ثم أتبعت الكلمة بإيماءة لتفهم فايزة ، ولم تكن فايزة في حاجة إلى الإيماءة بل

حبل إليها أنها سمعت ، فقد كانت تدرى بمادا ستتحرك شفتا دولت فقالت لها :

— أين هو ؟

ومرة أخرى لم تكن فى حاجة إلى الإجابة ، ولكن دولت أشارت إليها أنه بالطابق الأعلى . وصاحت وفية :

— صحيح ؟... أين هو ؟...

وخرجت نحرى من الحجرة وهى تصيح :

— يسرى ... يسرى .

وجاءها صوت يسرى يجيب نداءها ، وما لبث أن أشرف عليها من أعلى السلم :

— ماذا هل جئتم ؟.. ألم تذهبوا إلى السينما ؟

وقالت وفية فى مرحها :

— أية سينما ... تعال ... انزل ... أسرع .

وسارع يسرى ينزل السلم وثبا وهو يقول فى فرح بعثه إليه مرح وفية :

— ماذا ... مادا حصل ؟

وقالت وفية :

— لا ... لن أخبرك أنا ... فإن هذا من حق زوجتك وحدها .

وكاد يسرى يعرف ولكنه قال فى سرعة :

— أين هى ؟

— فى المكتب .

وسارع يسرى إلى فايزة وهو يقول :

— فايزة ... فايزة ... ماذا ؟

ورأت فايزة زوجها فعادت تمسك بكرسيها وأنعمت فيه النظر داهلة تمور فى

نفسها أعاصير من الغضب والألم ، وخيل ليسرى أنها ذاهلة لأنها لم تسمع منه يعن بالكتابة فقد أدرك من الجو المحيط به أنها تحمل ابنه . ولكنه أراد أن يتأكد فنظر إلى دولت يسألها :

ـــ قولى أنت قلا وقت عندى للكتابة .

وقالت دولت فى إشراق :

ـــ اسألها ... ألم نقل وفية هام إن هذا من حق زوجتك وحدها ؟

وانكب يسرى على حبر فايزة يقبلها ويقول :

ـــ أظننى أعرف ... أظننى أعرف ...

وما إن لامست شفتاه فايزة حتى عادها الغثيان فانتفضت عن كرسيها وأسرعت الخطى تخرج من الحجرة .

وقالت وفية :

ـــ ها قد أجابت ... إنها فى الوحم .

وقال يسرى وقد اختلج قلبه فى فرح غامر :

ـــ حقا ... فلماذا لم يرها الدكتور ... لماذا لا تأخذ الدواء ... لماذا تتركونها فى هذا التعب ؟؟

وقبل أن تجيب دخل خيرى متوجسا ، وما أن رأى ما هم فيه حتى اطمأن ، فقد خيل إليه أن فايزة استدعته لتخبره بهذا النبأ السعيد ، فراح يشارك الجميع فى فرحهم . وحين عادت فايزة لم تحاول أن يسألها لماذا أرادته فقد اطمأن إلى الظن الذى خامره . وطالت الجلسة بعض الحين ، وأمسكت فايزة بجلسة ورقة وراحت تكتب عليها كلاما . وحين رأت الأنظار متجهة إليها راحت ترسم على الورق أشكالا لا معنى لها ، ثم تقطعه وتلقيه إلى السلة . حتى إذا اطمأنت أن الجالسين ظنوا أنها تتسلى قامت وهى تقول :

— إنى متعبة ... سأنتظركم بالدور الأعلى ... أظنك لن تصعد يا آنى حيرى ... أراك بخير .

وتقدمت منه ومدت إليه يدا مطبقة الأصابع ، وما إن انفرجت يدها فى يده حتى أحس ورقة صغيرة تنتقل إليه ، فأدرك أنها تريده فى أمر لا تحب أن يعرفه غيره . فأمسك بالورقة فى حلسة ووراءها عن الآخرين ، وانتهز فرصة العيون التى تبعت فايزة فى خروجها ووضع الورقة فى جيبه .

وتبعت دولت فايزة ، ولكن صوت فايزة سرعان ما بلغهم مناديا :

— أيها وفية ، تعالى إلى أريدك .

وخرجت وفية وبقى الأخوان معا ، وقال حيرى :

— مبروك يا يسرى .

وقال يسرى .

— مبروك أنت أيضا ... إن ابنى هو ابنك .

وقال حيرى :

— الله يجازيك أحس نفسى عجوزا ... أحس كأنى جد .

وضحك يسرى ، ولكن حيرى لم يكن خالص الفرحة فقد أفسدت هذه الورقة المطوية فرحته . وأوشك أن يسأل أخاه إن كان قد أغضب فايزة ولكنه خشى أن يفشى بهذا السر لا تريد صاحبته له أن يذيع ، فلم يجد شيئا يقوله إلا أن يستأذن وينصرف .

وحين بلغ حيرى الشارع وقف عند أول عمود نور ، وأخرج الورقة المطوية من جيبه وقرأ « أريدك غدا فى الصياح » .

٠٢

حين بلغ خيري عزت باشا وجد فايزة قد أعدت العدة لتنفرد به ، وما أن حلت بهما الحجرة حتى أقفلت الباب بالمفتاح ووضعت الورق والقلم على منضدة جعلتها بينها وبين خيري . ثم راحت تقص على خيري ما رأته باذلة أقصى جهد تطيقه إنسانة طعينة تحرص ألا يرى أحد الدماء النازفة أو الجرح الغائر … وقد زاد جهدها الدماء نزيفا والجراح غورا أمام عيني خيري الإنسان الكبير … رأى في وجهها العذاب نيرانا ، ورأى في وجهها جهادها أن تخفى هذه النيران ، ولم تبك ولكن خيري بكى . وما إن رأت دموعه حتى انهارت عزيمتها الصلبة فوجدت نفسها تميل على المنضدة بينهما ، ثم وجدت نفسها تنطلق في نشيج يندلع من أقصى حنات قلبها ، حتى لخيل لخيري أنه سيرى عن قريب قلبها ينسرب من عينيها . ولكنه لم يشأ أن يذكرها بوجوده … لم يربت كتفها ولا كتب لها أن اصبري … لم يفعل شيئا فقد رأى أن خير ما نفعله هو أن تبكي وخير ما يفعله هو أن يسكت .

حتى إذا هدأ نشيجها ورفعت وجهها المخضب بالدموع نظر إليها خيري نظرة طويلة فيها حنان وفيها أخوة وحرص ألا يبدو في نظرته عطف أو إشفاق … ثم كتب « ماذا تريدين أن أفعل ؟ » .

وقالت :

— لا أريد دولت … ولا أريد أن أطردها أنا .

وأومأ خيري أن نعم … إيماءة فيها حزم وفيها وعد لا شك في تمديه . ثم كتب

« هل تريدين شيئا آخر ؟؟ » .

وقالت فى حزم .

— لا … اترك الباقى لى … لا أريد يسرى أن يعرف أننى رأيته .

وأومأ أنه لن يعرف . ثم كتب « اطلبينى فى أى وقت … وسآخذ لك ما تشائين » ثم قام فقامت وأمسكت يده بكلتا يديها وراحت تربتها وهى تقول :

— أنت دائما أخونا … أنت عندنا مثل محسن … وأنت تعرف .

وأطرق خيرى ولم يقل شيئا ، وربت يدها بيده ثم أخذ طريقه إلى الباب ، فأدار فيه المفتاح ثم أخرج المنديل من جيبه ومسح دموعه ووقف هنيهة يتهيأ للقاء الناس ، تنحنح وخرج يجاهد نفسه ألا يلتفت إلى عايدة .

* * *

قصد خيرى من فوره إلى الشركة ، وحين دخل حجرة السكرتير وجد بها شابا فى سن يسرى إلا أنه كان مهمل الثياب ، ووجد السكرتير يحطم أوراقا على مكتبه كأنه لا يجد شيئا يعمله . وقال خيرى :

— البك موجود ؟

فانتبه إليه السكرتير وحدق فيه هنيهة ثم قال :

— هل هناك موعد ؟

فقال له خيرى فى هدوء :

— قل له أخوك يريدك .

وانتفض السكرتير يفتح باب يسرى ، ونظر الشاب الجالس إلى خيرى وهمّ أن يقول شيئا . وانتظر خيرى هنيهة كى يسمع ما يريد الشاب أن يقول ولكنه رأى فى عينيه أنه عدل عما يزمع قوله ، فعبر خيرى الباب إلى يسرى .

ودهش يسرى لحظة من قدوم أخيه ، ثم ما لبث أن وثب إليه يرحب به مبالغا

ن الترحيب فقد كان فرحا حقا بزيارة أخيه .

وقال حيرى :

— استطعت أن أجد فرصة لترك المكتب فقلت أزورك فى شركتك التى لم أرها .

— أهلا ... أهلا ... كم أنا فرح بزيارتك هذه يا آلى حيرى .

ولم يترك السكرتير لهما فرصة للحديث ، فقد دخل يحمل دوسيه أوراق وعاجله يسرى قائلا :

— ألا نستطيع الانتظار ؟

فقال السكرتير :

— إنها عملية عاجلة يا سعادة البك .

فقال حيرى :

— لا تعطل عملك ... انظر الدوسيه .

وتقدم السكرتير إلى يسرى ووضع الدوسيه أمامه ، وقرأ يسرى عنوانه ... إنها عملية شركة النقل . وأوشك أن يقول للسكرتير اتركه ولكنه سرعان ما أدرك ألا فائدة ترجى من تركه ... وسرعان ما أدرك أنه سيوقع ، وقال فى نفسه « خير البر عاجله » ، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول فى نفسه « الأولى بى أن أقول خير الشر عاجله ... ربنا يستر » ... ثم نظر إلى أخيه وقال فى نفسه « ترى ماذا يفعل بى لو عرف أى عملية هذه التى أوقعها ؟ » ، وكان حيرى منشاغلا بالنظر فى أرجاء الغرفة الأنيقة فلم ير ما مر بأخيه فى هذه اللحظات من سخرية بنفسه ومن حيرة وقلق .

وأعاد يسرى عينيه إلى الورق ثانية وهو يقول فى نفسه « الأمر لله » ، ثم سحر من نفسه وهو يقول دون أن ينطق : « بل الأمر للشيطان » ... ثم سمعه أخوه

يقول :

— هيه !!

ثم أجرى قلمه فى سرعة على الورق وكأنه يدفع عصحر إلى جسم ... وخيل ليسرى أنه يطعن ضميره ولكنه وقع ورفع الورق إلى السكرتير فى سرعة يريد ألا يراه ثانية . وعاد إلى أخيه يرحب به .

ودار الحديث بينهما ... حتى قال خيرى فجأة :

— يسرى ما صلتك بدولت ؟

وامتقع وجه يسرى وخف ريقه ، وتولاه ذهول طغى على تفكيره ، وظل شاخصا إلى أخيه ناهتا لا يدرى بماذا يجيب ، حتى أكمل جملة جمع حروفها من شتى النواحى .

— ما المناسبة ؟

وأدرك خيرى ما يمر به أخوه من حيرة واضطراب ، فقال وقد عزم أن يزيد من حيرته واضطرابه :

— لا فقط أريد أن أعرف ؟

وصمت يسرى لحظات ثم قال :

— علاقة عادية .

وتوغل خيرى فى أخيه بعينيه وأطال التحديق ، ثم قال :

— هيه ... أهكذا ؟

ثم صمت فصمتت الحجرة إلا من صوت واهن هو صوت يسرى يحاول أن يعيد إلى لسانه ليونة فارقته ... ولما طال الصمت قال يسرى :

— هل هناك شيء ؟

وقال خيرى فى حزم :

ـــ والله نعم ... هناك شيء .

واستجمع يسرى نفسه ليقول :

ـــ خير ؟

وقال حيرى :

ـــ لا والله ... ليس خيرا .

ـــ ماذا ؟... ماذا حدث ؟

ـــ ألا تعرف ؟

ـــ آبى حيرى هل هناك شيء ؟.. أرجوك . لا تعذبنى ؟

ـــ اسمع يا يسرى ! هل تصر أن تبقى دولت بالبيت ؟

وأطرق يسرى طويلا ثم قال :

ـــ ماذا أفعل ؟

ـــ ألا تذهب إلى أخيها ؟

ـــ وما شأنى أنا ؟... إنه ليس بيتى

ـــ يسرى ... أرجوك لا تلف على

ـــ أنا ؟!

ـــ نعم أنت ...

ـــ آبى حيرى ... هل سمعت شيئا ؟.. هل قال لك أحد إن هناك شيئا .

ـــ يسرى إننى واثق أن بينك وبينها أشياء .

ـــ هل أخبرك أحد بذلك ؟

ـــ هل رآكما أحد حتى يخبرنى ؟

وأدرك يسرى أن أخاه يريده أن يعترف ، أدرك أنه لو قال « لا » اعترف ، فصمت هونا ثم قال :

— ليس بيننا ما يخفيه .

وصمت خيرى ثم قال :

— إذن فأقوم أنا .

واضطرب يسرى وخشى أن يتركه أخوه هكذا معلقا دون أن يطلعه على حقيقة ما يعرفه ، فتشبث بسقائه قائلا :

— لماذا ؟... لماذا تقوم ؟

— لأنك تصر على أن تدور على وتلف .

— ماذا تريد ؟

— لا أريد دولت أن تبقى فى البيت .

— هل سمعت شيئا ؟

— إنى أعرف دولت وأعرفك .

وارتاح يسرى بعض الشىء واطمأن أن علم أخيه قائم على الاستنتاج فاستقر مضطربه . وكان ترك دولت للبيت أمرا يفكر فيه هو بل إن دولت أنبأته فى الأمس أنها تريد خمسين جنيها لتعود خاة عند الحاجة ... الحاجة ... قالت الحاجة من .. لا يهم ... فلماذا لا يعطيها ما طلبت ، ويروحها ؟.. والله فكرة ... من يتزوج بها ؟.. إنها هى أيضا لا تريد البقاء وتريد أن تستقل سبت فلماذا لا يعقد هذا ؟.. ولكن من يتزوج بها ؟.. من ... من ؟ وقبل أن يبدأ أخوه الحديث ثانية دخل السكرتير ليقول :

— الأستاذ صبحى ... هل ينتظر ؟

وانتفض يسرى عن مقعده وهو يقول :

— هو ... إنه هو .

وقال أخوه :

ـــ مادا ... ما بك ؟

فقال لأخيه وقد استعاد ثباته :

ـــ لا.... لا شيء .

ثم قال للسكرتير :

ـــ اسأله أن ينتظر فسأطلبه حالا .

وخرج السكرتير وقال خيرى :

ـــ هيه ... أأتركك لتفرغ لعملك ، أم أنتظر دقيقة أخرى لأسمع منك كلاما مستقيما لا لف فيه ولا دوران ؟

وقال يسرى وقد اطمأنت فكرة فى ذهنه :

ـــ مادا تريد منى ؟

ـــ اطلب إلى دولت أن تخرج .

ـــ وما الحجة التى تقدمها لتخرج ؟

وأرتج على خيرى هيبة ثم قال :

ـــ هذا شأنها وشأنك ... لتقل إنها ستتزوج ... أو لتقل إن أخاها يريدها ... أو لتقل ما تشاء ... المهم ألا تبقى فى البيت . فإن نظرات الخدم أمس لم تعجبنى ، وأخشى أن تنتقل نظرات الخدم إلى السادة .

فقال يسرى :

ـــ سأطيعك يا آبى خيرى ... وستسمع حالا أنى أطعتك .

وقام خيرى دون أن يشكره على هذا الأدب ولا على الترحيب الذى لاقاه به فقد كان لقاؤه مع فايزة لا يزال مسيطرا عليه .

وهم خيرى أن يخرج من الباب الذى دخل منه ولكن يسرى عاجل يسبقه قائلا :

— بل من هنا يا آبي حبري ... فهنا بابي الخاص ... لا تزرني بعد اليوم إلا معه .

ولم يقل يسري شكرا بل واصل طريقه إلى باب الشركة الخارجي ، ويسري من خلفه يتبعه حتى خرج إلى الطريق .

وعاد يسري إلى مكتبه مسرعا ، واستقر على كرسيه وطلب أن يدخل إليه صبحي . ورحب يسري بصديقه ترحيبا بالغا وراح يسأله عن زملائهما ، وراح صبحي يجيب في لعثمة أول الأمر ثم انطلق لسانه في ظلال الذكريات ، ووجد نفسه دون أن يحس قد عاد مرة أخرى زميلا لهذا الجالس على الكرسي الأنيق لا يفصله عنه منصب كبير حين هو بلا منصب على الإطلاق ، ولا يفصله عنه غنى وجاه حين هو بلا غنى ولا أمل في الجاه ... تحادث الصديقان وجمعت بهما الأحاديث حتى لقد نسي يسري نفسه هو أيضا ، وراحت الذكريات ترفرف عليهما بجناحين فيهما حنان وألم في القلب وحبيب قوى الأحد آسر .

وكاد يسري ينسى ما انتوى أن يقوله لصديقه بل كاد صبحي نفسه ينسى ما جاء له وقد جاء لحياته . فقليلا ما ترفرف هذه الأجنحة ، وقليلا ما يدوم هذا الحنان في حجرة اجتمع فيها اثنان لكل منهما عند الآخر نشيدة ترتجي وأمل مرموق . غير أن يسري عجب من نفسه أن أحست هذا الدفء ، وعجب من نفسه أن تسيطر عليه الذكريات فيلتذ أسكوبها . وسرعان ما أفاق إلى مجلسه ومنصبه محرص أن يشيع في الغرفة صمت ، وحرص ألا يفاتح صبحي فيما جاء له فقد أراده أن يكون هو البادئ بالطلب . وسرعان ما استرد صبحي نفسه من الأيام العابرة ليعيش في حاضره ويذكر ما نسيه من فوارق ومن قراع ومن فقر وشظف عيش :

قال صبحي :

— ماذا عملت لي ؟

واصطنع يسرى النسيان فقد كان يعلم كيف يصطنع النسيان :

— عم ؟

— فى مسألتى .

— آه ... الوظيفة .

— نعم .

وأطرق يسرى ليقول :

— والله يا صبحى المسألة معقدة .

— ألا أمل يرجى ؟

— كل شىء ممكن ... إلا أن المسألة صعبة جدا ... فالوظائف معدومة والشركة تشكو كثرة الموظفين . وقد نهنا مجلس الإدارة مرات إلى نضخم اعتماد الوظائف حتى إننا نفكر فى هذه الأيام فى توفير بعض الموظفين .

وأطرق صبحى صامتا آسفا يرى أمله يصرع بعد أن كان قد أنشأه فى نفسه فكبر حتى كاد يصبح حقيقة ، ولم يجد ما يقوله إلا :

— أى وظيفة يا يسرى ... يا يسرى لك ... لا بهمك أننى أحمل شهادة عالية فقد أصبحت الشهادات اليوم عقبة أمامنا ، وصاق بى أنى وأصبح فى كل يوم يصبحنى ويمسينى بقوله : « ها قد تعلمت فهل جئت بالسبع من ذيله . لو تعلمت الصنعة مثلى لكنت اليوم تأتى بأكلك على الأقل » . وحبانى أصبحت لا تطاق حتى أمى أصبحت تضيق بى ، اللقمة التى أتناولها فى بيتى لا أستطيع أن أبتلعها فإنى أحس أنها حق إخوتى الذين يعملون مع أبى ، أو حق أبى الذى يشقى نهاره وليله ليأتى بها ... وإنى أحس أنظار البيت جميعه تحدق باللقمة فى طريقها إلى فمى فتمسك أنظارهم بها وأعيدها إلى الطبق وأقوم ... جوعان ، أرى الأكل ولا أطيق أن آكله ... تعافه نفسى وأحتاج إليه ... أى عمل يا يسرى ...

يا يسرى لك :

وانهار ضحى باكيا فى نشيج مكتم لا يعلو ، ولم يملك يسرى إلا أن يقول :

— الله ضحى ... ما بك يا رجل ؟... تشجع إنك رجل !

فقال ضحى :

— لا رجولة مع الحاجة أبدا .

فقال يسرى وقد قام يقف إلى جانب ضحى ويربت كتفه :

— هون يا ضحى ... هون إن شاء الله ... اسمع .

— نعم .

— هل أنت متزوج ؟

وأفاق ضحى إلى صديقه إفاقة تامة :

— نعم ... ماذا قلت ؟

— هل أنت متزوج ؟

— وهل أجد طعامى حتى أتزوج ؟ إن كان أهلى لا يحتملوننى وحدى فهل يحتملون معى فما آخر ؟!

— ما رأيك لو تزوجت ؟

— وهل هذه وظيفة ؟

— نعم .

— لا أفهم

— أحد عطو مجلس الإدارة المنتدب ... تتزوجها اليوم تصبح غدا من كبار موظفى الشركة

— ولكن ؟!

— مادا ؟!

— هل بها عيب ؟

— أبدا .

— إذن فلماذا تتزوجين ؟

— تركها أخوها وسافر إلى أوروبا ، وطال غيابه بها فلم تتزوج ، وسنها اليوم كبيرة بعض الشيء ولكن الفارق بينكما لا يذكر .

— أهي عجوز ؟

— سأجعلك تراها !

— ومن أين آتي بالمهر والملابس ؟

— الملابس يسهل تدبيرها .

— والمهر ؟

— أسلفك .

— ومن أين أسدد ؟

— من مرتب الشركة .

— إذن ؟

— سأجعلك تراها غدا .

— غدا ؟!

— غدا .

— وهو كذلك .

وخرج صبحي على موعد في الغد ، وكان الموعد بحديقة الشاي في حديقة الحيوان يراها عنانك مع يسرى .

وما إن أقفل صبحي الباب من خلفه حتى أمسك يسرى بسماعة التليفون وطلب بيته ، وحين أجابته دولت قال لها :

— الآن فى بيت أخيك .

وتأكد أن الدكتور حامد بالشركة ثم نزل .

* * *

وحين التقى يسرى بدولت بادر فأعطاها ورقة بخمسين جنيها وهو يقول .

— غدا سيراك العريس بحديقة الشاى معى ، ثم تذهبين من فورك إلى الحاجة ... الحاجة ...

فقالت دولت :

— توحة ... الحاجة توحة ... ولكن من العريس ؟

— شاب متعلم سأعينه فى الشركة بعد زواجك مباشرة .

— أكبير هو فى السن أم صغير ؟

— فى سنى أنا ... ستريه غدا ... قومى الآن ، فإنى سأعود إلى الشركة .

ونظرت إليه مليا ثم قالت مفكرة :

— طيب ، اذهب أنت .

٣٨

لم يكن فرح دولت كبيرا فقد حرص الدكتور حامد أن يكون فى أضيق الحدود الممكنة ، وقد حصر عرت باشا الفرح وفاء منه لدولت كما شهدته وفية ومحسن ونادية وإجلال هانم وسميرة هانم ، إلا أن فايزة استطاعت أن تجعل من حملها سببا قويا للاعتذار فلم تحضر ، كما استطاع حمدى أن يجد عذرا فلم يشهده هو الآخر ، فهو لا يعرف صبحى ولا يحب أن تقوم بينه وبين دولت صلة من بعد ، ولم يمنه أحد إلى غياب الاثنين غير يسرى ، إلا أنه سرعان ما نفض عن ذهنه أن زوجته تعرف شيئا ... وكان العروسان قد استأجرا شقة صغيرة بالغة الصغر ، فما إن انتهت الليلة حتى انتقلا إليها وانقض السامر الصغير فى شقة الدكتور حامد الفاخرة .

* * *

كان يسرى فى مكتبه صبيحة الزواج حين اقتحم صبحى عليه الباب وهو يقول فى غضب وسخرية :

ـــ صباح الخير يا أستاذ .

ووقف يسرى محاولا أن يتجاهل ما كان واضحا فى الاقتحام والصوت من معان مخيفة :

ـــ أهلا وسهلا ... أهلا بالعريس .

وقال صبحى دون أن يهدأ غضبه أو تخف سخريته :

ـــ أهلا بك ... من العريس ... أنا ؟

وقصد يسرى إلى الباب فأقفله ، والتفت إلى صبحى قائلا :

ـــ ماذا بك يا صبحى ؟. اجلس .

ـــ لن أجلس .. أريد مقابلة عضو مجلس الإدارة المنتدب .

ـــ لماذا ... خير ؟

ـــ خير طبعا ... وأى ... أخبره عن أخته وعن الخاتمة توحة والعملية الفاشلة التى أراد الله لها أن تفشل حتى أفتح عينى ولا أصبح ما أردت لى أن أكون .

وأدرك يسرى كل شىء ، ولكنه سرعان ما تمالك أمر نفسه وقال :

ـــ اجلس ... اجلس أولا .

قال صبحى :

ـــ ولماذا أجلس ؟.. أنا نسيب البك عضو مجلس الإدارة ... أريد أن أقابله ... أنا أقرب إليه منك وهو أقرب إلىّ منك ... أنا نسيب البك ... لا بد أن أقابله .

وقال يسرى فى جرأة :

ـــ اجلس يا أخى ... ماذا تريد أن تقول له ؟

ـــ ماذا أريد أن أقول له ... ألا تعرف ؟

ـــ وماذا تنتظر أن يفعل لك ؟.. تظنه سيحتضنك ويشكرك ويقدم إليك الوظيفة التى تريدها ؟!

وحين سمع صبحى لفظة الوظيفة جلس وصمت ، وقال يسرى :

ـــ اهدأ هكذا ولنتفاهم ... إن أمورا مثل هذه التفاهم فيها مهم ومفيد .

ـــ مفيد ... مفيد ؟!

ـــ نعم مفيد .

ـــ أهكذا ... أرنى يا سيدى كيف يكون التفاهم مفيدا ... فمنك

تستفيد ؟

— نعم متى تستفيد ... وما المانع ؟

— تفضل قل .

— المشكلة أنك وجدت عروسك ليست فتاة ... أليس كذلك ؟

— هأنتذا تعرف !!

— كيف يمكن أن تصبح فتاة ؟

— حاولت الحاجة توحة فلم تفلح .

— قد يفلح غيرها .

— لا أفهم شيئا .

— ألا تفهم ؟

— أفصح .

— ألا تستطيع أنت ؟

— أنا ... أنا .

— نعم ... من سيعلم بالحقيقة .. هذه مسألة بينك وبين زوجتك لا يعرف بها غيركما . وأنت لم تتزوجها حبا فيها وإنما حبا فى الوظيفة ، والوظيفة مضمونة مادام بينكما الزواج .

— وأسكت ؟!

— فإذا أضفنا إلى الوظيفة مبلغا صغيرا من المال يكون رأس مال لكما ولأبنائكما ، ألا يعوضك هذا عن زوجة فتاة ؟

وسكت صبيحى وأطرق وانهلت من عينيه دمعتان وكأنما تسربت فيهما سخريته التى صحبها ، فأخرج المنديل الأنيق الذى أهداه إليه يسرى وأزال دمعتيه ، وأزال معهما البقية الباقية من غضبه وقال :

— لا بد أن يكون التعويض كبيرا .

— سيكون مجزيا .

— خمسمائة جنيه .

— فإن كان مائتين .

— احمله ثلاثة .

— مائتان ، ولا ترد المائة جنيه التى اقترضتها منى

وأطرق صبحى وصمت ، وأخرج يسرى دفتر الشيكات وكتب شيكا حمله لحامله وأعطاه صبحى الذى وضعه فى جيبه وهو يقول :

— منى أتسلم الوظيفة ؟

— ألا ترى أن تنتظر بضعة أسابيع حتى لا تحرج الدكتور حامد ؟

— على ألا تصل إلى شهور .

— توكل على الله ... فترة أسبوعين أو ثلاثة وأكتب قرارا بتعيينك وأحمله يوقعه .

— وهو كذلك .

وخرج صبحى غير غاضب ولا ثائر ولا حائر أيضا ، فقد علمته أيام الشظف التى عاشها مع أبيه وأمه ألا يغالى فى غضبه ، كما علمته أن الطريق وعر على رواده ، كما علمته النقود أن يكون هادئا ما وسعه الجهد .

وحين خلا يسرى بنفسه راح يفكر فى هذه الوظيفة التى وعد بها صبحى . لم تعد هيبة المأخذ كما كان يظن حين وعده بها أول الأمر ، فقد كثرت الصفقات المريبة التى عقدها الدكتور منذ ذلك الحين ، وأصبح مجلس الإدارة كثير التشكك ، وكثر التساؤل بين أعضاء المجلس والدكتور حامد لا يريد أن يكف عن صفقاته ولا يريد أن يستمع إلى تحذيره ، بل هو ماض فى سبيله لا يكترث

بأحد ولا بشيء فكيف يستطيع اليوم أن يعين زوج أخته ، وكيف يوافق المجلس على هذا التعيين ؟

* * *

مرت شهور بعد الأسبوعين والثلاثة وصبحى يقدم فى كل حين يستحثه يسرى وعده ، ويسرى يستمهله ، ويلحاً إلى حامد فيستمهله أيضا مدركا ما يحيط به من حرج . وكان صبحى لا يستطيع أن يطلب مالا من حامد ، وما كان ليعطيه لو هو طلب فقد كان يجهل كل شيء .. ولكن صبحى كان يلحاً إلى يسرى فيعطيه عشرة ثم خمسة ثم جنيهين ، ثم جاء يوما إليه وهو يقول :

ـــ وبعدين يا يسرى ؟

ـــ وبعد فيم ؟

ـــ الوظيفة ؟

ـــ نحن فى موقف عاية فى الدقة ... وما إن نخرج منه حتى تعين على الفور !

ـــ وأنا ماذا أفعل ؟

ـــ وأنا ماذا أفعل ؟

ـــ لقد طال الوقت وطال ...

ـــ ألا أعطيك ما تطلب ؟

ـــ أتمن علىّ بما تعطى ؟.. إنك مضطر لذلك

ـــ وما يضطرنى ؟

ـــ ألا تعرف ؟

ـــ آه ! هذه الحكاية القديمة ؟

ـــ مادا !! أصبحت قديمة ؟

ـــ ألم تعرف هذا ؟.. ألم يمر على زواجك شهور ؟.. أتريد بعد هذه الشهور

أن نقول ؟..

وأدرك صبحى الموقف على حقيقته ، وقال يسرى :

— أنظن أنى مصطر لإعطائك ... لا يا أخى ... أنا أعطيك لله ... لا لأننى مرغم !!

وأطرق صبحى ، وقام صامتا وحرج .

٣٩

كان خيرى جالسا فى حجرة أمه ، وهى تصلى جالسة على كرسى جاعلة ركوعها وسجودها على نصد اتخذته أمامها ، وكانت نادية تقرأ شعرا على أخيها وهى مأخوذة بجمال الشعر ، فهى تلقيه فى إعجاب وقد صعدت الدماء إلى وجهها فزادت براءتها جمالا وروعة ، يتهدل شعر دهبى على جبينها فترفعه فى غير كلفة ولا اصطناع ، وعيناها بريق أخضر أودعهما حب الفن شعاعا من نور مهما تتألقان ، وينساب الشعر من بين شفتيها موسيقى رخية النغمات عميقة فيخيل إليك أنه نبض قلب أو نبض شباب ، وخيرى ينظر إليها بإنعام مأخوذا بقوامها الأهيف وجمالها الطاغى الهادئ وصوتها الناعم الندى ، ويجد فى نفسه لهفة أن يضمها بين ذراعيه فينا يها إليه ويطويها فى حنان أب بين أحضانه ويقبلها وهو يقول :

— أنت خير قصيدة رأيتها أو سمعتها ...

وتقول فى خجل :

— وبعد لك يا آبى خيرى ... ألا تجعلنى أكمل القصيدة ؟..

— كم أغار من ذلك الشاب الذى سيأتى يوما ليأخذك منا .

وقالت نادية وقد ازداد حجلها :

— آبى خيرى .

وتفرغ الأم من صلاتها وهى تقول :

— ستفسد البنية يا ولد بكثرة مديحك لها .

— نادية لا تفسد أبدا ... ربنا يحميها .

وضحكت الأم ونادية فى جذل ، ودق جرس الباب فقالت الأم :

— افتح الباب يا خيرى دادة زينب لم تعد قادرة على المشى فى سهولة ... يا ابنى أين بنت عبد التواب التى قلت إنك ستحضرها من البلد ؟

ولم يستطع خيرى أن يجيب أمه فقد شخص إلى الباب ، وما إن فتحه حتى وجد نجيبا واقفا به وكان قد غاب عنه فترة طويلة ، فصاح به :

— أهلا ... أين أنت يا ولد ؟

— ألا تسأل أنت ؟.. النهاية ... أريد فنجان قهوة .

وقاد خيرى صديقه إلى غرفة الجلوس وأقفل الباب ، وعاد إلى نادية يطلب إليها أن تصنع لهما قهوة .

وحين استقر المجلس بالصديقين راحا يديران بينهما الحديث ، ونجيب يقص على خيرى ما يعرض له فى مهمة المحاماة التى احترفها والتى أصبحت تدر عليه ربحا مرضيا ... وبعد قليل وقت سمع خيرى طرقا على الباب فقام يحضر القهوة من نادية ، وقال نجيب وهو يشربها :

— أين تذهب اليوم ؟

— أمرك .

— عندى لك هدية .

— خيري ؟

— بيت حديد عرفته

— كيف مصر الجديدة !!

— والله عمك كان رجلا عظيما ... ماذا فعل الله به ؟!

— مات وتزوجت الأسنان من شابين موظفين محترمين

— أتعرف العماوين ؟

— يا حبيبي لذة العيش في التنقل ... التنقل يا حبيبي التنقل ... البيت الذي سنذهب إليه اليوم فيه امرأة لا تراها ولا على الشاشة الأمريكية .

— وفيه لك عم أيضا ؟!

— لا ... أخ ... فروجها رجل طيب ، وابن حلال ويرضى بالقليل .

— وما القليل ؟

— جنيهان !

— جنيهان ؟! ألا تذكر القروش ؟

— الحرب يا سيدي رفعت أسعار البضاعة ... كانت أيام ومرت ولن نعود ... ولكن الحق أن الجنيهين ثمن بخس بالنسبة للجمال الذي ستشاهده هناك .

— سنرى

* * *

نزل الصديقان في ميدان الدق وأخذ سمنهما إلى الشارع المفضي إلى الجامعة ، ولم يطل بهما المسير فقد أمسك نجيب بذراع خيري وحاد به إلى عمارة حديثة . وصعد بهما المصعد إلى الطابق الأعلى فوجدا شقة لا تفاضلها شقق أخرى ، فدق نجيب الجرس وفتح الباب شاب أنيق الثياب حريء النظرة حسان المظهر ، وحدق

فيه خيرى يريد أن يتذكر أين رآه ... فقد كان واثقا أنه رآه ولكن أين ؟ لم يذكر .

وفاد الشاب الصديقين إلى حجرة للجلوس غير ردهة صغيرة ضيقة ، ولم يتكلم وإنما غاب عنهما لحظات وعاد فوجد على المضدة أربعة جنيهات لم يكن فى حاجة إلى عدها فوضعها فى جيبه ، ثم ترك الغرفة وما لبث الصديقان أن سمعا صوت الباب الخارجى يفتح ثم يغلق ، فقال نجيب لخيرى :

— قم .

فقام خيرى غير محتاج إلى دليل ، فلم يكن بالبيت إلا حجرة أخرى ففتحها ثم تولاه ذهول ... وصاح :

— دولت ؟!

ونظرت إليه دولت مشدوهة كأنما مسها صاعق ، ثم سارعت تضع يديها كلتيهما على وجهها ، وارتمت على الأريكة تبكى فى خزى وألم .

وترك خيرى الباب مفتوحا لم يقفله ولم يذهب إلى نجيب ، وإنما قصد إلى الباب الخارجى وانصرف .

٤٠

كان خيرى جالسا فى مكتبه بالوزارة منكبا على بعض أوراق حين أحس طلا يلقى على الورق أمامه ، فرفع رأسه ليرى وجها حاول أن يتذكر صاحبه ، ولكن صاحب الوجه لم يمهله :

ـــ خيرى بك ... أنا سكرتير يسرى بك .

وقام خيرى ليحيى ضيفه ويسأله :

ـــ نعم ... هل هناك خدمة ؟

فنظر السكرتير إلى الموظفين الجالسين مع خيرى فى الحجرة ثم قال :

ـــ نسمع ... كلمة على انفراد .

ويخرج خيرى من مكتبه إلى الردهة الخارجية ويريد أن يضف ، ولكن السكرتير يمضى به تاركا الردهة ومبنى الوزارة جميعا ، حتى إذا آنس من الطريق مكانا منعزلا وقف وقال لخيرى :

ـــ أرجوك أن تسمع ما سأقوله لك فى هدوء ، كما أرجو أن تتصرف ، فالوقت أشد ما يكون حاجة إلى الحكمة .

ـــ قل ... ماذا هناك ؟

ـــ النيابة قبضت اليوم على يسرى بك وقد أرسلنى إليك .

ـــ ماذا ؟

ـــ مجلس الإدارة وجه إليهما التهمة بعد أن فصلهما من الشركة .

ـــ وهل عرف بيت يسرى شيئا ؟

— أمرنى أن أجىء إليك .

— وما رأيك ؟!

— لا علم لى بالعقود موضوع الاتهام ، ولكنى أعرف أن يسرى بك لم يكن يقبل مليما حراما منذ دخل الشركة . وقد رفت السكرتير الذى كان يعمل معه قبلى لأنه قدم إليه عميلا يريد أن يرشوه .

— أنت واثق ؟!

— من أمانته ؟ نعم ... ولكن الدكتور حامد دخل فى صفقات كثيرة ، وأخشى أن يكون قد أرغمه على الاشتراك فيها .

— طيب ... أشكرك .

وركب خيرى سيارة أجرة إلى منزله وصعد إلى أمه ، وقال لها وقد اصطنع الهدوء :

— نيما ! الدكتور حامد متهم فى اختلاس ، وقد قبض عليه !!

وفغرت سميرة هانم فاها وقد أوشكت أن تستنتج الخبر التالى :

— مادا ؟

— وبالطبع قبض على يسرى معه .

ونظرت سميرة هانم إليه مليا وقالت :

— خيرى ... هل سرق يسرى ؟

— لا أظن !

— وماذا تنوى أن تفعل ؟

— أريد جزءا من حليك لأرهنه وأدفع أتعاب المحامى .

— هاك المفتاح .

* * *

وقصد حيرى إلى لطفى بك محمد أستاذ القانون الجنائى ، واصطحبه إلى مقر النيابة ، فوجد التحقيق جاريا مع حامد ، ووجد يسرى جالسا خارج غرفة التحقيق ، وحين اقترب منه وجد فى عينيه دمعات تندو وتغيض ، وقال يسرى فى حزم وإباء :

ـــ أنا لم أسرق يا آبى حيرى .

وأنعم حيرى فيه النظر ثم قال :

ـــ نعم ... أعرف .

وجلس المحامى إلى جانب يسرى وراح يسأله عن الاتهام ، وما هى إلا لحظات حتى رأى يسرى زوجته فايزة قادمة يصحبها عزت باشا ووفية وعبد السلام بك هنداوى المحامى الكبير .

وتقدمت منه فايزة لم تسأله شيئا ولم تهتم بشىء إلا أن تقول :

ـــ لا تخف يا يسرى .

وانضم المحامى الكبير إلى زميله الذى جاء مع حيرى ، وراح ثلاثتهم يتحدثون ، وابتعد عنهم رهط الأقارب . وكتب حيرى لفايزة :

« ما كان لك أن تأتى يا فايزة » .

وفهمت فايزة ما يعتبه لكنها قالت :

ـــ فمن يأتى ؟.. لماذا لم تقل لى ؟

وكتب « خشيت أن أتعبك » .

وقال عزت باشا وقد قرأ الورقة :

ـــ لا تخش شيئا يا حيرى ... ولا تحمل من شىء ... فقد أديت أنت واجبك كاملا وللشباب طيشه .

وقالت وفية :

— يسرى لا يسرق .

وسكت أربعتهم ، ولاحظت وهبة أن خيرى ينظر إليها نظرات فيها سؤال لا يريد أن يبوح به فقالت :

— جميل مشغول مع الوزير لم يستطع أن يجيء .

وفهم خيرى أن جميل حتى على منصبه وهيبة السلك السياسي .. فمهد له فى نفسه العذر وانطوى على خجله وصمت .

لم يمض وقت طويل حتى استدعى يسرى إلى التحقيق ، وصحبه المحاميان الكبيران .

وبدأت أسئلة النيابة تنهمر على يسرى وهو يجيبها فى حذر ، محاولا ما وسعه الجهد أن يحمى نفسه ويحمى الدكتور حامد ما أمكنته الوقائع من حمايته . وراح ممثل النيابة يستدرجه ويحيط به مما مرن عليه من مهارة وخبرة ، حتى إذا وجده صلبا فى دفاعه عن نفسه وفى دفاعه عن رئيسه فاجأه قائلا :

— وما قولك فى التهمة التى يوجهها إليك عضو مجلس الإدارة المنتدب ، من أنك وحدك المسئول عن كل العمليات محل الاتهام ، ومن أنه لم يوقع ورقة واحدة منها إلا بعد توقيعك ؟

وروع يسرى وحيل إليه أن ممثل النيابة يحاول أن يوقع ما بينه وبين الدكتور حامد ليعترف كلاهما ، ونظر يسرى إلى حامد نظرات متسائلة أشاح عنها حامد غير عابئ ، فقال يسرى :

— هو قال ذلك ؟!

وقال ممثل النيابة للكاتب دون أن ينظر إلى يسرى :

— أعطه المحضر ليطلع عليه .

وقرأ الاتهام صريحا واضحا ، بل قرأ سؤال النيابة للدكتور حامد : هل تشك

فى دمة سكرتير الشركة ؟ » وقرأ إجابته : « لم أكن أشك فيها ولكنى بعد أن تبينت الآن ما كان فى هذه الصفقات من تلاعب أصبحت على يقين أن ذمته تصل أى شىء »

وأعاد يسرى الأوراق للكاتب مفحوصا حريصا ألا ينظر إلى حامد مرة ثانية محاذرا نفسه ألا تتحول عيناه إلى حيث يجلس … أطرق يسرى وسكت … إذن فهذه هى الحياة التى يعرفها الدكتور حامد ولا يعرف غيرها … النجاح عن أى طريق ، والكسب من أى سبيل ؟ فإن اعترض طريقه عارض فيده إلى أقرب شخص تصل إليه يده ويضعه تحت قدميه ليعبر هو … وإن انهدم المعبر بعد ذلك … نعم وإن انهدم وانهار وأصبح لا شىء إلا ذرا من الغبار . تلك هى مثله ، وتلك هى العقلية الناضجة المتحررة من تقاليد الماضى المتزمتة إلى آفاق المستقبل الثائر على القيم والأخلاق وكل الخرافات التى يقول بها خيرى … أهى خرافات ؟ . أم تراني أنا الذى كنت أعيش فى خرافة يقودنى ويهدم خطاى فارس من فرسان اللاأخلاق واللاقيم واللامثل واللاشىء على الإطلاق إلا اهتبال الفرص السانحة وتحطيم كل ما يعترضنى ومن يعترضنى للوغها ؟ أما آن لخيرى أن يسحر ؟ . وأحسب بسحريته إن فعل … ولكنه فى بيله لن يسخر … بل ها هو ذا خارج الغرفة يصحب أكبر المحامين ، الله وحده يعلم كيف دفع له أتعابه ، ومعه الرجل الذى سكت على قصله فلم ير منى إلا استغلال اسمه واستغلال منصبه ، ومعهما الزوجة التى تزوجتها لمالها ونحتنها … أتعلم عبانتى لها ؟ . لا ما كانت لتحب لو كانت تعلم … لا فلا يمكن أن تصل بها الملائكية إلى هذا المدى ، فقد يكون بين الناس من وصلت أرضيتهم إلى ما وصلت إليه ولكن ليس بين الناس من تصل بهم الملائكية إلى الحد الذى أتصوره … لا يمكن أن تكون قد علمت بما كان بينى وبين دولت ثم تجىء … ولكن ألبست رائعة فى محبتها إلى هى

وأحنها وأبوها ؟.. وأبوها من هو اسما وقدرا ، وهي وأحنها من هما شرفا ... لم يقل الرجل ولم تقل واحدة منهما : بعيدا عن العفن ... بعيدا عن المستنقع الذى تردى فيه هذا الذى عال حماتا ، ودنس اسما ، وهوى بما كانجا في ثيابه من شرف ومجد ورفعة ... لم يقل واحد من ثلاثتهم هذا وإنما جاءوا يقفون إلى جانبى ولأراهم لى ركنا ، فى حين أرى من سعيت به إلى مكانته ... أرى ذلك الذى أحاول أن أحبه ... أرى ذلك المثل الذى جعلته أمامى وتتبعت خطاه يرمى بى إلى الوحل محاولا أن يدوسنى ثم هو وأموت أنا فى الطين .

حرص يسرى مرة أخرى ألا ينظر إلى حامد فقد تمثل له شيطانا من ماضيه قائما أمامه ، فهو يريد أن ينساه أو يمحى فلا يراه .

طال الصمت فى غرفة التحقيق ، وترك ممثل النيابة يسرى لصمته لم يقطعه مقدرا ما أصابه من التهمة التى وجهها إليه حامد ، بجمعه العطف أن يلح عليه بالأسئلة فى غمرته هذه ، مرتكبا أن التفكير الذى ينحه له الصمت قد يهديه إلى الاعتراف ...

وقال ممثل النيابة آخر الأمر :

— ما أقوالك ؟

وانتبه يسرى إلى واقعه ، وصمت هنيهات أخرى ثم قال :

— أرجو تأجيل التحقيق إذا كان ذلك ممكنا .

— إذا تأجل التحقيق فسيستمر حبسك حتى نواصل التحقيق .

وقال الأستاذ عبد السلام :

— ألا تستطيع الإجابة الآن ؟ ..

وقال يسرى فى انهيار :

— أفضل أن يتأجل التحقيق .. لا أستطيع الإجابة ... حالتى لا تسمح

وأصدر ممثل النيابة أمره بالقبض على يسرى وحامد على ذمة التحقيق .

واقتيد يسرى إلى الحبس وفايزة والهة لا تدرى ماذا تم فى أمره ، لا تجد أحدا يكتب لها ما انتهى إليه التحقيق حتى سارع إليها خيرى يتشها ، وانصرف الجميع تحيط بهم أشجان وحيرة .

وفى الصباح الباكر كان خيرى وفايزة أول من حضر إلى دار النيابة وتبعهما المحاميان ، وجىء بيسرى وحامد من الحبوس . وحين حاول أن يقول شيئا ليسرى أشاح عنه بوجهه فكأنه لم يعرفه يوما ، أو كأنه يريد ألا يذكر أنه عرفه يوما .

كان يسرى قد استقر على رأى ... وحين ابتدأ التحقيق معه أصر على خطته من الدفاع عن نفسه وعن حامد معا ، ولم تجد النيابة أدلة قوية تسمح لها أن تأمر باستمرار الحبس فأفرجت عن المتهمين بكفالة قدرها خمسون جنيها لكل منهما ... وخرجا ... وأراد حامد أن يحادث يسرى ثانية فلم يلتفت إليه ، بل سارع إلى السيارة يريد ألا يلقاه فكأنما يهرب من ماضيه كله ومن آرائه ومن الأيام التى عاشها فى ظلال هذا الرجل .

وفى السيارة جلست فايزة وإلى جانبها يسرى وإلى جانبه خيرى ... ولم يملك يسرى أن يسكت ، ولم يأبه بالسائق الذى يقود بل التفت إلى أخيه يسأله :

— أبى خيرى .. هل تعلم فايزة شيئا عن ...

ثم نظر إلى السائق ومال على أذنه يسأله :

— عن دولت ؟

ودهش خيرى من السؤال ، وعجب أن يكون هذا هو أول سؤال يلقيه عليه بعد هذه المحنة التى مرت به فسأل :

— ما المناسبة ؟

— أريد أن أعرف .

— لست فى حل أن أقول .

— فهى إذن تعلم .

وصمت خيرى فقال يسرى :

— فهى التى أسألك .

ولم يجد خيرى محيدا عن إفشاء السر فقال هامسا :

— لقد رأتك فى حجرتها فى اللحظة التى أرادت أن تشك فيها أنها تحمل لك ابنك .

وانهمرت الدموع من عينى يسرى ، ولم يجد شيئا يعمله إلا أن يمسك بيد فايزة ويرفعها إلى فمه يقبلها قبلة المعترف بالفضل . وأحست فايزة بعريزتها نوع القبلة وإن كانت لم تسمع من الحديث شيئا ، فأبعدت يدها عن فمه وربتت بها رأسه فى حدب وقد انهمرت الدموع من عينيها . ورأى خيرى دموع يسرى ورأى فمه لبد زوجته ، فانتظر حتى عاد يسرى يرفع رأسه فأمسك بيده وشد عليها فى ابتهاج وقد تماوجت الدموع فى عينيه ، وقال فى فرح غامر :

— مبروك يا يسرى .

وقال يسرى :

— نعم يا أبى خيرى ... إننى الآن أستحق التهنئة .

نزل يسرى من السيارة حين بلغت البيت ، وأحاط زوجته بذراعه وعبر بها البهو إلى الطابق الأعلى ودخلا حجرتهما ، وأقفل يسرى الباب وكانت فايزة قد جلست على الكرسى ترنو إليه فى إعزاز ، فتقدم منها وركع على الأرض وانكب على قدميها يقبلها فصاحت :

— لماذا يا يسرى ؟... لماذا ؟

وكتب لها « اغفرى لى » .

وأدركت أن حيرى قد أباح سرها فقالت :

— لقد غفرت .

وكتب « كنت فى ظلام » .

فقالت :

— ثم تشرق الشمس .

ثروت أباظة

غزالة فى ٢١ نوفمبر ١٩٥٩

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه